الكتب وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية العدد ١٤١ - السنة الثانية عشرة - أكتوبر ٢٠١٠ - الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazer - Volume 12 - Issue 141 - October 2010

الرقص مع الفساد!

محمد رؤوف حامد

حسن أبشر الطيب

■ مئات الوثائق والبيانات والصور

لماذا كفرت؟

Aaron David Miller

■ أموال .. ومؤمرات ..وأجهزة أمنية

رجلنا في فلسطين

Nathan Thrall

■ أكذوبة «المجتمع الذكورى»

أيام النساء قادمة!

Hanna Rosin

■ **إلى أين يذهب المسيحيون العرب!**

كمال الصليبى

السنة الثانية عشرة
العدد ١٤١
أكتوبر ٢٠١٠

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

حقوق نشر
جميع المواد والرسوم
محفوظة

محتويات العدد:

- آرون ديفيد ميلر ٤
  لماذا كفرت؟
- نيثان ثرول ١٠
  رجل فى فلسطين!!
- محيى الدين عميمور ١٦
  قراءة جديدة فى كتب قديمة «الطريق المصرى إلى القدس»
- محمد رءوف حامد ٢٨
  «ياعزيزى كلنا ...» الرقص مع الفساد!!
- حسن أبشر الطيب ٣٥
  عولمة الفساد!
- جيفرى جولدبرج ٤٠
  من يقدر على إيران؟ «نقطة اللا عودة»
- توماس باورز ٥٠
  كيف أفلتوا بفعلتهم «قوة القنبلة (الكامنة)»
- هانا روزين ٥٤
  نهاية الرجال «*The End of Men*»
- باميلا باول ٦٣
  هل من ضرورة للآباء؟ «*Are Fathers Necessary?*»
- عبد الله إبراهيم ٦٤
  رحيل مفكر شائك
- إصدارات جديدة ٦٦
- رسائل ٧٣
- كمال الصليبى ٧٤
  رأى: المسيحيون العرب

كتّاب العدد:

- آرون ديفيد ميلر.. مستشار سابق لشئون الشرق الأوسط بالخارجية الأمريكية
- باميلا باول.. صحفية أمريكية متخصصة فى قضايا الأسرة
- توماس باورز.. كاتب أمريكى متخصص فى شئون الاستخبارات
- جيفرى جولدبرج.. صحفى أمريكى متخصص فى شئون الشرق الأوسط
- حجاج أبو جبر.. مدرس بأكاديمية الفنون بمصر
- حسن أبشر الطيب.. مستشار إدارى – السودان
- عبدالله إبراهيم.. ناقد وأكاديمى من العراق
- كمال الصليبى.. رئيس سابق لدائرة التاريخ وعلم الآثار فى الجامعة الأمريكية فى بيروت
- محمد رءوف حامد.. رئيس سابق لهيئة الرقابة الدوائية فى مصر
- محيى الدين عميمور.. أديب وسياسى جزائرى. وزير سابق للثقافة والاتصال
- نيثان ثرول.. صحفى أمريكى يكتب لنيويوركر ونيويبابليك
- هانا روزين.. كاتبة أمريكية تكتب لنيويوركر وأتلانتيك مانثلى

رسوم العدد

محمد حجى - J. Howard Miller - Dave Granlund
Petar Pismestrovic - Kerry Waghorn

يحظر النسخ أو الطبع أو التصوير على دعامات ورقية أو عبر الحاسبات لكل أو بعض المقالات المنشورة أو أجزاء منها، بغير إذن كتابى مسبق من الناشر.

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١,٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

«تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة»

The False Religion of Mideast Peace And why I'm no longer a believer.

لماذا كفرت؟

آرون ديفيد ميلر

Aaron David Miller

مثل كل الأديان، أسست عملية السلام Peace Process عقيدة فكرية صلبة، ذات مبادئ غير قابلة للتغيير، حتى عندما بدأت الحقائق التي تستند عليها هذه المبادئ في التغير. ترسخت هذه المبادئ واعتنقها رؤساء الكهنة في معبد الأمن القومي وفيهم الموظفون المخضرمون بوزارة الخارجية من أمثالي، ومحللو الاستخبارات. على مدى العقدين الماضيين، كتبتُ هذه المبادئ مئات المرات لرؤسائي ممن يشغلون مناصب عليا بوزارة الخارجية الأمريكية والبيت الأبيض؛ كانت هذه المبادئ بمثابة تعاليم دينية مقدسة يمكننا جميعا أن نتلوها عن ظهر قلب. إنني أتساءل: إذا لم يكن هذا هو تعريف الإيمان الحقيقي، فماذا يمكن أن يكون؟

■■ في الثامن عشر من أكتوبر/تشرين الثاني ١٩٩١، خلافا لكل الاحتمالات، وأمام حشود الصحفيين المتشككين، أعلن وزير الخارجية الأمريكي جيمس بيكر الثالث ووزير الخارجية السوفيتي بوريس بانكين أنه قد تمت دعوة العرب والإسرائيليين لحضور مؤتمر للسلام في مدريد.

في ذلك اليوم، كنت واقفا في آخر القاعة بفندق الملك داوود في القدس، معجبا بما أنجزته أمريكا. ففي غضون ١٨ شهرا، وهو تقريبا الوقت الذي استغرقه هنري كيسنجر للتفاوض على ثلاثة اتفاقات لفك الاشتباك بين العرب وإسرائيل، والذي استغرقه جيمي كارتر للتوسط في معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل، في غضون فترة مماثلة خاضت الولايات المتحدة حربا قصيرة ناجحة. من أفضل نوع. لإخراج صدام حسين من الكويت. وصارت الولايات المتحدة الآن في وضع جيد، يؤهلها لدفع العرب والإسرائيليين للسير في المسار الدبلوماسي حتى عبور خط النهاية.

أو هكذا كنت أعتقد.

كان بيكر. الذي اعتاد أن يبخس قيمة كل شيء. حذرا على نحو خاص. صرح بيكر لعدد منا نحن المستشارين في جناحه بعد مؤتمر صحفي: «يا شباب، إذا أردتم النزول من القطار، قد يكون الآن هو الوقت المناسب، لأننا من هنا سنبدأ في نزول المنحدر». إلا أنني لم أكن أنصت. فقد استخدمت أمريكا قوتها لشن الحرب، والآن، ربما يمكنها أن تستخدم هذه القوة لتحقيق السلام. وسأكون مؤمنا بهذا السلام.

لكنني لم أعد مؤمنا به.

يقول المتخصصون في علم دراسة أصل الكلمات أن كلمة (religion) أي «دين» بالانكليزية قد يكون أصلها هو المصدر اللاتيني (religare) والذي يعني الالتزام أو التقيد. وهو اشتقاق رائع. فالإيمان مغر وجذاب في تعبيراته الدينية والعلمانية على حد سواء، وتحديدا لأنه يأتي من الافتراضات التي تلزم أو تقيد المؤمن بمجموعة قوية من

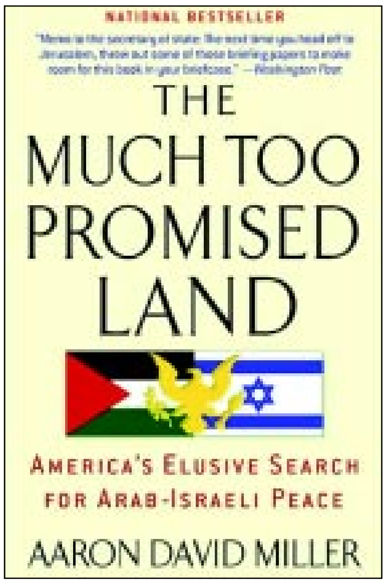

الأفكار التي يتم تبريرها منطقيا أو روحيا، إلا أنها ملزمة دائما.

وهكذا كان ولا يزال الأمر بالنسبة لالتزام الولايات المتحدة بعملية السلام بين العرب وإسرائيل على مدى الأربعين عاما الماضية، وبالتأكيد منذ أن تمخضت حرب أكتوبر/تشرين الثاني ١٩٧٣ عن ولادة المساعي الدبلوماسية الأمريكية وذلك المصطلح الخطير «عملية السلام» (الذي صك هذا التعبير هو على الأرجح هارولد سوندرز، المساعد اللامع المخضرم لوزارة الخارجية الأمريكية لشئون الشرق الأوسط) الذي رأى أن الكلمة مناسبة ليستخدمها كيسنجر في بدايات جولاته المكوكية. ومنذ ذلك الحين يرتكز نهج الولايات المتحدة على مثلث لا ينفصم من الافتراضات كأنها أركان الإيمان الحق. في التسعينيات أسست هذه المبادئ «دينا» لعملية السلام، سلسلة منطقية مقدسة، أجبرت معظم رؤساء الولايات المتحدة على إقحام أنفسهم في القضية العربية الإسرائيلية. آخر المعتنقين لهذا الدين هو الرئيس باراك أوباما، وبكل المقاييس تحول هو أيضا إلى مؤمن «متعصب»، حيث تعهد في غضون أيام من توليه الحكم بأن «يسعى سعيا دؤوبا ونشطا لتحقيق سلام دائم بين إسرائيل والفلسطينيين، وكذلك بين إسرائيل وجيرانها العرب».

مثل كل الأديان، أسست عملية السلام عقيدة فكرية صلبة، ذات مبادئ أولية غير قابلة للتغيير. على مدى العقدين الماضيين، كتبتُ هذه المبادئ مئات المرات لرؤسائي ممن يشغلون مناصب عليا بوزارة الخارجية الأمريكية والبيت الأبيض؛ كانت هذه المبادئ بمثابة تعاليم دينية مقدسة يمكننا جميعا أن نتلوها عن ظهر قلب.

أولا: يعتبر السعي لتحقيق سلام شامل عنصرا جوهريا في مصالح الولايات المتحدة في المنطقة، إن لم يكن

بترتيب مع:

Foreign Policy

ترجمة: مازن النجار

Aaron David Miller served as an advisor on the Middle East to Republican and Democratic secretaries of state. He is currently a public policy scholar at the Woodrow Wilson International Center for Scholars and the author of The Much Too Promised Land: America's Elusive Search for Arab-Israeli Peace.

هو جوهرها، وتحقيقه هو السبيل الوحيد الأكيد لحماية مصالح الولايات المتحدة. ثانيا: لا يمكن للسلام أن يتحقق إلا من خلال عملية تفاوضية جادة تستند إلى مبادلة الأرض بالسلام. ثالثا: أميركا فقط يمكنها مساعدة العرب والإسرائيليين على تحقيق هذا السلام على أرض الواقع.

كما يليق بأى عقيدة دينية، كان هناك فارق صغير. وبينما لم يعتنق الجميع هذا الدين (فقد سعى رونالد ريجان وجورج بوش الابن وراء أولويات أخرى فى الشرق الأوسط، على الرغم من أن كلا منهما سلم فى لحظة ما، على الأقل، ببعض المبادرات التى تعكس كما يراها معارضوهما درجات متفاوتة من الأفعال القليلة المتأخرة). لكن هذه الاستثناءات تؤكد القاعدة. دفع هذا المثلث الحديدى ريتشارد نيكسون، وجيرالد فورد، وجيمى كارتر، وجورج بوش، وبيل كلينتون، والآن باراك أوباما إلى إعطاء القضية العربية . الإسرائيلية مثل هذه الأولوية العليا، وهكذا أثبت مثلث الإيمان هذا أنه دائم وينطبق على كلا الحزبين الجمهورى والديمقراطى. هذه المبادئ اعتنقها رؤساء الكهنة فى معبد الأمن القومى وفيهم الموظفون المخضرمون بوزارة الخارجية من أمثالى، ومحللو الاستخبارات، ومعظم كبار الخبراء بالسياسات الخارجية الأميركية من خارج الحكومة. وهكذا، ترسخت هذه المبادئ وازدهرت، وحتى عندما بدأت الحقائق التى تستند عليها هذه المبادئ فى التغير.

إننى أتساءل: إذا لم يكن هذا هو تعريف الإيمان الحقيقى، فماذا يمكن أن يكون؟

وها هو أوباما، رئيس ينوء بحربين فى أماكن أخرى وبأخطر أزمة اقتصادية منذ الكساد العظيم، يخرج ساعيا إلى القضية العربية الإسرائيلية بصوت أعلى، وعزم أقوى، وسرعة أكبر من كل أسلافه، ليكون شاهدا رائعا يدل على مدى رسوخ هذا الإيمان، الإيمان الذى أعلنه على الملأ عندما ترأس شخصيا الإعلان عن تعيين جورج ميتشل مبعوثا له فى الشرق الأوسط، فى حفل نظم بوزارة الخارجية بعد يومين من تنصيبه رئيسا للولايات المتحدة.

فى البداية، كان يبدو أن أوباما . الرئيس الداعى إلى تعاون أميركا مع العالم. قد وجد قضية تناسب تماما رؤيته للدبلوماسية؛ قضية زادها أهمية إهمال سلفه لها، وتعلق العرب والمسلمين بها. وحتى قبيل اندلاع الحرب على غزة قبل تنصيبه بثلاثة أسابيع، تلقى أوباما وابلا من الدعوات من الخبراء والحكماء الذين يحثونه على تجديد التركيز على الشرق الأوسط، باعتباره وسيلة لاستعادة هيبة أميركا ومصداقيتها، بعد ما تعرضت له من اهتزاز فى سنوات حكم بوش الابن. وبسرعة ظهر الرئيس الجديد فى وسائل الإعلام العربية على أنه المتعاطف الأول معهم رافعا سقف توقعاتهم حتى بينما كان الإسرائيليون يعتبرونه يدير آذانا صماء لاحتياجاتهم.

يحيط أوباما نفسه بشخصيات مهمة مثل رَحم إيمانويل كبير موظفى البيت الأبيض، وهيلارى كلينتون وزيرة الخارجية، واللذان يؤمنان إيمانا راسخا بـ«دين السلام». اختار أوباما جورج ميتشل ليكون المخطط الأول للسلام، وهو رجل ذو مكانة وخبرة حقيقية فى التفاوض، واختار «الجنرال» جيمس جونز ليكون مستشاره للأمن القومى، وهو ذاته مبعوث سابق للشرق الأوسط والذى كان قد أعلن تصريحا مذهلا فى العام الماضى عندما قال: «إذا كانت هناك مشكلة واحدة سأوصى الرئيس بحلها فإنها هذه المشكلة».

لم يكن كل هؤلاء القادة المخضرمين من المؤمنين بدين السلام فحسب، وإنما كان لديهم أيضا سبب إضافى فى تشجيع موقف أكثر تشددا حيال إسرائيل؛ وهو أنهم شاهدوا فيلم بنيامين نتنياهو من قبل، وكانوا مصممين على عدم ترك فرصتهم فى تحقيق السلام فى الشرق الأوسط تنتهى بذات الطريقة، كما حدث من قبل. فى فترته الأولى كرئيس للوزراء فى التسعينيات، كاد المتهور المتشدد نتنياهو يدفع بيل كلينتون إلى الجنون. (أذكر اطلاعى على أول اجتماع لهما فى ١٩٩٦، والذى زمجر بعده الرئيس قائلا: تبا، من هى

يرتكز نهج الولايات المتحدة على مثلث لا ينفصم من الافتراضات كأنها أركان الإيمان الحق. آخر المعتنقين لهذا الدين هو الرئيس باراك أوباما، وبكل المقاييس تحول هو أيضا إلى مؤمن «متعصب»

لماذا كفرت؟

لقد فقدنا القدرة على أن نكون مستقلين عن إسرائيل، لنتمكن من أن نكون صادقين معها عندما تقوم بأشياء لا تعجبنا، من الصعب أن تكون وسيطا محايدا مع مثل هذه المعوقات

القوة العظمى هنا؟). وفى المواجهة للمرة الثانية مع نتنياهو، لم يحتج أوباما وفريقه تشجيعا للتحدث بنبرة حادة بشأن المستوطنات الإسرائيلية المتنامية فى الضفة الغربية. وهى قضية تتعالى أصوات الخبراء من داخل الحكومة، ومن خارجها، مطالبة أوباما بإثارتها باعتبار أنها أول خطوة فى سعيه مجددا لأجل تحقيق السلام.

فى ذات الوقت، يبدو الأمر كأنه تقارب سحرى بين القائد واللحظة: تبدو القضية العربية الإسرائيلية مثالية تماما لأهداف أوباما التحويلية وأسلوبه فى عقد الصفقات. إذا ما أراد أوباما بأن يبدأ فى «إعادة صنع أمريكا»، فلماذا لا يحاول أن يعيد صياغة سياسات السلام المضطربة، أيضا؟ فهو فى النهاية الرئيس المتعاون، الذى يؤمن إيمانا عميقا بقوة المفاوضات.

طبعا لم يكن أوباما وحده مؤمنا بهذا. فلقد استمرت عملية السلام طويلا لأنها كانت إلى درجة كبيرة تعنى الكثير وتتفق مع مصالح الولايات المتحدة. والسؤال هو: هل لا تزال عملية السلام كذلك؟ هل التفكير القديم حول صنع السلام ينطبق على الحقائق الجديدة؟ هل لا يزال الصراع العربى الإسرائيلى هو القضية الجوهرية؟ وبعد عقدين من الآمال المبالغ فيها تلتها أعمال العنف والإرهاب، والآن يعقبها ركود لا اتجاه له، هل لا يزال بإمكاننا أن نؤمن بأن المفاوضات ستؤتى أكلُها؟

للأسف، يبدو أن الإجابات على كل هذه الأسئلة واضحة جدا هذه الأيام. والأشهر الخمسة عشر الأولى التى مرت على أوباما بعد إيمانه بالعقيدة القديمة تنبئكم بالسبب.

فى ٢٠٠٩، حث الرئيس أوباما الإسرائيليين والعرب والفلسطينيين على الاستمرار فى المفاوضات وتلقى رفضا من الأطراف الثلاثة. صرح الرئيس فى وقت لاحق لمجلة «تايم» بأسف قائلا: «لقد بالغنا فى تقدير قدرتنا على الإقناع». فى مارس/آذار من ذات العام، استفز أوباما إعلان حكومة نتنياهو عن عزمها بناء وحدات سكنية جديدة فى القدس الشرقية، وهو الأمر الذى كان بمثابة صفعة للأمريكيين، خاصة أنه تم أثناء زيارة جو بايدن نائب الرئيس الأمريكى لإسرائيل، ومن ثم فقد دفع أوباما الإسرائيليين مجددا، بشدة هذه المرة برغم افتقاره للاستراتيجية، للاستفادة من الأزمة.

صمم أوباما بوضوح على عدم القبول بالرفض ردا. وبينما كان منتشيا بانتصاره فى قضية الرعاية الصحية، عاد ليكون ملك العالم مجددا وليس فى مزاج يسمح لملك إسرائيل بإحباط خططه. جاء هذا العناد مثيرا للإعجاب، وما يجعله أكثر حتمية هو انخراطه فى الإيمان بأن يمنح ذلك الدين القديم رؤية جديدة، ليس بناء على ما هو ممكن فحسب بل بناء على ما هو محتمل. لا يحق لنا التخلى عن الأمل، إلا أننا نتحمل مسئولية إطلاق أوهامنا، أو التخفيف منها على الأقل.

لا أستطيع أن أعد فى السنوات العشرين الماضية، باعتبارى محلل استخبارات، وواضع خطط للسياسة، ومفاوضا، تلك المرات التى كتبت فيها مذكرات لشخصيات على درجة عالية من الأهمية، مؤكدا على مركزية القضية العربية الإسرائيلية، والأسباب التى تجعل الولايات المتحدة بحاجة إلى أن تحلها. وقبل أن أعمل بوزارة الخارجية بفترة طويلة، كان السابقون لى فى ذات الموقع قد أكدوا جميعا ذات الأمر. فعدم حل الصراع العربى الإسرائيلى قد يفجر حربا مدمرة ويزيد النفوذ السوفيتى، ويضعف المعتدلين العرب، ويعزز المتطرفين العرب، ويهدد فرص الحصول على نفط الشرق الأوسط، ويقوّض نفوذ الولايات المتحدة بشكل عام من الرباط إلى كراتشى.

بين الأربعينيات والثمانينيات، كانت القوة التى يتردد بها صدى القضية الفلسطينية فى العالم العربى تنال من هيبة أمريكا ونفوذها. فى ذلك الحين، كانت لا تزال المذكرات التى كتبتها بخط يدى والتوقعات المنذرة بالشؤم تعد مغالى فيها. لقد حذرت ذات يوم تحذيرا متشائما. وليس صحيحا. من أننا قد نتعرض لهجمات إرهابية فلسطينية لا تتوقف على الولايات المتحدة، إذا لم نحرك هذه القضية. خلال تلك السنوات نفسها، نجحت الولايات المتحدة فى الدفع قدما بمصالحها الجوهرية فى الشرق الأوسط: فقد احتوت السوفيات، وعززت العلاقات مع إسرائيل والدول العربية الرئيسة مثل مصر والأردن والمملكة العربية السعودية، واحتفظت بقدرتها على الحصول على النفط العربى، بل إن الولايات المتحدة ظهرت فى السنوات التالية لحرب أكتوبر/تشرين الثانى ١٩٧٣، باعتبارها الوسيط الرئيس لعملية صنع السلام بين العرب وإسرائيل.

اليوم لا يمكننى كتابة تلك المذكرات ذاتها أو أى شيء يماثلها بضمير مستريح أو بوجه جامد المشاعر. وبرغم أن معتقدات الكثير من الخبراء لم تشهد تغيرا، إلا أن المنطقة تغيرت وكان تغيرا دراماتيكيا حيث صارت أكثر خطورة، كما تغيرت أولويات ومصالح الولايات المتحدة وصارت أكثر تعقيدا. مقولة بأن هناك حلا واحدا أو حلا بسيطا لحماية تلك المصالح. مثل جرعة أو رصاصة أو أكسير سحرى. قد يؤدى إلى تحسين جميع الأمور تعد فكرة خاطئة تماما، ناهيك عن فكرة أن السلام بين العرب وإسرائيل قد يؤدى لنفس النتيجة. ففى منطقة ممزقة تموج بالغضب وتعانى مشكلات كثيرة. من نظم اقتصادية راكدة جائرة إلى حكومات متسلطة تنتهك حقوق الإنسان وتنكر سيادة القانون إلى ثقافة شعبية غارقة بمستنقع التآمر والإنكار. يعد جرًا لحدود السذاجة إلى نقطة الانهيار أن نقول بأن الصراع العربى الإسرائيلى هو القضية الأكثر أهمية، أو أن من شأن حله أن يضمن بطريقة ما استقرار الشرق الأوسط.

نجح الأميركيون فى المساعى الدبلوماسية العربية الإسرائيلية، عندما كانت قوة ونفوذ الولايات المتحدة تؤخذ بمحمل الجد

لا يزال عدم حل الصراع العربى الإسرائيلى يمثل مشكلة كبيرة بالنسبة لأمريكا وأصدقائها: فهو يشعل غضبا عارما تجاه الولايات المتحدة، وأثبت بالفعل وجود خطر المواجهة والحرب (حرب لبنان ٢٠٠٦، وغزة ٢٠٠٨)، ويؤرق إسرائيل بالكابوس الديموغرافى. إلا أن هناك ثلاث قضايا أخرى على الأقل ظهرت متنافسة على موقع الصدارة، وقد تكون أكثر تعبيرا عن مصير نفوذ وقوة وأمن الولايات المتحدة أكثر من القصة الحالية التى صرت أدعوها «أرض الميعاد الموعودة أكثر من اللازم».

أولا: هناك حربان فى العراق وأفغانستان، حيث يتعرض عشرات الآلاف من الأميركيين للخطر، ومن المرجح أن يظلوا كذلك لبعض الوقت. أضف إلى هذا الوضع الخطير بباكستان لتتمكن من رؤية التقلب والتهديد والعواقب التى تتجاوز فلسطين بكثير.

ثانيا: رغم أن السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأميركية لا يمكن أن تظل مرهونة بالحرب على الإرهاب (أو أيا كان ما يطلق عليها الآن)، إلا أن هجمات ١١ سبتمبر/أيلول كانت نقطة تحول أساسية لأميركا التى كانت تشعر دوما بأنها آمنة داخل حدودها.

وأخيرا: هناك إيران التى تعد تطلعاتها النووية أولوية أكثر إلحاحا بالنسبة للولايات المتحدة أكثر من فلسطين. فإذا ما فشلت العقوبات والحلول الدبلوماسية، فلا يمكننا استبعاد موقف افتراضى، أى عمل عسكرى تقوم به إسرائيل أو حتى الولايات المتحدة، مع ما سينتج عنه من عواقب مهولة للمنطقة والعالم بأسره. وعلى أية حال، من الصعب أن نتخيل قيام نتنياهو باتخاذ أى قرارات كبيرة، فيما يتعلق بعملية السلام حتى يتوافر المزيد من الوضوح حول امتلاك إيران لقنبلة نووية، حيث يراه هو ومعظم الإسرائيليين تهديدا لوجودهم.

كما تدبر أوباما حساباته، لابد أن التحرك سريعا بمسار السلام العربى الإسرائيلى سيساعد الولايات المتحدة فى التعامل مع هذه القضايا. بيد أن هذا الربط لم يكن مقنعا عندما استخدمه بوش ليوحى بأن النصر فى العراق سوف يجعل حل الصراع العربى الإسرائيلى أسهل؛ كما أنه ليس مقنعا الآن كاستراتيجية للخروج من العراق، كما لو كان الانخراط فى المساعى الدبلوماسية العربية الاسرائيلية سيسهل على العرب

لمـــــــــــــاذا كـفـــــــــــرت؟

لا يزال عدم حل الصراع العربى الإسرائيلى يمثل مشكلة كبيرة لأميركا وأصدقائها: فهو يشعل غضبا عارما تجاه أميركا، كما أنه يؤرق إسرائيل ديموغرافيا

قبول الفوضى المحتملة التى سنخلفها وراءنا فى العراق. كما أنه لا يمكن استخدام القضية العربية الإسرائيلية بفعالية لحشد العرب ضد إيران، لأن الولايات المتحدة لا يمكنها أبدا أن تبذل جهودا دبلوماسية كافية (أو فى وقت قريب بما يكفى) لتحدث فارقا حقيقيا. وأخيرا، فإن ربط استعداد الولايات المتحدة لمساعدة الإسرائيليين فى تعاملهم مع إيران باستعدادهم لتقديم تنازلات فيما يتعلق بقضيتى القدس والحدود ليس أيضا بالاستراتيجية الصحيحة. فهو على أقل تقدير يخاطر بفقدان الولايات المتحدة لنفوذها على إسرائيل فيما يتعلق بالمسألة الإيرانية، ويزيد احتمالات تصرف إسرائيل وحدها.

بالتأكيد يمكن للولايات المتحدة أن تفعل ما هو أكثر من شىء واحد فى كل مرة، وهذا فى السياسة الخارجية يعادل المشى ومضغ العلكة (اللبان) بذات الوقت. ولكن يتعين على أميركا أن تنجح أيضا فى القيام بالعديد من الأمور. فلا يمكن أن يكون لأوباما نهجا يبدو قليل العمق بالغ الاتساع لكنه سريع التلاشى، وفيه يلتزم أوباما بكل شىء بدون تقدير قاسى لا يرحم لما هو ممكن حقا وما هو غير ذلك. كما لا يمكن للولايات المتحدة أن تتحمل فشلا آخر عالى المستوى بناء على ما أخبرنا به كلينتون الرائع والملتزم قبل فترة وجيزة من ذهابنا إلى كامب ديفيد (٢٠٠٠)، قائلا: «يا رجال، إن المحاولة والفشل أفضل بكثير من عدم المحاولة على الإطلاق». هذا شعار مناسب لفريق كرة قدم فى مدرسة ثانوية؛ لكنه ليس بديلا عن وضع استراتيجية مدروسة جيدا لأعظم قوة فى العالم. كان أوباما قد أعلن التزامه للشعب الأميركى بإنهاء حربين، وتأمينهم فى بلادهم، ومنع إيران من الحصول على سلاح نووى، ناهيك عن التصدى لتحديات الركود الاقتصادى الشديد والعجز المالى المتزايد.

إن الحكم يتعلق بالاختيار؛ بتحديد أولوياتك، وإدارة سياساتك، والتفكير استراتيجيا، واختيار مواقعك، والبحث عن الفرص الأصلية التى يمكن استغلالها. وليس بمحاربة طواحين الهواء. فى هذه الأيام، تعد عملية صنع السلام بين العرب وإسرائيل عبارة عن طاحونة كبيرة جدا.

حتى لو كان بإمكانك أن تبرهن على مركزية الصراع العربى الإسرائيلى، فهل يمكنك أن تصنع السلام؟

الأميركيون متفائلون. فالمثالية والبراجماتية الأميركية والإيمان بأولوية الفرد تقنعنا بأن العالم يمكن أن يصير مكانا أفضل. وخلافا للكثير من البلدان التى تتصارع مع أسئلة وجودية عن الهوية السياسية والبقاء المادى، لا يعيش الأميركيون اليوم فى حالة من الترقب (مهما كانت بداياتهم البروتستانتية البيوريتانية أو الكالفينية)، وليس لديهم رؤية حتمية مظلمة للطبيعة البشرية.

كل هذا يدفع قناعتنا بأن الحديث أفضل من إطلاق النار. وكما رودنى كنغ، نحن نعتقد أنه إذا ما جلس الناس فقط وناقشوا خلافاتهم بعقلانية وقاموا بتسويتها، فسيمكنهم التوصل إلى وسيلة لاستيعاب وجهات النظر المتعارضة. ففى النهاية، أميركا هى خيمة كبيرة تعيش فى ظلها الكثير من المجموعات الدينية والسياسية والعرقية التى نجحت فى التعايش بود ملحوظ. لعل أفضل ما يجسد هذه الروح هو جورج ميتشل مبعوث أوباما للشرق الاوسط، الذى أخبرنى ذات مرة أن أى نزاع أوجده البشر، يمكنهم حله. ميتشل مقتنع حقا بأنه يمكن التوصل إلى حلول وأن المساعى الدبلوماسية الجادة هى ما يمكنك أن تفعله حتى يحين هذا الوقت. إلا أنه أنهى أولى جولاته فى المساعى الدبلوماسية بين العرب وإسرائيل بثلاثة لاءات مؤكدة: من إسرائيل للتجميد الشامل للاستيطان، ومن المملكة العربية السعودية للتطبيع الجزئى، ومن الفلسطينيين للعودة إلى المفاوضات.

يبدو أن الكثير من خبرتنا السابقة فى العالم المعقد لعملية السلام بين العرب وإسرائيل يعزز قناعة ميتشل الأولى. فى الفترة من حرب ١٩٧٣ إلى ١٩٩١، نجح اثنان من وزراء الخارجية الجمهوريين (كيسنجر وبيكر)، ورئيس ديموقراطى واحد (كارتر) فى التوصل إلى سلسلة اتفاقات بين العرب والإسرائيليين، رسخت سمعة أميركا باعتبارها وسيطا فعالا وأمينا حتى- وهو ما يبدو مؤكدا لصحة الافتراض البسيط بأن المفاوضات يمكن أن تنجح.

إذا ما كان هناك أحد يمثل الإيمان بهذا الافتراض، فهو أنا. أذكر أننى أدليت بحديث فى القدس فى خريف عام ١٩٩٨، بعد أن توسط الرئيس كلينتون فى اتفاقات واى ريفر (لم توضع قيد التنفيذ أبدا)، أكدت فيه أن المفاوضات بين العرب وإسرائيل والتحرك نحو السلام صارا الآن أمر لا رجعه عنه. دفع هذا التصريح. وهو أحد أكبر الغلطات المضحكة فى ذلك العقد. أفرايم هاليفى الذى كان حينها نائب رئيس الموساد إلى إلقاء ملاحظة يتساءل فيها عن صحة منطقى، وله الحق فى هذا. وبرغم أن هاليفى كان مهذبا للغاية فلم يقل هذا فى ملاحظته، إلا أنه تساءل أيضا عن مدى صحة حكمى على الأمور. لكننى كنت لا زلت مؤمنا.

استمر إيمانى هذا، على طول الخط خلال التسعينيات، وهو العقد الوحيد فى النصف الثانى من القرن العشرين الذى لم تندلع فيه حرب كبرى بين العرب وإسرائيل. بل كان هو العقد الذى شهد انعقاد مؤتمر مدريد، وتوقيع اتفاقيات أوسلو، ومعاهدة السلام بين إسرائيل والأردن، والاتفاقات الاقليمية بشأن القضايا الاقتصادية، والمحاولة التاريخية فى السنة الأخيرة من فترة حكم الرئيس بيل كلينتون للتفاوض بشأن اتفاقات السلام بين إسرائيل وسوريا والفلسطينيين. ولكن لأسباب مختلفة ليس أقلها عدم رغبة العرب والفلسطينيين والإسرائيليين و(الأميركيين) فى الاعتراف بالثمن الذى على كل طرف دفعه لتحقيق هذه الاتفاقات، انتهى العقد على نحو سيئ، تاركا حمامة السلام وراءه نازفة مثقلة بالجراح مكسورة الجناح. ولعل أخطر الخسائر هو فقدان الأمل فى أن المفاوضات يمكنها بالفعل أن تعطى العرب والإسرائيليين ما يريدونه.

ها هو أوباما، رئيس ينوء بحربين فى أماكن أخرى وبأخطر أزمة اقتصادية منذ الكساد العظيم، يخرج ساعيا إلى القضية العربية الإسرائيلية

وكانت هذه هى الحبكة الدرامية منذ ذلك الحين: هناك «عملية» أكثر منها سلاما.

واستشرافا للمستقبل، تبدو تلك العملية أصعب بكثير جدا، ويبدو السلام بعيد المنال أكثر فأكثر لثلاثة أسباب.

الأول: هو أن صنع السلام بين العرب وإسرائيل محفوف بالمخاطر سياسيا، ويمثل تهديدا للحياة. فلننظر إلى اغتيال الرئيس المصرى أنور السادات ورئيس الوزراء الإسرائيلى إسحاق رابين. فى كامب ديفيد، سمعت الزعيم الفلسطينى ياسر عرفات يقول لما لا يقل عن ثلاث مرات: «أنتم أيها الأميركيون لن تسيروا وراء نعشي». لا يخوض القادة المجازفات إلا عندما ترغمهم احتمالات الألم والمكسب على هذا. زعماء الشرق الأوسط اليوم. نتنياهو فى إسرائيل، وبشار الأسد فى سوريا، ومحمود عباس فى فلسطين. ليسوا انتحاريين. وفى النهاية، لقد كان نتنياهو هو من قال لى ذات مرة: «أنت تعيش فى تشيفى تشيس. فلا تغامر بمستقبلنا».

ثانيا: القرارات الكبيرة تتطلب قادة أقوياء. فلنتذكر العاهل الأردنى الملك حسين، أو مناحم بيغن الإسرائيلى. لأن القضايا المطروحة على مائدة المفاوضات تتعلق بجوهر هويتهم السياسية والدينية وببقائهم على قيد الحياة. وهذا يتطلب قادة يتمتعون بالشرعية والسلطة والتمكن من سياساتهم لضمان تنفيذ الاتفاق. إلا أن المجموعة الحالية منهم سجناء لجمهور أنصارهم لا سادة عليهم. فنتنياهو يرأس تحالفا منقسما ودولة ليس لديها توافق فى الآراء بشأن الثمن الذى يمكن أن تدفعه إسرائيل مقابل التوصل إلى اتفاقات مع الفلسطينيين وسوريا؛ أما عباس فهو جزء من الحركة القومية الفلسطينية المنقسمة ويشارك حماس فى السيطرة على السلاح والسلطة والشرعية فى فلسطين. إنه لمن الصعب أن نرى كيف يمكن لأى منهما حشد الإرادة والسلطة لاتخاذ القرارات الكبيرة.

ثالثا: حتى مع القادة الأقوياء،لا زلنا نحتاج إلى مشروع لا يتجاوز الطاقة الاستيعابية لأى من الطرفين. فى الماضى نجحت دبلوماسية الولايات المتحدة بسبب اتفاقيات فض الاشتباك بعد حرب ١٩٧٣،

لمـــــــــــــاذا كفـــــــــرت؟

إنها لمفارقة مذهلة أنه باستثناء معاهدة السلام بين إسرائيل والأردن عام ١٩٩٤، لم يأت أى اتفاق ناجح آخر من مفاوضات مباشرة

وهو اتفاق منفصل بين مصر وإسرائيل، ومؤتمر السلام فى مدريد الذى استمر لمدة ثلاثة أيام، وكان متماشيا مع قدرات كل من الجانبين. أما اليوم فإن قضايا مثل القدس (باعتبارها عاصمة للدولتين)، والحدود (على أساس حدود يونيو/حزيران ١٩٦٧)، واللاجئين (الحقوق والعودة والتعويض) تمثل تحديات سياسية وأمنية عملاقة للعرب والإسرائيليين. سيكون من الصعب بما يكفى عقد اتفاق واحد. فى حين أنه يبدو من شطحات الخيال أن نأمل: فى التفاوض على سلام شامل يختتم بثلاثة اتفاقات بين إسرائيل والفلسطينيين، وبين إسرائيل وسوريا، وبين إسرائيل ولبنان؛ وفى تفكيك المستوطنات فى مرتفعات الجولان والضفة الغربية؛ وفى الانسحاب إلى الحدود المرسومة على أساس حدود يونيو/حزيران ١٩٦٧.

خلاصة القول: يمكن أن تنجح المفاوضات، ولكن من الضرورى أن يكون كل من العرب والإسرائيليين (والقادة الأميركيين) مستعدين وقادرين على دفع الثمن. وهم ليسوا كذلك.

فى ظل هذه الظروف، يكرر الناس فى كثير من الأوساط أنه على أميركا أن تنقذ الموقف. وإذا ما كان العرب والإسرائيليون أضعف أو أكثر تمردا من أن يكونوا قادرين على اتخاذ القرار، فإن الولايات المتحدة عليها أن تدعمهم أو تدفعهم إلى عقد الاتفاق.

نجحت مثل هذه الدبلوماسية الأميركية الفعالة من قبل. وفى الواقع، إنها لمفارقة مذهلة أنه باستثناء معاهدة السلام بين إسرائيل والأردن عام ١٩٩٤، لم يأت أى اتفاق ناجح آخر من مفاوضات مباشرة، وإنما نتيجة لوساطة الولايات المتحدة. اتفاقات أوسلو والتى غالبا ما تمتدح بصفتها المعجزة التى أتت نتيجة للمباحثات المباشرة بين الإسرائيليين والفلسطينيين، انتهت إلى الفشل الذريع. ويستمر الجدال ليصل إلى أن كل ما ينقصنا الآن هو الإرادة الأميركية.

وأنا أفهم منطق هذا الرأى، وبعد أن أمضيت أكثر من عشرين عاما فى محادثات محبطة مع العرب والإسرائيليين، يمكننى أن أرى أيضا كيف يمكن أن يكون أيضا مريحا نفسيا. ولكن لأننى أعرف شيئا أو اثنين عن الفشل ولا أريد أن أرى الولايات المتحدة تفشل (مرة أخرى)، فإننى ببساطة لا أقبل هذا المقولة. إذا ما كنت أؤمن حقا أنه بإمكان أميركا أن تفرض وتوفر حلا من خلال الدبلوماسية القوية، كنت سأصبح أكثر تعاطفا. لكننى لا أومن بهذا. وإليكم السبب:

الملكية: لارى سومرز، كبير مستشارى أوباما الاقتصاديين، صاغها بأفضل ما يكون، قائلا: فى تاريخ العالم، لم يحدث أبدا أن قام أحد بغسل سيارة مستأجرة. نحن نهتم فقط بما نملك. وما لم يكن العرب والإسرائيليون يريدون عقد الاتفاقات السياسية وتحقيق السلام، ويمكنهم أن يستثمروا بما يكفى فى هذه الاتفاقات لمنحها فرصة للنجاح، فلن يمكننا بالتأكيد القيام بهذا الدور. تتناثر فى الشرق الأوسط الأوسع نطاقا بقايا وركام قوى عظمى اعتقدت خطأ أن بإمكانها أن تفرض إرادتها على القبائل الصغيرة. العراق وأفغانستان وإيران... هل أنا بحاجة إلى الاستمرار؟ ستظل القبائل الصغيرة أكثر إزعاجا وصرامة وأطول نفسا من الدبلوماسيين الأميركيين، فالأمر يتعلق بمنطقتهم وببقائهم على قيد الحياة؛ وسيكون لديهم دائما مصلحة كبيرة فى نتائج نضالهم أكبر من مصلحة القوة العظمى التى تبعد آلاف الأميال وعليها القيام بالكثير من الأمور الأخرى. هل تريد أن ترى الفشل بعينيك؟ جرب أن تحاول إجبار الإسرائيليين والفلسطينيين على قبول الحل الأميركى بشأن القدس.

سحر المفاوض: لقد ذهب، على الأقل فى الوقت الراهن. عندما نجح الأميركيون فى المساعى الدبلوماسية العربية الإسرائيلية، حدث هذا لأنهم كانوا يحظون بالاحترام والإعجاب وحتى الخشية. كانت قوة ونفوذ الولايات المتحدة تؤخذ بمحمل الجد. أما اليوم، فقد ذهب الكثير من السحر: لقد أفرطنا فى التوسع، وتضاءلت قيمتنا، وتعثرنا. وأستعين مرة أخرى بتعليق لسومرز: هل يمكن لأكبر دولة مقترضة فى العالم أن تظل أكبر قوة فى العالم؟ إن أصدقاءنا ينتابهم القلق حول متانتنا (موثوقيتنا)؛ وخصومنا، بما فيهم حماس وحزب الله وإيران يعتقدون أن بإمكانهم استخدام سياسة النفس الطويل، ليحققوا مكاسب على حسابنا. كما لا يبدو أن هناك أى تكاليف أو عواقب للقول لا بوجه الدولة العظمى. بعد مرور السنة الأولى من جهود غير مثمرة لأوباما وميتشل، أخشى أن سحر الوسيط الذى كان يتمتع به كيسنجر وبيكر، أو العناد والقوة الدافعة التى كان يتمتع بها كارتر، لن يتكرر بسهولة.

السياسة الداخلية: للجماعات الموالية لإسرائيل فى الولايات المتحدة صوت مسموع، ويرجع هذا فى المقام الأول إلى تأثيرها على مشاعر ومبادرات الكونغرس (ومساعدة إسرائيل على وجه الخصوص)، إلا أنه ليس لديها حق الاعتراض على السياسة الخارجية الأميركية. تمارس جماعات الضغط دورها؛ وهذه هى الطريقة الأميركية، فى السراء والضراء. أما الرؤساء فمن المفترض بهم أن يقودوا. وعندما يفعلون هذا وفقا لاستراتيجية حقيقية تحقق المصالح القومية لأميركا، فإنهم يستخدمون السياسة الداخلية كورقة رابحة. ومع ذلك فإن السياسة الداخلية تضيق، وخاصة إذا ما كان الرئيس يعتبر ضعيفا أو -بعبارة أخرى خاضعا للاحتلال. الوقت يداهم هذا الرئيس، ومن المرجح أن يواجه حزبه خسائر كبيرة فى الانتخابات النصفية هذا العام ٢٠١٠. إذا كان من الممكن أن تكون هناك فرصة جادة لتحقيق تقدم فى عملية السلام، فسيستفيد منها. لكن هل من حسن الفطن أن يخاطر محاولا إيجاد هذه الفرصة؟ آخر شيء يحتاجه أوباما الآن هو صراع دائر مع الإسرائيليين ومؤيديهم، أو ما هو أسوأ، مثل فشل كبير بالسياسة الخارجية.

العلاقات الأميركية الإسرائيلية: أميركا هى أفضل صديق لإسرائيل ويجب أن تظل هكذا. فى صميم هذه العلاقة نجد أن القيم المشتركة، والعلاقة الحميمة مع إسرائيل تعطينا القوة والمصداقية فى صنع السلام عندما نستخدمها على نحو صحيح. إلا أن هذه العلاقة الخاصة مع الإسرائيليين، والتى يمكن أن تخدم مصالح الولايات المتحدة، صارت علاقة خصوصية لا تحقق ذلك. لقد فقدنا القدرة على أن نكون مستقلين عن إسرائيل، لنتمكن من أن نكون صادقين معها عندما تقوم بأشياء لا تعجبنا، ولنفرض عليها المساءلة، ولنتخذ مواقف فى المفاوضات قد تحيد عن مواقف إسرائيل. من الصعب أن تكون وسيطا محايدا مع مثل هذه المعوقات.

العراك مع إسرائيل هو واقع مهنى. فهو جزء من الوصف الوظيفى للوسيط. وكل رئيس أو وزير خارجية أميركى ممن نجحوا (وبعض ممن لم ينجحوا) لابد أن يكون قد مر ببعض المناوشات. وبعضها خطيرة. مع إسرائيل. (تذكرون كيف استخدم بوش الأب وبيكر ضمانات قروض الإسكان؟ ففى ١٩٩١، رفضت الولايات المتحدة إقراض إسرائيل المليارات قرضا بأسعار فائدة مخفضة بسبب عزم رئيس الوزراء إسحاق شامير على بناء المستوطنات). إلا أن العراك يجب أن يأتى بشيء ذى قيمة. مثل مؤتمر مدريد. يُحسِّن من صورة الولايات المتحدة، ويحقق أيضا تقدما كبيرا بالمفاوضات. باختصار، نحن بحاجة لاستراتيجية تتمتع باحتمالات الصلاحية للتطبيق. وإلا فلماذا يريد أى رئيس للولايات المتحدة أن يلحق أضرارا بحليف وثيق له جمهور محلى قوى من الأنصار.

كانت هذه هى مشكلة النبرة الحادة لأوباما مع إسرائيل حول المستوطنات. فلم يكن فقط الهدف الذى وضعه. تجميد المستوطنات بما فى ذلك النمو الطبيعى لها. غير قابل للتحقيق، ولكنه أيضا لم يكن جزءا من استراتيجية أوسع نطاقا من شأن أرباحها أن تجعل المعركة تستحق الخوض. إن ملاحقة بناء الإسرائيليين المجزأ للمستوطنات لإرضاء العرب أو لنجعل أنفسنا نشعر بالتحسن لن ينجح إلا إذا كان لدينا طريقة لإحراز تقدم. وهكذا انتهى أوباما

يحتاج المؤمنون «بدين السلام» لإعادة النظر فى عقيدتهم، خاصة عندما تُفرط أميركا فى التمدد والانتشار

لمــــــــاذا كـفـــــــرت؟

بنبرته الحادة إلى التراجع عندما قال نتنياهو لا لتجميد بناء المستوطنات الشامل، مما يشى بأهمية وجود استراتيجية واسعة النطاق.

ولا يزال هذا هو التحدى الذى يواجه الرئيس بعد الضجة التى أثارها بايدن حول بناء وحدات سكنة فى القدس. ونحن الآن فى ربيع عام ٢٠١٠، نجد أنفسنا بعيدون عن إحراز أى تقدم، ومع ذلك نحن فى وسط خلاف كبير مع الإسرائيليين. وما لم نحقق شيئا كبيرا، فسوف ينظر إلينا على أننا تراجعنا مرة أخرى. وحتى إذا ما تمكن الرئيس من انتزاع شيء فى مسأله القدس، فإن الاحتمالات ستقل كثيرا فى أن نتنياهو سيكون قادرا على اتخاذ خطوة أكبر فى قضايا جوهرية مثل الحدود. ما لم يكن الرئيس يحاول التخلص من نتنياهو (وبناء تحالف جديد)، فلن يكون أمامه خيار آخر سوى إيجاد وسيلة للتعاون معه.

لذلك فإن أوباما يواجه الآن معضلة. فهو رئيس رائع متعاطف بالإضافة إلى حصوله على جائزة نوبل للسلام، اعتنق المثلث الحديدى، وجعل أميركا مركز تنسيق العمل والمسئولية للقضية العربية الإسرائيلية، فى وقت تبدو فيه الولايات المتحدة أقل قدرة على أن تفعل شيئا حيال هذه القضية.

إن محاولة التعويض عن غياب الإلحاح، والإرادة، والقيادة بين العرب والإسرائيليين بإدراج إلحاحك وإرادتك وقيادتك، لطالما كانت مهمة صعبة. الحقيقة المؤلمة هى أن الإيمان بقدرة أميركا على حل القضية العربية الإسرائيلية كانت دائما إيمانا مبالغا به. فليس بالتأكيد من قبيل المصادفة أن يكون كل تقدم يحدث فى القضية من المعاهدة بين مصر وإسرائيل إلى اتفاقات أوسلو إلى اتفاق السلام بين إسرائيل والأردن، كانت كلها نتيجة للقاءات سرية عقدت فى البداية بينما كانت الولايات المتحدة آخر من يعلم عنها شيئا. وعندها فقط، بمجرد أن يكون هناك ملكية محلية أو أزمات إقليمية يمكن للولايات المتحدة أن تستغلها، سنكون نحن قادرين على دفع الأمور قدما.

والآن، ليس لدى أميركا الفرصة . بصراحة. ولا الجرأة على أن تتخذ إجراءات كبيرة حقا فى مسار صنع السلام بين العرب وإسرائيل. قد تكون آلهة الحظ لا تزال تنقذ الرئيس. وقد ينتهى نظام الملالى فى طهران إلى الانفجار من الداخل. وقد يتصل السوريون والإسرائيليون ببعضهم سرا، أو ربما قد تشتعل مواجهة عنيفة للخروج من المأزق.

ولكن بدون تحولات جذرية فى مكان ما، سيكون من الصعب إعادة الأيام الخوالى عندما كان الزعماء الشجعان الأبطال العرب والإسرائيليون يخطون إلى مسرح التاريخ بخطوات واسعة، جنبا إلى جنب مع الأميركيين، مستعدين وقادرين على الصنع الجدى للسلام.

أتذكر حضورى لجنازة رابين فى القدس فى ١٩٩٥، ومحاولتى لإقناع نفسى بأن أميركا يجب عليها وبإمكانها أن تنقذ عملية السلام التى كان اغتياله قد قوضها بدرجة كبيرة للغاية. أنا لست من أنصار نظرية أفول نجم الولايات المتحدة. فما زلت أومن بقوة المساعى الدبلوماسية الأميركية عندما تكون قوية وذكية وعادلة. لكن الحماسة والتوهج والعاطفة تنحت لصالح رؤية أكثر تعقلا لما هو ممكن. والفشل يمكنه أن يفعل ذلك.

يحتاج المؤمنون «بدين السلام» لإعادة النظر فى عقيدتهم، خاصة عندما تفرط أميركا فى التمدد والانتشار. تحتاج الولايات المتحدة إلى فعل ما تستطيعه، بما فى ذلك العمل مع الإسرائيليين والفلسطينيين على التفاوض بشأن القضايا الجوهرية للوضع النهائى (خاصة ما يتعلق بالحدود، حيث فجوات اختلاف الآراء بينهما فى هذا الأمر ضيقة)؛ ومساعدة الفلسطينيين على تطوير مؤسساتهم ودفع الإسرائيليين إلى المساعدة عن طريق السماح للفلسطينيين ببعض الحرية فى المجال الاقتصادى وتوسيع سلطتهم والحفاظ على الهدوء فى غزة حتى إن كانت تحاول التخفيف من اليأس والشعور بالحصار من خلال تلقى المساعدة الاقتصادية. إلا أن أميركا عليها أيضا أن تدرك ما ليس بمقدورها أن تفعله، بقدر ما عليها إدراك ما يمكنها أن تفعله.

لقد صاغها بأفضل طريقة اللورد تنيسون ألفرد، الشاعر الإنجليزى بالعصر الفيكتورى، والذى ربما لم يعرف الكثير عن الشرق الأوسط، عندما قال: «صدقونى: هناك إيمان فى الشك الصادق أكثر مما يوجد فى نصف الأديان». وربما ليس هذا بالأمر السيئ، إذا ما أدى هذا إلى تفكير أكثر واقعية، عندما يتعلق الأمر برؤية أميركا لصنع السلام بين العرب وإسرائيل. ■

كتاب الزاوية

محمد عفيفى مطر
الفلاح

«هل هناك من علاقة تذكر بين الفلاحة والكتابة الإبداعية؟ سؤال قد يكون وقعه غريباً على البعض ممن لا يدركون أبعاد العلاقة بين المبدع والطبيعة من ناحية، وبين دور الفلاح فى استنبات الأرض، ودور المبدع فى استنبات اللغة من ناحية ثانية. الفلاح يستنبت الأرض حَبّاً وثماراً وزهوراً ويظل يراقب هذه المستنبتات إلى أن تستوى ويحين موعد حصادها. وكذلك المبدع يستنبت اللغة أفكاراً وصوراً ويظل يتابعها إلى أن تستوى وتتحدد ملامحها، ويرتضى لها الخروج...

العلاقة إذاً، وطيدة ووثيقة بين الفلاح والأرض، وبين المبدع واللغة. ومن حسن حظ الشاعر محمد عفيفى مطر أنه قد جمع بين الفلاحتين، فلاحة الأرض وفلاحة الوجدان، وحقق بذلك هدفاً لم يحظ بتحقيقه من المبدعين سوى عدد قليل. وعندما زرته ذات يوم من أيام أوائل السبعينيات فى موكب من أصدقائه الشعراء إلى قريته (رملة الأنجب) استقبلنا عفيفى وهو عائد من الحقل مرتدياً جلباب الفلاحين وبيده اليمنى معول والأخرى عصا. كان يتصبب عرقاً... وهو خارج من بين الأشجار يلوِّح بيديه مُرَحِّباً وقد اكتسى وجهه لون الأرض التى أحبها وتماهى مع مفرداتها القريبة إلى وجدانه».

هذا بعضٌ مماكتبه الدكتور عبد العزيز المقالح الأديب والناقد اليمنى الكبير فى رثاء محمد عفيفى مطر «عفيف اليد واللسان» كما يصفه سعدى يوسف. رحل عنا هذا الصيف «الشاعر اليسارى»، تاركا وراءه تراثه الغزير الذى اختتمه بذلك الديوان الذى يتضوع بعبقه الإسلامى الفريد وقد أهداه محمد عفيفى مطر إلى «محمد سيد الأوجه الطالعة، وراية الطلائع من كل جنس منفرط على أكتافه كل دمع ومفتوحة ممالكه للجائعين وإيقاع نعليه كلام الحياة فى جسد العالم».

«وجهات نظر» تخصص زاويتها هذا العدد لسطور من أعماله (والتى نشرتها كاملة دارالشروق)

رجـــــُـــــــلـنـا فـــى

Our Man In Palestine

نـيـــثـــــــان ثــــــــــرول

Nathan Thrall

■■ فى ٣١ أغسطس، فى الليلة التى سبقت عشاء الرئيس اوباما الذى افتتح به مباحثات مباشرة بين الزعماء الإسرائيليين والفلسطينيين، اطلق مسلحون من حماس النار وقتلوا مستوطنين يهود فى الخليل، وهى المحافظة الأكبر والأكثر زحاما فى الضفة الغربية. وقد ادان المسئولون الفلسطينيون والاسرائيليون الهجوم الذى وصف بأنه الاشد فتكا ضد مواطنين اسرائيليين خلال أكثر من سنتين، قائلين ان المقصود من الهجوم افشال المفاوضات القادمة. ولكن طبقا لمتحدث باسم حماس، كان الغرض من اطلاق النار أكثر تحديدا: لتوضيح عقم التعاون الحديث بين قوى الامن الإسرائيلية والفلسطينية. وكان هذا التعاون قد وصل إلى مستويات غير مسبوقة تحت التوجيه الهادئ لجنرال أمريكى يحمل ثلاث نجوم، هو كيث دايتون الذى كان يقود مهمة أمريكية غير معلن عنها كثيرا لبناء قوى امنية فلسطينية فى الضفة الغربية[١].

تخضع اجهزة الأمن الفلسطينية. التى تسميها حماس «قوات دايتون». رسميا لسلطة محمود عباس، الرئيس الفلسطينى ورئيس منظمة فتح المنافسة لحماس، ولكنها عمليا تحت سيطرة سلام فياض رئيس الوزراء غير المنتخب، وهو تكنوقراط لين العريكة، ضئيل الجسم. وكان عباس قد عين فياض عقب استيلاء حماس على غزة فى يونيو ٢٠٠٧. والذى حدث بعد سبعة عشر شهرا عقب فوز الحزب الإسلامى فى انتخابات يناير ٢٠٠٦ البرلمانية. وأوكل اليه مهمة منع حماس من الاستيلاء على الضفة الغربية. فياض حاصل على شهادة الدكتوراه فى الاقتصاد من جامعة تكساس فى اوستن وتبوأ مناصب فى بنك الاحتياط الفدرالى فى سانت لويز والبنك الدولى وصندوق النقد الدولى قبل ان يصبح وزير المالية فى عهد الرئيس ياسر عرفات. وقد ضمنت سمعته كمدير موثوق به وأهل للمسئولية، انتظام تدفق المساعدات الدولية التى يعتمد عليها الاقتصاد الفلسطينى. ورغم انه لايملك شعبية ولا دعم حزب سياسى كبير (لم يحصل حزبه (الطريق الثالث) الا على ٢,٤ بالمائة من اصوات الناخبين فى انتخابات ٢٠٠٦ التشريعية)، فإنه اليوم مسئول تقريبا عن كل جانب من الحكومة الفلسطينية. ومع هذا فإنه لا يشارك فى المفاوضات حول التسوية مع إسرائيل حيث انها من مهام منظمة التحرير الفلسطينية (وفياض ليس عضوا فى مجلس قيادتها) ويعالجها رئيسه عباس البالغ من العمر خمسة وسبعين عاما.

فياض يحصد القدْح فى الداخل لنفس الأسباب التى ينال عنها المدْح فى الخارج. انه يدين العنف ضد إسرائيل لأنه فى اعتقاده يتعاكس مع طموحات شعبه الوطنية، وهو يرى انه يمكن اعادة توطين اللاجئين الفلسطينيين ليس فى إسرائيل ولكن فى دولة فلسطينية مستقبلية واقترح ان تقدم هذه الدولة المواطنة لليهود أيضا[٢]. وقد كسب ثناء صفحات الرأى فى واشنطن بوست وول ستريت جورنال ونيويورك تايمز ويحتفظ بعلاقات طيبة مع القادة الأجانب غير المحبوبين فى فلسطين: فى أول زيارة لفياض إلى المكتب البيضاوى فى عام ٢٠٠٣ رحب به جورج بوش، بضم قبضته ورفع اصبعيه السبابة والخنصر فى اشارة إلى (الثور طويل القرنين) رمز جامعة تكساس فى اوستن «hook,em horns». وحين تزوجت ابنة رئيس موظفى رئيس الوزراء الإسرائيلى الاسبق ايريل شارون قبل عدة سنوات، جلس فياض إلى جوار شارون فى حفل الزفاف وتحدث معه لوقت طويل[٣].

فى فبراير تحدث فياض أمام المؤسسة الأمنية الإسرائيلية فى مؤتمر هرتزليا السنوى، حيث قارنه الرئيس الإسرائيلى شيمون بيريز بديفد بن غوريون[٤]. وكان جل خطاب فياض يتعلق بخطته الطموح التى اعلنها فى أواخر أغسطس ٢٠٠٩ لاقامة دولة الأمر الواقع الفلسطينية من جانب واحد بحلول اغسطس ٢٠١١. فى ذلك الحين طبقا لفياض «سوف تفرض حقيقة دولة فلسطينية نفسها على العالم»[٥] وقد نالت خطة فياض لبناء دولة. وليس اعلانها. مصادقة من الرباعية (الولايات المتحدة والاتحاد الأوربى والأمم المتحدة والاتحاد الروسى) ودعما كبيرا من المانحين الدوليين.

رفض بعض الفلسطينيين هذه الخطة على أساس انها تشابه كثيرا فكرة رئيس الوزراء الإسرائيلى بنيامين نتانياهو عن (السلام الاقتصادى) التى تقترح ان يسبق التطور الاقتصادى الاستقلال، كما ابدى عدد من الإسرائيليين شكوكهم بأن فلسطين سوف تسعى للحصول على اعتراف بدولتها من الأمم المتحدة حين تكتمل الخطة. وحذر افيجدور ليبرمان وزير الخارجية الإسرائيلى من ان اية خطوات احادية الجانب يتخذها فياض نحو بناء دولة سوف تدفع إسرائيل إلى الغاء الاتفاقات السابقة والحاق اجزاء من الضفة الغربية[٦].

وكان فياض قد اعلن ان خطته لبناء دولة جديدة «تهدف إلى توليد ضغط على المفاوضات الإسرائيلية. الفلسطينية، والموعد النهائى للمحادثات المباشرة بين الطرفين التى بدأت لتوها، هو اواخر صيف ٢٠١١ وهو موعد يواكب خطة فياض[٧]. وقد اخبرنى مايكل هرتزوج رئيس الموظفين السابق لوزير الدفاع الإسرائيلى ايهود براك» فى نهاية الأمر اعتقد ان فياض يحسب ان

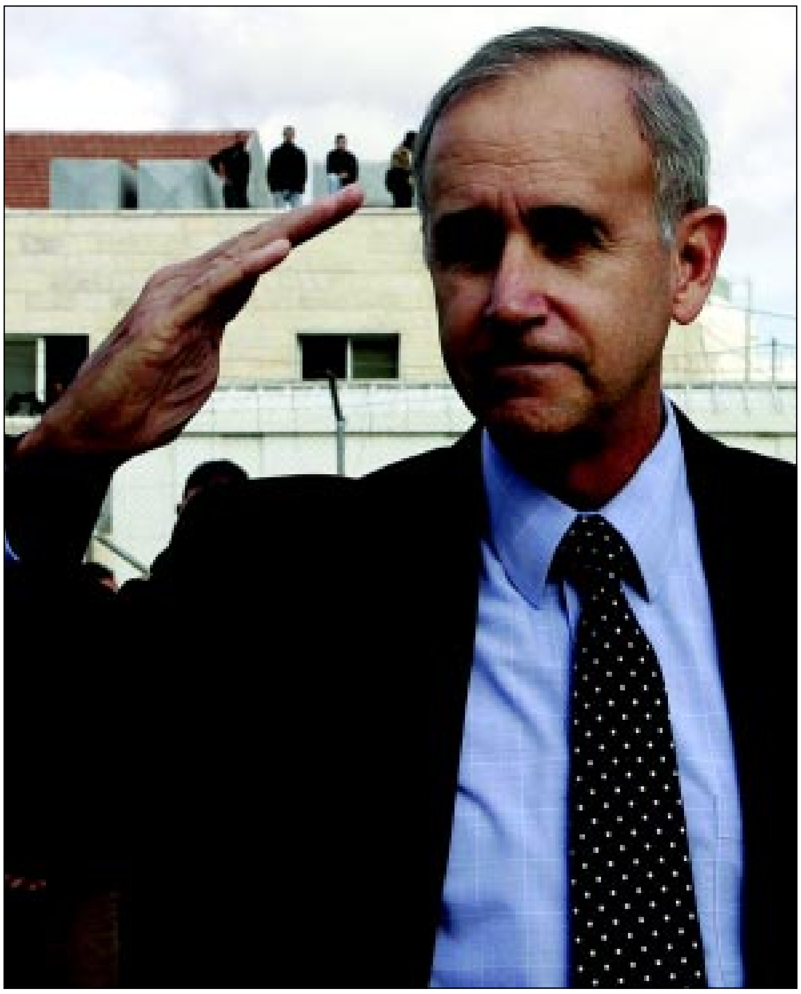

الجنرال كيث دايتون

© AFP, m USA Al-Shaer

بترتيب مع:
The New York Review of Books

ترجمة بثينة الناصرى

Nathan Thrall, aformer member of *The New York Review's* staff, is a contributing editor to Tablet
He has also written for *GQ*, *Slate*, *The New Republic*, and *The New York Times*
Our Man In Palestine

فلســـــــــــــــــطين!!

فياض يحصد القدْح فى الداخل لنفس الأسباب التى ينال عنها المدْح فى الخارج. إنه يدين العنف ضد إسرائيل لأنه فى اعتقاده يتعاكس مع طموحات شعبه الوطنية، وهو يرى أنه يمكن إعادة توطين اللاجئين الفلسطينيين ليس فى إسرائيل ولكن فى دولة فلسطينية مستقبلية واقترح إن تقدم هذه الدولة المواطنة لليهود أيضا

دكتور سلام فياض

© AFP, Abbas Momani

المفاوضات السياسية سوف لن تنجح وخطته (لاقامة دولة) ستكون اللعبة الوحيدة فى المدينة. الخطر الذى يتهدد إسرائيل والسلطة الفلسطينية على السواء هو ماذا يمكن ان يحدث اذا فشلت المفاوضات واذا لم تنتج خطة فياض انفصالا كاملا عن إسرائيل. يقول هرتزوج «لن ننسحب من مناطق معينة لمجرد وجود اعلان أو قرار من الأمم المتحدة» فى حالة حدوث ذلك سوف تكون حماس قادرة على تقديم حجة مقنعة وهى ان العنف هو الطريقة الوحيدة لتحقيق تحرير وطنى. «فياض يضع توقيتا اعتباطيا ويقول «حسنا»، الان اكسروا رؤوسكم كلكم اذا اردتم تجنب كارثة». ان ما فعله مجازفة شديدة ولكنها ذكية جدا».

حتى الان ستراتيجية فياض ناجحة.

لقد بدأت ادارته بتنفيذ أكثر من الف مشروع تطوير يتضمن رصف طرق وزرع اشجار وحفر آبار وبناء مبان جديدة معظمها فى المدينتين التوأم رام الله والبيرة[٨]. وقد قلل من الاعتماد على المعونة الاجنبية وبدأ تنفيذ خطط لبناء مستشفيات جديدة ومدارس ومحاكم ومنتزهات صناعية واسكان وحتى مدينة جديدة «روابى» بين رام الله ونابلس.

ولكن كما اخبرنى غسان خطيب المتحدث باسم السلطة الفلسطينية «اصلاح القوات الامنية هو اهم جزء فى خطة فياض. والعديد من انجازات الحكومة مثل النمو الاقتصادى كان نتيجة لذلك».

قدمت حكومة فياض لمواطنيها اصلاح الشرطة والقوات الأمنية الاخرى بالدرجة الاولى كمسألة فرض القانون والنظام واعتقال العصابات الاجرامية وتوحيد الاجهزة الامنية المتنافسة ومنع مظاهر حمل الاسلحة بين العامة وتحديد اماكن السيارات المسروقة. ولكن برنامجها «لمكافحة الارهاب» الموجه بشكل رئيسى ضد حماس ويعتبر فى نظر الكثير من الفلسطينيين تعاونا مع إسرائيل هو اهم عنصر: يستهدف اعضاء حماس والمتعاطفين المشتبه بهم بهدف إبعاد امكانية سيطرة حماس على الضفة الغربية وهو يساعد فياض على تقديم حجة مقبولة بأنه يمسك بزمام الامور وانه يمكن لاسرائيل ان تنسحب بأمان من المنطقة.

فى ٢٠٠٩ اشتركت القوات الفلسطينية والاسرائيلية فى ١٢٩٧ نشاطا منسقا، ومعظمه ضد جماعات فلسطينية مقاتلة، بزيادة ٧٢ بالمائة عن السنة السابقة[٩]. وقد عملا معا على تفكيك ألوية شهداء الأقصى، وهى ميليشيا فتحاوية رئيسية وهاجما خلايا الجهاد الإسلامى وقضيا على معظم مؤسسات حماس الاجتماعية والترتيبات المالية والانشطة العسكرية فى الضفة الغربية.

طبقا لأحدث تقرير سنوى للشين بيت وهو الإف بى آى FBI الإسرائيلى، فإن «نشاط مكافحة الارهاب المستمر الذى تقوم به اجهزة الامن الإسرائيلية والفلسطينية قد خفض الهجمات الفلسطينية ضد الإسرائيليين فى الضفة الغربية والقدس الشرقية إلى اقل مستوياتها منذ عام ٢٠٠٠[١٠]. ويقول هيرتزوج ان مستوى التعاون اليوم «افضل حتى من قبل الانتفاضة الثانية بل انه ممتاز». وقد اخبرتنى منى منصور وهى نائبة حمساوية فى البرلمان الفلسطينى وارملة قائد كبير للحركة تم اغتياله «لقد نجحت السلطة الفلسطينية أكثر من الإسرائيليين فى القضاء على حماس فى الضفة الغربية».

فى مركز الاصلاحات الأمنية للحكومة الفلسطينية عدد كبير من «الكتائب الخاصة» للقوات الامنية الوطنية (NSF) وعديدها ثمانية آلاف فرد وهى تشكل اكبر وحدة فى القوات المسلحة الفلسطينية المتكونة من ٢٥ الف فى الضفة الغربية[١١]. الضابط المسئول فى الاختيار والتدريب والتسليح والتخطيط الستراتيجى لهذه الكتائب الخاصة هو اللفتنانت جنرال كيث دايتون المنسق الامريكى (USSC) لاسرائيل والسلطة الفلسطينية.

فى مدينة صحراوية تبعد ستة عشر ميل جنوب شرق عمان (الأردن) انهى أكثر من ثلاثة آلاف فلسطينى دورات عسكرية مدتها تسعة عشر اسبوعا بإشراف دايتون فى المركز الاردنى الدولى لتدريب الشرطة، وكان قد انشىء بتمويل أمريكى فى ٢٠٠٣ لتدريب الشرطة العراقية. وفى الخليل وجنين واريحا ورام الله،تنظم بعثة دايتون بناء وتجديد الحاميات العسكرية ومدارس التدريب ومرافق وزارة الداخلية ومقرات الامن، بعضها، مثل الذى زرته على قمة تل فى وسط الخليل، كانت قد دمرت بالهجمات الإسرائيلية خلال الانتفاضة الثانية. ويخطط مكتب المنسق الأمريكى لبناء معسكرات جديدة فى بيت لحم ورام الله وطوباس وطولكرم. وتقدم دورات قيادة لمدة شهرين لكبار ضباط السلطة الفلسطينية وقد صنعت وعينت مستشارين لمديرية التخطيط الستراتيجى فى وزارة الداخلية[١٢]. على مدى السنوات الثلاث الماضية، رصدت وزارة الخارجية الاميركية مبلغ ٣٩٢ مليون دولار لبعثة دايتون و١٥٠ مليون دولار اخرى طلبت لعام ٢٠١١[١٣].

فى مقرها فى مبنى حجرى يعود تاريخه للقرن التاسع عشر وداخل القنصلية الامريكية فى القدس الغربية، يعمل لدى بعثة المنسق الأمريكى خمسة واربعون شخصا هم طاقم العمل المتكون رئيسيا من امريكيين وكنديين وايضا بريطانيين وضباط من الجيش التركى. اضافة إلى ذلك، تستعين البعثة بثمانية وعشرين مقاولا خاصا من شركة داينكورب الدولية ومقرها ولاية فرجينيا[١٤]. وتتطلب قواعد وزارة الخرجية الأمريكية ان يتحرك موظفى الوزارة فى البعثة فى قوافل مسلحة تسليحا كثيفا رغم ان هذه التقييدات لا تطبق على مقاوليها الامنيين الأهليين وضباط الجيش الاجانب وبعضهم يستقر فى رام الله. فى اواخر ٢٠١١ وهو توقيت يترافق مع الموعد النهائى لخطة فياض. تخطط بعثة المنسق الامريكى ان تكون قد أتمت الاشراف على تدريب عشرة كتائب من قوات الامن الوطنية الفلسطينية، كتيبة لكل محافظة فى الضفة الغربية ماعدا القدس[١٥].

خطاب فياض فى أغسطس ٢٠٠٩ لإقامة دولة الأمر الواقع الفلسطينية من جانب واحد بحلول أغسطس ٢٠١١

الجنرال دايتون مسئول مباشرة أمام وزيرة الخارجية هيلارى كلنتون والادميرال مايك مولين رئيس هيئة الاركان المشتركة. ويقدم المشورة لجورج ميتشيل Mitchell المبعوث الخاص لسلام الشرق الاوسط وقد أطنب فى مديحه اعضاء مؤثرون فى مجلس الشيوخ والكونغرس ومحللو الشرق الاوسط الذين ينظرون إلى عمل بعثة المنسق الامريكى باعتبارها انجازا فريدا[١٦]. وقد منحت إسرائيل مسئولية اعظم لقوات الامن الفلسطينية موسعة رقعة عملياتهم جغرافيا، ومشاركتهم فى المعلومات الاستخباراتية ذات النوعية العالية ورفع حظر التجول بالنسبة لهم المفروض من منتصف الليل إلى الساعة الخامسة مساء فى عدد من اكبر مدن الضفة الغربية[١٧]. وطبقا لمكتب الأمم المتحدة للتنسيق فى الشؤون الانسانية فإن إسرائيل قد قلصت ايضا وقت السفر بين معظم المراكز الحضرية فى الضفة الغربية بفتح طرق وارخاء السيطرات فى نقاط التفتيش ورفع متطلبات ترخيص مرور المركبات وازالة الحواجز والتى من المتوقع تخفيضها فى المستقبل القريب إلى أقل عدد منذ ٢٠٠٥[١٨].

كتب الكولونيل فيليب جى ديرمر Dermer وهو عضو سابق فى مكتب المنسق الامريكى فى تقرير مارس ٢٠١٠ الذى وزع على كبار موظفى البيت الابيض والجيش بأن «بعثة المنسق الأمريكى قد حققت تقدما على الارض أكثر من اى مجهود أمريكى آخر فى عملية السلام الإسرائيلية الفلسطينية[١٩]» وقال مايكل اورين سفير إسرائيل إلى الولايات المتحدة «يمكنكم ارسال جورج ميتشيل رائحا غاديا إلى ومن الشرق الاوسط كما تشاءون ولكن توسيع مايفعله الجنرال دايتون فى الجانب الامنى إلى قطاعات اخرى من الحكومة الفلسطينية والمجتمع هو فعلا النموذج الصحيح الوحيد للتقدم»[٢٠].

وصل أول منسق أمنى أمريكى اللفتنانت جنرال وليام «كب» وارد Ward فى القدس فى مارس ٢٠٠٥. وقد اخبرنى اليوت ابرامز Abrams نائب مستشار الامن القومى الامريكى السابق للرئيس جورج بوش بأن بعثة وارد قد جاءت كرد فعل على ثلاثة وقائع صادفت فى وقتها: اعادة انتخاب بوش فى نوفمبر ٢٠٠٤ والذى اراد بناء القوات الامنية الفلسطينية كجزء من خارطة الطريق لسلام الشرق الاوسط فى ٢٠٠٣، وموت ياسر عرفات بعد تسعة ايام وكان قد قاوم المحاولات الامريكية لاصلاح جهاز الامن الفلسطينى، وفوز المرشح المفضل امريكيا محمود عباس فى الانتخابات الرئاسية فى يناير ٢٠٠٥.

ركزت بعثة وارد اساسا على الاصلاح الامنى ولكن سرعان ما اقتصرت على التحضير لانسحاب رئيس الوزراء الإسرائيلى شارون من غزة واربعة مستوطنات فى شمال الضفة الغربية فى اغسطس وسبتمبر ٢٠٠٥[٢١]. وقد جرى الانسحاب سلسا بالنسبة لاسرائيل ولكن وارد فشل فى منع العنف من الجانب الفلسطينى. وقد نهبت زراعات محمية تابعة للمستوطنين واحرقت معابد يهودية فارغة وبدأ الفلسطينيون فى القتال مع بعضهم البعض من اجل السيطرة على غزة[٢٢].

بعد أسابيع من احلال دايتون محل وارد فى نهاية ٢٠٠٥ هزمت حماس فتح فى انتخابات يناير ٢٠٠٦ البرلمانية. وبين ليلة وضحاها تغيرت مهمة دايتون من اصلاح القوات الامنية إلى منع حكومة حماس من السيطرة على تلك القوات. وقد سعى محامو وزارة الخارجية الاميركية إلى استنباط طرق لاستمرار مساعدة القوات الامنية للسلطة الفلسطينية التى تسيطر عليها فتح والتى سوف تؤول إلى حماس وهى جماعة أعلنتها الولايات المتحدة منظمة ارهابية. كان الحل هو ارسال مساعدة مباشرة للرئيس عباس الذى كان قد انتخب بشكل منفصل ويعتبر بعيدا عن حكومة حماس القادمة والبرلمان. وعلى عكس سياستها الثابتة من الضغط على الرئيس الفلسطينى لمنح سلطة لمجلس الوزراء، نصحت الولايات المتحدة عباس ان يصدر قرارات ويجرى تعيينات تحت من سلطة الحكومة الجديدة خاصة على القوات الأمنية[٢٣]. كان رد فعل حماس هو انشاء جهازها الامنى الخاص. وقد حظر عباس ذلك الجهاز بقرار اعتبره مجلس الوزراء آنذاك غير شرعيا. وخلال السنة التالية انخرطت حماس وفتح فى سلسلة من الاشتباكات العنيفة اغتيل فيها زعماء من الجانبين[٢٤].

فى هذه الأثناء كان دايتون يشرف على تجنيد وتدريب وتسليح القوات الأمنية التابعة لعباس والتى تتسارع فى توسعها[٢٥]. القى خالد مشعل رئيس اللجنة التنفيذية فى حماس خطابا ناريا يدين فيه «الانقلاب الأمنى» على انه «مؤامرة» يدعمها «الصهاينة والأمريكان» وهى تهم نفتها فتح[٢٦]. فى فبراير ٢٠٠٧ وعلى حافة حرب أهلية سافر زعماء فتح وحماس إلى مكة حيث اتفقا على شكل من حكومة الوحدة الوطنية، وهى صفقة عارضتها الولايات المتحدة لأنها كانت تفضل ان تستمر فتح فى عزل حماس. اصبح فياض وزير المالية فى الحكومة الجديدة، رغم ضغط الأمريكيين عليه لئلا ينضم إلى الحكومة كما قال[٢٧]. وقد كتب الدبلوماسى من بيرو الفارو دى سوتو مندوب الأمم المتحدة السابق إلى الرباعية فى تقرير سرى بعنوان (نهاية المهمة) بأنه كان يمكن تجنب العنف بين حماس وفتح، لولا المعارضة الأمريكية القوية للمصالحة الفلسطينية. قال فى التقرير «من الواضح ان الولايات المتحدة كانت تدفع لمواجهة بين فتح وحماس»[٢٨].

قبل شهر من سقوط غزة فى ايدى حماس فى يونيو ٢٠٠٧، هاجمت قوات حماس القوات المدربة من قبل بعثة المنسق الأمريكى فى معسكرها قرب حدود غزة مع إسرائيل، وقتلت سبعة ولم تنسحب الا بعد ظهور ثلاث دبابات اسرائيلية[٢٩]. وقد زعم دايتون فى شهادته أمام الكونغرس فى الاسبوع التالى بأنه تم صد الهجوم وأنكر ان تكون قوة حماس فى تصاعد. وهو توقع خاب خلال الاسابيع التالية[٣٠]. يقول راجى صورانى مدير المركز الفلسطينى لحقوق الانسان «لم يستغرق الأمر من حماس الا بضعة أيام لطرد جهاز أمن السلطة الفلسطينية وقوامه ٥٣ الف رجل والذى كان استثمارا غربيا لمدة اربع عشرة سنة»[٣١].

ورغم ان العديد من اعضاء ادارة بوش قالوا لاحقا ان استراتيجية برمتها كانت خاطئة، فإن هزيمة قوات فتح المدعومة امريكيا قدمت درسا مختلفا نوعا ما للدائرة الصغيرة المؤثرة على مكتب المنسق الامريكى[٣٢]. يقول ابرامز «لم نعتبر هذا دليلا على ان المشروع كان فاشلا بل على أن هناك حاجة للمشروع».

ضاعت غزة، ولكن مع قيام عباس بتعيين مجلس وزراء طوارىء برأسه سلام فياض، شعرت الولايات المتحدة ان هذه «افضل حكومة سلطة فلسطينية فى التاريخ». هذا ما قاله لى ديفد ويلش Welch مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الاوسط والذى ساعد فى الاشراف على بعثة دايتون حتى ديسمبر ٢٠٠٨.

انهت ادارة بوش حصارها الذى استمر اربعة عشر شهرا للسلطة الفلسطينية واطلقت إسرائيل ٥٠٠ مليون دولار من ضرائب محتجزة وازداد التنسيق بين القوات الامنية الفلسطينية والاسرائيلية، ووسعت بعثة المنسق الامريكى من عملياتها بسرعة. فى أول ثلاثة أشهر ونصف من رئاسة فياض لمجلس الوزراء، من منتصف يونيو إلى اكتوبر ٢٠٠٧، أدارت السلطة الفلسطينية حملة فى الضفة الغربية ضد الهيئات الخيرية والشركات والوعاظ والموظفين التابعين لحماس، واعتقلت حوالى ١٥٠٠ من اعضاء الحركة والمتعاطفين المشتبه بهم[٣٣]. يقول ويلش «حالما اصبح واضحا ان حماس فازت فى غزة، كان الواجب تنظيف الضفة الغربية».

فى أواخر اكتوبر ٢٠٠٧، كانت الحكومة تبذل جهودا مكثفة للحفاظ على النظام فى نابلس، احدى اشد المدن العنيفة فى الضفة الغربية. فى جنين فى مايو التالى قادت كتيبة خاصة دربتها بعثة المنسق الامريكى، اكبر عملية امنية قامت بها السلطة الفلسطينية[٣٤]. وقد لاقت كلا الحملتين قبولا من السكان المحليين الذين كانوا ممتنين لتحسن الأمن. ولكن هذه المشاريع لم تكن بشكل عام تعتمد فقط على ضبط النفس من قبل حماس والجهاد الإسلامى ولكن ايضا على دعم إسرائيل، التى أعلنت العفو عن مسلحى فتح[٣٥].

يرى الكثير من الفلسطينيين أن الحملات التى تقوم بها القوات الأمنية

«لقد نجحت السلطة الفلسطينية أكثر من الإسرائيليين فى القضاء على حماس فى الضفة الغربية»

كان يمكن تجنب العنف بين حماس وفتح، لولا المعارضة الأمريكية القوية للمصالحة الفلسطينية

اليوم هى جهد يهدف إلى قمع حماس المنتصرة فى انتخابات حرة ونزيهة. وكذلك لمنع الهجمات ضد إسرائيل. وقد قال لى غيث العمرى وهو مستشار سياسة خارجية سابق لعباس «التحدى الذى يواجه فياض وعباس هو ان العنف ضد إسرائيل فى نظر الكثير من الفلسطينيين، جهد وطنى محترم» وهذه وجهة نظر اكدتها ردود الأفعال لمعظم التفجيرات الانتحارية الأخيرة فى إسرائيل. فى مركز تسوق فى ديمونة فى فبراير ٢٠٠٨ واطلاق النار بعد شهر على ثمانية طلاب فى يشيفا فى القدس الغربية. وقد اظهر استفتاء بأن أكثر من ثلاثة ارباع الفلسطينيين يؤيدون الهجمات التى امتدحتها حماس وادانتها السلطة الفلسطينية[٣٦].

وخلال السنة التالية، استمرت السلطة الفلسطينية بمساعدة بسيطة من حماس فى زيادة نفور الجمهور منها. فى قاعدة اسرائيلية شمال رام الله فى سبتمبر ٢٠٠٨، حضر الصحفى الإسرائيلى ناحوم برنية لقاء بين القادة العسكريين الفلسطينيين والاسرائيليين، وفى مقالة ترجمت لاحقا ونشرت فى الصحافة الفلسطينية، كتب برنية فى يديعوت احرونوت وهى اوسع الصحف الإسرائيلية انتشارا، بأن رئيس الاستخبارات العسكرية الفلسطينية قال «اننا نتكفل بكل مؤسسة تابعة لحماس طبقا لتوجيهاتكم»[٣٧].

ضربة اخرى لشعبية السلطة الفلسطينية جاءت بعد شهر ونصف. بعد أن أخلت القوات الإسرائيلية حوالى مائتين من اليهود من مبنى متنازع عليه فى الخليل، قام المستوطنون الاسرائيليون فى المنطقة بتدمير سيارات اسعاف وجوامع واحرقوا سيارات ومنازل واطلقوا النار وأصابوا سكانا فلسطينيين. وقد قال رئيس الوزراء ايهود أولمرت انه «يشعر بالخجل لمشاهد فتح النار من قبل يهود على عرب أبرياء» وقد وصف الواقعة بأنها «مجزرة»[٣٨] (الكلمة المستخدمة هى pogrom وتعنى حرفيا: المجزرة والفرهود والشغب والعنف المنظم خاصة ضد اليهود. المترجمة). وحين انتشرت أعمال الشغب إلى جزء المدينة الواقع تحت السيطرة الفلسطينية، راقب سكان الخليل قواتهم الأمنية تختفى بهدوء[٣٩]. وقد أبلغنى كل من حاكم المدينة السابق وهو الان رئيس موظفى عباس وقائد القوات الامنية الوطنية فى الخليل، وهى من معاقل حماس، بأن الجنود الإسرائيليين غالبا مايقومون بالتغلغل فى المناطق الخاضعة للسلطة الفلسطينية ويجبرون. كما قال حاكم المدينة القوات الفلسطينية «المذلة والمهانة» للانسحاب إلى ثكناتها. وقد قال الرجلان ان معرفة الناس بالتعاون بين السلطة الفلسطينية واسرائيل، يزداد بتكرار قيام الأخيرة بالاعتقال الفورى للاشخاص الذين تفرج عنهم السلطة الفلسطينية من سجونها.

أكبر ضرر أصاب سمعة القوات الامنية الفلسطينية حدث خلال الحرب الإسرائيلية فى غزة التى بدأت فى ديسمبر ٢٠٠٨. حيث أحاط الضباط الفلسطينيون فى الضفة الغربية وهم بملابس مدنية وعسكرية بالجوامع ومنعوا الشباب من الاقتراب من نقاط التفتيش الإسرائيلية واعتقلوا المحتجين الذين كانوا يهتفون بشعارات حماس وفرقوا المتظاهرين بالعصى ورشاش الفلفل والغاز المسيل للدموع[٤٠]. كانت الثقة بين القوات الإسرائيلية والفلسطينية من الشدة كما قال دايتون حتى أن «جزءا كبيرا من الجيش الإسرائيلى ذهب إلى غزة»[٤١]. وقد حدثنى باراك بن زور وهو رئيس سابق لوحدة مكافحة الارهاب فى الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية ولاحقا معاون خاص لمدير الشين بيت بأنه «فى المدن العربية الإسرائيلية كانت تظاهرات الاحتجاج ضد الحرب اكبر منها فى الضفة الغربية «بفضل» الهدوء التام الذى فرضته أجهزة الأمن الفلسطينية» كما قال لى وزير الخارجية افيجدور ليبرمان فيما بعد: «كان محمود عباس بنفسه يهاتفنا ويطلب منا ويضغط علينا ان نستمر فى حملتنا العسكرية للاطاحة بحماس»[٤٢].

بعد عدة أشهر من انتهاء الحرب فى غزة تحدث دايتون أمام مجموعة مؤثرة من السياسيين والمحللين فى معهد واشنطن لسياسة الشرق الادنى حيث تفاخر بانجازات بعثته: بناء قوة عملت ضد حماس وتعاونت مع إسرائيل اثناء الحرب، وخلق «رجال جدد» من خلال تدريب البعثة للقوات الفلسطينية. وقال أن القادة العسكريين الإسرائيليين يسألونه ماهى السرعة التى يستطيع بها إنتاج المزيد من هؤلاء الرجال الجدد[٤٣]. لم تجد تعليقاته هذه ترحيبا فى فلسطين حيث دعمت صورة العمالة لأمريكا وإسرائيل. وفى الأشهر التى تلت خطابه ذاك، ارسلت السلطة الفلسطينية شكوى رسمية للولايات المتحدة حول تصريحات دايتون «غير المقبولة» ورفض مسئولون فلسطينيون كبار بضمنهم فياض حضور اللقاءات مع دايتون وطبقا لمجلة جينز ديفينس الاسبوعية Jane's Defence Weekly «بسبب التوتر فى العلاقات بين الجنرال دايتون والقيادة الفلسطينية المدنية، تم تقليص دوره»[٤٤].

بالنسبة لفياض، لم يكن هناك توقيت أسوأ من توقيت خطاب دايتون، فقد جاء اثر اعلان استطلاع نشر على نطاق واسع، أظهر تدنى شرعية السلطة الفلسطينية بين سكان الضفة الغربية كما حدث بعد اسابيع فقط من قيام الفلسطينيين بأكبر مظاهرات احتجاج على اتهام القوات الامنية الفلسطينية بمحاولة اغتيال الشيخ حامد البيتاوى وهو احد قادة حماس البارزين فى الضفة الغربية[٤٥]. وكان البيتاوى وهو نائب فى البرلمان ورئيس رابطة علماء المسلمين الفلسطينيين ورجل دين معروف بخطبه فى المسجد الأقصى فى القدس، قد نجا من هجوم آخر نفذه مجهولون فى خريف ٢٠٠٨[٤٦]. ومنعته السلطة الفلسطينية هذا الصيف من الوعظ واعتقلت اثنين من ابنائه فى يوليو. ورغم ذلك فقد قال البيتاوى انه على ثقة بأن حكومة فياض لن تستمر[٤٧]. وقد ابلغنى فى نابلس «سوف تسقط فتح والسلطة الفلسطينية لسببين: الفساد والتعاون مع الإسرائيليين».

فى ديسمبر الماضى، اثناء وجود القوات الإسرائيلية فى نابلس، ويقال انه حسب بلاغ من الاجهزة الامنية الفلسطينية قتلت ثلاثة متشددين فلسطينيين مشتبه بهم فى مقتل حاخام فى الضفة الغربية، وقد حضر أكثر من ٢٠ الف فلسطينى الجنازة التى تحولت إلى احتجاج هائل ضد التعاون الامنى بين السلطة الفلسطينية واسرائيل[٤٨]. بعد عدة أيام اذاعت قناة الأقصى التابعة لحماس فيلم كارتون وفرقة تنشد «قسما لن يرهبنا دايتون». وكانت الشخصية الرئيسية فى الكارتون «بهلول» تمثل قائد قوات امنية وطنية فلسطينية يقبل احذية الجنود الإسرائيليين ويرتدى بيريه تحمل اسم «دايتون» وهو يدعى انه لا يمثل اى فصيل سياسى، قبل لحظات من سقوط بنطلونه ليكشف ملابسه الداخلية الملونة بلون علم فتح الاصفر.

فى اليوم الذى عرض فيه فيلم الكارتون على التلفزيون، قال عباس فى حوار تعليقا على صورته التى قدمها الكارتون بشكل دمية يحرك خيوطها جندى اسرائيلى «اننا لسنا حراس أمن إسرائيل» بعد اسبوع قال يوسف القرضاوى الواعظ التلفزيونى الذى يستقر حاليا فى الدوحة ويصل جمهوره إلى عشرات الملايين، فى خطبة اذيعت فى التلفزيون القطرى «إذا ثبت أن عباس هو الذى حرض إسرائيل على ضرب غزة فإنه لايستحق الإعدام فقط وانما يستحق الرجم حتى الموت».

لم يكن الاسلاميون النقاد الوحيدين لدايتون والقوات الأمنية. فى العام الماضى، فى مقالة افتتاحية بعنوان «الشرطة السرية فى اريحا» كتب باسم عيد رئيس المجموعة الفلسطينية لمراقبة حقوق الانسان «أود أن اقترح بأن لا يدرب الجنرال دايتون العناصر فقط فى استخدام الاسلحة والضرب والتعذيب، ولكن ايضا يدربهم على كيفية التصرف وسط شعبهم». إن القوات الأمنية الوطنية المدربة من قبل دايتون غير مخولة بالاعتقالات ولكنهم يقودون بانتظام عمليات مشتركة مع اجهزة الأمن الفلسطينية التى تم تدريب كبار قادتها من قبل مكتب المنسق الأمريكى وقد مارس هؤلاء طبقا لمنظمة مراقبة حقوق الانسان (هيومان رايتس ووتش) وجماعات حقوق الانسان الفلسطينية، التعذيب. وبعد سنة من عهد فياض تحدث ممدوح العكر وكان فى حينها المفوض العام للهيئة المستقلة لحقوق الانسان

قال لى ليبرمان: «كان محمود عباس بنفسه يهاتفنا ويطلب منا أن نستمر فى حملتنا العسكرية للإطاحة بحماس»

لم يستغرق الأمر من حماس إلا بضعة أيام لطرد جهاز أمن السلطة الفلسطينية وقوامه ٥٣ الف رجل

التابعة للسلطة الفلسطينية، عن «عسكرة» الحكومة وأكد أن «دولة اللاقانون تنزلق إلى نوع من دولة امنية، دولة بوليسية».

ومنذ ذلك الحين تصاعدت الاتهامات بالشمولية. وظل عباس الذى انتهت فترة حكمه خلال الحرب فى غزة، يحكم بموجب قرار رئاسى. ولم تكن ثمة هيئة تشريعية منذ يونيو ٢٠٠٧ والاحكام القضائية يتم تجاهلها من قبل الأجهزة الأمنية. وكان فياض، رغم كل التزامه بالمحاسبة والشفافية يحظى فى استطلاعات الرأى المتكررة بشرعية اقل مما يحظى بها رئيس وزراء حماس فى غزة اسماعيل هنية، وفى الخارج كانت الحكومة حسب مؤشر النزاهة العالمى قد حازت مع العراق مرتبة السادسة فى أكثر الحكومات فسادا فى العالم.

فى جوانب أخرى ايضا وقعت ممارسات السلطة الفلسطينية تحت طائلة الانتقاد الشديد. طبقا لشعوان جبارين مدير «مؤسسة الحق» وهى منظمة حقوق انسان فلسطينية، أصبح التعذيب فى الأشهر الأخيرة روتينا. وبينت استطلاعات للرأى اجريت على فترات منذ تسنم فياض مهام منصبه، ان سكان الضفة الغربية يشعرون دائما بأمان أقل من الغزاويين الذين يعيشون. فى جوانب كثيرة. ظروفا اسوأ تحت حكم حماس. وتقوم وزارة الشؤون الدينية بإملاء خطب الجمعة ليقرأها الأئمة. اما الصحفيون الفلسطينيون فطبقا لمنظمة العفو الدولية، فقد تعرضوا للاعتقال والتهديد خلال حرب غزة بسبب كشفهم القمع الحكومى. وفى تقارير منظمة صحفيين بلا حدود، حظيت السلطة الفلسطينية، منذ رئاسة فياض الوزارة، فى مؤشر الحرية الصحفية مرتين بالمرتبة الأدنى من أية دولة عربية اخرى. والان تمنح دار الحرية Freedom House للحقوق السياسية فى السلطة الفلسطينية نفس التقييم الذى تمنحه للحريات المدنية فيها: «ليست حرة».

حاول فياض ان يعزز مصداقيته لدى الفلسطينيين بالمساهمة فى انشطة «المقاومة السلمية». التظاهرات ضد الجدار الأمنى الإسرائيلى واحراق المنتجات المصنوعة فى المستوطنات الإسرائيلية. ولكن سام بحور رجل الاعمال الفلسطينى وداعية الحقوق المدنية اخبرنى بأن قرار الحكومة الاخير «لتبنى عنصر صغير واحد» للمقاطعة القائمة والأكثر شمولا هو مجرد «تزيين الفاترينة» الذى يهدف إلى التغطية على «دولة بوليسية أهدافها الرئيسية هى تحجيم حماس وانتقاد الحكومة. فى ٢٥ اغسطس، حين قامت الاحزاب السياسية اليسارية والمستقلة بالتجمع ضد المحادثات المباشرة مع إسرائيل التى بدأت بعد اسبوع من ذلك، اتخذت قوات أمن السلطة الفلسطينية اجراءات عنيفة لفض التجمع.

فى الشتاء والربيع الماضيين، استعدت السلطة الفلسطينية لانتخابات المجالس المحلية فى يوليو والتى أعلنت حماس نيتها مقاطعتها بسبب القمع السياسى. وقد اخبرنى خليل الشقاقى أبرز المستطلعين السياسيين بأن الغرض من الانتخابات كان «لمزيد من اضعاف حماس وتعزيز شرعية الحكومة «وحين حالت انقسامات فتح الداخلية دون الموافقة على قائمة مرشحين، ألغت السلطة الانتخابات نافية ان ذلك كان بسبب خشية فتح من خسارتها. ولكن شعوان جبارين قال لى بأن نفى الحكومة لم يكن صادقا:

فى مايو ويونيو، علمنا ان عشرات أو مئات من الحالات التى استجوب فيها اتباع حماس من قبل القوى الامنية حول انتخابات المجالس المحلية وقد وجهت اليهم اسئلة عما اذا كانوا سيرشحون انفسهم أم لا، اذا كانوا يريدون ان ينتخبوا ام لا، ولمن يريدون اعطاء اصواتهم.

وفى مكتبه فى رام الله قال الشقاقى بأنه بسبب شعور الناس فى غزة بحرية اكبر فى التعبير عن ميولهم السياسية لفريق الاستطلاع « حصلنا على اجابات أدق فى غزة عمن انتخبوهم فى الانتخابات الاخيرة مما حصلنا عليه هنا».

كتب الكولونيل ديرمر فى تقريره الذى وزع على كبار موظفى البيت الأبيض والبنتاغون فى اوائل هذا العام، يقول «فى حين ان المسئولين الإسرائيليين والأمريكيين ينظرون إلى نجاحات السلطة الفلسطينية الاخيرة فى الميدان. بقصر نظر على انها انتصار ضد الإرهاب، يراها الفلسطينيون الحذرون على انها حماية جديدة لنظام السلطة.« ومن أخطاء الجهود الأمريكية كما يعتقد هو «الطبيعة الغامضة لبعثة المنسق الأمريكى ونوع الدولة المطلوبة. هل الهدف هو ان تسود السلطة الفلسطينية وتهزم حماس عسكريا ؟ أم هو الثأر لفقدان غزة ؟ أم للحفاظ على الأمن لحساب إسرائيل؟ ام هل هو وضع اسس الامن لدولة فلسطينية مستقلة وديمقراطية؟« وقد اخبرنى غاندى امين وهو مدير فى المفوضية المستقلة لحقوق الانسان، التابعة للسلطة الفلسطينية «ليس لدى أمل فى خطة فياض. انى انظر إلى الأرض ولا ارى الا دورا متصاعدا لأجهزة الأمن».

فى اكتوبر، سوف يتقاعد دايتون ليحل محله جنرال بثلاث نجوم من القوة الجوية هو مايكل مويلر. خلال السنة القادمة، من المتوقع أن يُعهد إلى مويلر بأكبر التخصيصات المالية فى تاريخ مكتب المنسق الأمريكى. سيكون عليه، مع اقتراب الموعد النهائى لكل من خطة فياض وانتهاء المفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية، ان يدفع بهدفين متضاربين: بناء قوى فلسطينية يمكن ان تضمن الأمن الإسرائيلى وفى نفس الوقت التغطية على الدعم الامريكى الشديد لما اصبح سكان الضفة الغربية، مثل السياسى المستقل مصطفى البرغوثى، يصفونه بأنه ليس احتلالا واحدا وانما اثنين. ■

الـهـوامـش

(١) للاطلاع على تقرير ممتاز عن الاصلاح الامنى الفلسطينى انظر «تربيع الدائرة: الاصلاح الامنى الفلسطينى تحت الاحتلال» مجموعة الازمات الدولية، ٧ سبتمبر ٢٠١٠

(٢) «فياض: يمكن لليهود ان يكونوا مواطنين متساوين فى دولة فلسطينية « هاآرتز ٥ يوليو ٢٠٠٩

(٣) للاطلاع عن مثال لنوع المديح الذى كيل لفياض انظر عدة اعمدة حديثة للكاتب روجر كوهين الذى وصف فياض بأنه «أهم ظاهرة فى الشرق الاوسط» وتوماس فريدمان الذى صاغ مصطلحا لنوعية «الشفافية والادارة المسؤولة «التى يمثلها فياض هو «الفياضية Fayyadism» التى كما يرى «أكثر الافكار اثارة فى تاريخ الحكم العربى». روجر كوهين «هزيمة الثقب الاسود فى الشرق الاوسط» صحيفة انترناشينال هيرالد تربيون، ٢٧ ابريل ٢٠١٠. توماس فريدمان «اطلاقات خضراء فى فلسطين» نيويورك تايمز ٤ اغسطس ٢٠٠٩

(٤) اكيفا ايلدار «يوم فى حياة بن غوريون الفلسطينى» هاآرتز ١١ فبراير ٢٠١٠

(٥) فادى السلامين «فياض: ابن ابن رغم الاحتلال» The Palestine Note ٣٠ يوليو ٢٠١٠

(٦) ميراف ميكايلى «ليبرمان: الاشارات الإسرائيلية للفلسطينيين جوبهت بلطمات على الوجه» هاآرتز ١٣ مايو ٢٠١٠

(٧) فادى السلامين «فياض:ابنِ ابنِ رغم الاحتلال»

(٨) تم تضخيم تقرير لصندوق النقد الدولى يقول ان الناتج المحلى الاجمالى فى الضفة الغربية قد ازداد بنسبة ٥,٨ بالمائة فى ٢٠٠٩. للاطلاع على مصدر يجادل بأن تقرير صندوق النقد الدولى بالغ كثيرا فى النمو الاقتصادى بالضفة الغربية، انظر باسم خورى «وضع العربة الفلسطينية قبل الحصان» موقع فورين بوليسى ١ يوليو ٢٠١٠

(٩) «اجراءات اتخذتها إسرائيل دعما لتطوير الاقتصاد الفلسطينى، الهيكل الاجتماعى الاقتصادى والاصلاحات الامنية « تقرير حكومة إسرائيل المقدم إلى لجنة التنسيق فى ١٣ ابريل ٢٠١٠

(١٠) «الموجز السنوى لعام ٢٠٠٩: بيانات واتجاهات الارهاب الفلسطينى « وكالة الامن الإسرائيلية ٢٠٠٩. انظر ايضا تقارير الوكالة السابقة و «اربع سنوات من النزاع:حرب إسرائيل ضد الارهاب» وزارة الخارجية الإسرائيلية ٣ اكتوبر ٢٠٠٤

(١١) حول حجم قوات الامن الوطنى، انظر تقديرات مذكورة فى «السلطة الفلسطينية:المعونة الامريكية هى تدريب وتجهيز القوات الامنية ولكن البرنامج يحتاج إلى قياس التقدم ويواجه تقييدات لوجستية» مكتب المحاسبة الحكومية مايو ٢٠١٠. و «تربيع الدائرة: الاصلاح الامنى الفلسطينى تحت الاحتلال» الرقم المستخدم فى هذه المقالة يقع بين الارقام المذكورة فى هذين التقريرين ويمثل تعديلا ضئيلا قدم لى من قبل المتحدث عن (بعثة شرطة الاتحاد الأوربى للمناطق الفلسطينية) فى ابريل ٢٠١٠، لتقدير سابق اصدره المسئولون الامريكان. انظر «الضفة الغربية: قوات الامن الفلسطينية» فريق محارب الطريق للتنسيق الامنى الامريكى، يونيو ٢٠٠٨.

(١٢) هذه الدورات مفتوحة لاعضاء كل من اجهزة الامن السبعة: قوات الامن الوطنيـ الحرس الرئاسيـ الشرطة المدنية. الدفاع المدنى وثلاثة اجهزة استخبارات: الاستخبارات العسكرية. المخابرات العامة. الامن الوقائى.

(١٣) «السلطة الفلسطينية:المعونة الامريكية هى تدريب وتجهيز القوات الامنية ولكن البرنامج يحتاج لقياس التقدم ويواجه تقييدات لوجستية»

(١٤) نفس المصدر اعلاه

(١٥) تتوقع وزارة الخارجية الامريكية على اية حال نشر القوات فى تسع محافظات فقط، مع الاحتفاظ بكتيبة كقوة احتياط (قطاع الأمن فى

التعاون بين السلطة الفلسطينية وإسرائيل، يزداد بتكرار اعتقال الأخيرة من تفرج عنهم السلطة الفلسطينية من سجونها

رغم أن فياض لايملك شعبية إلا أنه اليوم مسئول تقريبا عن كل جانب من الحكومة الفلسطينية

السلطة الفلسطينية يعتبر محافظتى جنين وطوباس كوحدة واحدة) انظر «المعونة الامنية الامريكية للسلطة الفلسطينية» جهاز بحث الكونغرس ٨ يناير ٢٠١٠ و«تربيع الدائرة» مجموعة الازمات الدولية، ٧ سبتمبر ٢٠١٠ الصفحة ١١

(١٦) خدم دايتون إلى جانب مستشار الامن القومى الجنرال جيمس جونز الذى كان المندوب الخاص لأمن الشرق الاوسط فى ٢٠٠٧ـ٢٠٠٨، كتب دعاية متوهجة لكتاب حديث شارك فى تأليفه دنيس روس، المدير فى مجلس الامن القومى والمستشار الخاص للرئيس، وقد قدم عروضا توضيحية لأعضاء مجلس شيوخ مؤثرين وأعضاء من كونغرس ومجموعات المصالح التى كانت تزور إسرائيل.

(١٧) «تربيع الدائرة:الاصلاح الامنى الفلسطينى تحت الاحتلال»

(١٨) «تحديث الحركة والتنقل فى الضفة الغربية «مكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشئون الانسانية، الاراضى الفلسطينية المحتلة، يونيو ٢٠١٠

(١٩) الكولونيل فيليب جى ديرمر «ملاحظات رحلة عند العودة إلى إسرائيل والضفة الغربية: انعكاسات على صنع السلام الامريكى، بعثة الامن، وماذا يجب فعله» صحيفة الدراسات الفلسطينية المجلد ٣٩ الرقم ٣ (ربيع ٢٠١٠) Journal of Palestine Studies

(٢٠) جيمس كتفيلد Kitfield «يسقطون متحدين يقفون متفرقين» ناشنال جورنال ٢٨ مارس ٢٠٠٩

(٢١) بعد وقت قصير من وصول «وارد « اشتكى وزير الداخلية الفلسطينى للهيئة التشريعية من أن جهود اصلاحاته واصلاحات وارد قد ضربت بالطوربيد من قبل القوات الامنية واجهزة الاستخبارات الاجنبية التى دفعت لهم. اخبرنى جارات تشوبرا Jarat Chopra مستشار سابق لمنظمة التحرير الفلسطينية وقد رأس مجموعة خدمت كذراع عملياتى لمكتب التنسيق الامريكى «اكبر التحديات التى يواجهها وارد تأتى من إسرائيل والسى آى أى CIA فكلاهما،حماية لعلاقاتهما مع رؤساء الامن الفلسطينيين، عرقلا الاصلاح وشجعا عقلية الاقطاعيات التى زرعها عرفات بين أكثر من دستة اجهزة امن متنافسة « انظر بنحاس انبارى ودان دايكر «مقتل موسى عرفات والمعركة من اجل غنائم غزة» مركز القدس للشئون العامة، ١٠ اكتوبر ٢٠٠٥. انظر ايضا خالد أبو طعمة «المسلحون الذين ترعاهم السلطة الفلسطينية يحرضون على الفوضى» جيروساليم بوست ١٤ يونيو ٢٠٠٥.

(٢٢) ابن عم عرفات، موسى عرفات البالغ من العمر خمسة وستين عاما وهو رئيس سابق للمخابرات العسكرية جرّ وهو بملابس النوم من بيته واطلق عليه الرصاص خمس عشرة مرة خارج مكاتب منظمة الأمن الوقائى، وهى اكبر مستلم فلسطينى لمساعدة السى آى أى والتى يرأسها منذ وقت طويل خصمه محمد دحلان.

(٢٣) «الفلسطينيون واسرائيل والرباعية: التراجع عن الحافة» مجموعة الأزمات الدولية، تقرير الشرق الاوسط رقم ٥٤ فى ١٣ يونيو ٢٠٠٦ صفحة ٧ «قال لى اليوت ابرامز «هل تستطيع اصدار قرار رئاسى يقول: أقول بهذا أن هذه القوة. القوة ١٧. لم تعد تحت سيطرة وزير الداخلية؟ ولكن السؤال كان دائما أكثر قانونية ورسمية. فى العالم الواقعى، نحن وعباس وفتح والسلطة الفلسطينية ومنظمة التحرير الفلسطينية. كنا مسيطرين طوال الوقت»

(٢٤) نشر القوات كان يجابه بنشر مضاد، يتبعه اصطدامات واغتيالات وتضاعف اسعار M١٦ ومنع تجول مفروض ذاتيا فى غزة. انظر ادام انتوس وهيثم التميمى . «نزاع حماس وعباس يطلق سباق تسلح فلسطينيا» رويترز ٨ يونيو ٢٠٠٦. خالد أبو طعمة «ينبغى ان ينتهى هذا قبل ان يكون مثل العراق» جيروساليم بوست ٢٠ ديسمبر ٢٠٠٥

(٢٥) ادام انتوس «عباس يبنى القوات وسط ازمة فلسطينية» رويترز ٥ اكتوبر ٢٠٠٦. ديفد ويلش مساعد سابق لوزيرة الخارجية لشئون الشرق الادنى والذى ساعد على الاشراف على بعثة دايتون حتى ديسمبر ٢٠٠٨ قال لى: «نحن اساسا نحاول نحت ارض وسطية قلقة بين تطهير القوات الامنية وهزيمة العدو» وثائق مسربة وقد نشرتها صحيفة اردنية وهى مكتوبة بخط دايتون تنص على انه بين ٧ ديسمبر ٢٠٠٦ و٢٨ فبراير ٢٠٠٧ بدأ تدريب اساسى لعدد ٣٧٠٠ فرد أمنى فى غزة ولعدد ١٤٠٠ فرد امنى فى الضفة الغربية. اضافة إلى ذلك كما تنص الوثيقة، فقد بدأ فحص واختيار ١٥ الف عنصر امنى وطنى فى غزة و٥٠٠٠ فى الضفة الغربية.

(٢٦) انظر ديفد روس Rose «الدليل هو فى الوثائق الورقية « فانيتى فير ٥ مارس ٢٠٠٨. الجنرال محمد عراج قائد القوات الامنية الوطنية المدربة من قبل دايتون، فى الخليل اخبرنى بأن كتيبته بدأت التدريب فى ٢٠٠٦. قال لى مسئول كبير فى ادارة بوش «قدم المصريون والاردنيون دعما عينيا فى حين ان اكبر الداعمين ماليا كانوا الاماراتيين. كما قدم السعوديون التمويل لبعض الوقت».

(٢٧) خطاب خالد مشعل رئيس المكتب السياسى: لن ننحنى للضغوط الامريكية والاسرائيلية وفتح لنكون تابعين للصهاينة «شبكة اخبار فلسطين ٢٢ ابريل ٢٠٠٦. فى خريف ٢٠٠٦ نشرت صحيفة هآرتز الإسرائيلية اليومية ان دايتون خطط لدفع عباس لمواجهة حماس فى غزة: فى زيارة ويلش وابرامز إلى إسرائيل فى اوائل نوفمبر «وصلا بخطة طموح رسمها الجنرال كيث دايتون .. تريد الولايات المتحدة ان تدفع ابو مازن إلى مواجهة عسكرية فى غزة للاطاحة بحكومة حماس» الوف بين Aluf Benn «كلمات كلمات كلمات» هاآرتز ٢ نوفمبر ٢٠٠٦

(٢٨) «دولة فلسطينية فى سنتين: حوار مع سلام فياض» صحيفة الدراسات الفلسطينية، خريف ٢٠٠٩

(٢٩) الفارو دى سوتو «تقرير نهاية المهمة» مايو ٢٠٠٧. قبل اسبوع من اجتماع مكة، كتب دى سوتو «اعلن المبعوث الامريكى مرتين فى لقاء المبعوثين فى واشنطن كم «احب هذا العنف» واخبرنى ويلش «لقد قلت هذا ولكن ما قلته كان «حيث لايوجد عنف فإن ذلك يعنى ان الرجال الطيبين لابد قد استسلموا « بعد يوم من تشكيل حكومة الوحدة الوطنية عين عباس خصم حماس المقيت محمد دحلان مستشارا للامن القومى، وقد قال قائد حماس محمود الزهار «لن ننسى ابدا ان هذا هو الرجل الذى احرق لحانا وعذبنا» ويمكن الاطلاع على الاقتباس من الزهار فى كتاب بيفرلى ملتون ادواردز وستيفن فاريل «حماس» (بولايتى ٢٠١٠) صفحة ٢٨٠.

(٣٠) فى نهاية ابريل ٢٠٠٧ نشرت صحيفة اردنية وثائق أمريكية مسربة. انظر هامش ٢٥. تلخص ستراتيجية لتقويض حكومة الوحدة الوطنية وتقوية فتح والقضاء على القوة الامنية الجديدة لحماس. سيقول مسؤولو حماس فيما بعد ان هذه الخطط مع وصول قوات من مصر تدربت على ايدى دايتون شجعتهم على المضى فى الهجوم على غزة فى اواخر الربيع. وقد نشرت فى الاصل على الانترنيت بالعربية على موقع (المجد) فى ابريل ٢٠٠٧ ونشرت بعد ذلك بالانجليزية على مدونة اسمها Missing Links

(٣١) انظر روس «الدليل هو فى الوثائق الورقية» انظر ايضا «بعد غزة» مجموعة الازمات الدولية، تقرير الشرق الاوسط رقم ٦٨ فى ٢ اغسطس ٢٠٠٧ صفحة ١١ وملاحظات بقلم محمود الزهار وفوزى برهوم فى مقالة ديفد روس «قنبلة غزو» المنشورة فى فانيتى فير، ابريل ٢٠٠٨

(٣٢) ابراهيم برزك «حماس تقتل ٧ فى اشتباك على الحدود مع غزة» اسوشيتد برس ١٥ مايو ٢٠٠٧

(٣٣) «المعونة الامريكية للفلسطينيين» جلسة استماع أمام اللجنة الفرعية حول الشرق الاوسط وجنوب آسيا للجنة الشئون الخارجية، مجلس النواب، الكونغرس ١١٠ فى ٢٣ مايو ٢٠٠٧

(٣٤) كتاب «اقتل خالد» (نيو بريس ٢٠٠٩) لمؤلفه Paul MacGeough (آثرت وضع اسم المؤلف بالانجليزية لأن لاسم عائلته ايرلندية الاصل طريقتين للنطق، فبعض الايرلنديين ينطقونه ماكجيو وبعضهم ماكجوف، وهكذا طالما لم يتفق قومه على طريقة واحدة لنطق الاسم وبما انى لا اعرف كيف ينطق المؤلف اسمه، اضعه بلغته الاصلية . المترجمة).

(٣٥) ذهب ديفد ورمسر، مستشار الشرق الاوسط لنائب الرئيس تشينى بعيدا فى قوله «ماحدث لم يكن انقلابا من حماس وانما محاولة انقلاب من فتح ولكنها اجهضت قبل ان تحدث» انظر روس «قنبلة غزة» وانظر ايضا اقتباسات من جون بولتون المندوب الامريكى السابق إلى الأمم المتحدة فى نفس المقالة «بعد فشلهم فى اتباع التحذير بعدم اقامة الانتخابات، حاولوا تجنب النتيجة من خلال دايتون» وقد اخبرنى العديد من مسئولى ادارة بوش بأن ورمسر وبولتون لم يكن لهما تأثير على السياسة التى ينتقدانها.

(٣٦) «حكم فلسطين الجزء ٢: نموذج الضفة الغربية؟» مجموعة الازمات الدولية تقرير الشرق الاوسط رقم ٧٩ فى ١٧ يوليو ٢٠٠٨ صفحة ٤

(٣٧) محمد نجيب «الضباط الفلسطينيون يتخرجون من دورة تدريب اردنية على العمليات الخاصة» جينز ديفينس ويكلى ٢ مايو ٢٠٠٨

(٣٨) كانت عمليات مكافحة الارهاب التى قام بها الجيش الإسرائيلى مسئولة ايضا عن تحسن الحالة الامنية. فى فبراير ٢٠٠٨ أبلغ الميجور جنرال غادى شامنى وكان فى حينها رئيس القيادة المركزية الإسرائيلية، الرئيس شيمون بيريز «بدون وجود جيش الدفاع الإسرائيلى المكثف فى الضفة الغربية سوف تستولى حماس على مؤسسات واجهزة السلطة الفلسطينية خلال ايام»

(٣٩) أيد هجوم ديمونة ٧٧٪ من الفلسطينيين وهجوم القدس ٨٤٪ «استطلاع الرأى الفلسطينى رقم ٢٧» المركز الفلسطينى للبحوث السياسية والمسحية، ٢٤ مارس ٢٠٠٨

(٤٠) ناحوم برنية «الفرصة الأخيرة» يديعوت احرونوت، ١٩ سبتمبر ٢٠٠٨ «التفاصيل الصادمة للاجتماعات الامنية الفلسطينية الإسرائيلية» Palestine Times ٢٩ سبتمبر ٢٠٠٨. جون ايلمر «وصفة للحرب الاهلية» الجزيرة ٨ فبراير ٢٠١٠.

(٤١) «الخليل: الهجر الإرادى لقوات الامن» بتسيليم Tselem'B ١٠ ديسمبر ٢٠٠٨. ايثان برونر «القوات الإسرائيلية تخلى مستوطنين فى الضفة الغربية» نيويورك تايمز ٤ ديسمبر ٢٠٠٨. «اولمرت يدين مجزرة قام بها المستوطنون» بى بى سى ٧ ديسمبر ٢٠٠٨.

(٤٢) جاريد مالسن Malsin «شهود: الشرطة الإسرائيلية والجنود:متورطون بعمق فى هجمات يقوم بها مستوطنون» وكالة معا الاخبارية، ٧ ديسمبر ٢٠٠٨. تونى كارون وأرون كلاين «شباب المستوطنين الإسرائيليين يرتكبون اعمال شغب فى الخليل» تايم ٥ ديسمبر ٢٠٠٨

(٤٣) روبرت بليتشر Blecher «عملية صب الرصاص فى الضفة الغربية» صحيفة الدراسات الفلسطينية المجلد ٣٨ رقم ٣ (ربيع ٢٠٠٩) ينص تقرير حديث صادر عن مجموعة الازمات الدولية «فى الخليل. خلال حرب غزو. صور مستطرق بالفيديو قائد لواء فلسطينى (من قوات الامن الوطنى) يضرب متعاطف مع حماس اعزل بالعصا. انظر «تربيع الدائرة: اصلاح الامن الفلسطينى تحت الاحتلال»

(٤٤) اللفتنانت جنرال كيث دايتون «السلام من خلال الامن: دور امريكا فى تطوير اجهزة الامن التابعة للسلطة الفلسطينية» برنامج ندوة سوريف Soref Symposium خطاب مايكل شتاين حول سياسة الشرق الاوسط الامريكية، معهد واشنطن لسياسات الشرق الادنى، ٧ مايو ٢٠٠٩

(٤٥) ميكايلى «ليبرمان: اشارات إسرائيل للفلسطينيين تجابه بلطمات على الوجه»

(٤٦) دايتون «السلام من خلال الامن: دور امريكا فى تطوير اجهزة الامن التابعة للسلطة الفلسطينية «

(٤٧) محمد نجيب «السلطة الفلسطينية تسعى إلى تغيير التدريب الامنى « جينز ديفينس ويكلى ٥ اغسطس ٢٠٠٩ و «السلطة الفلسطينية تنوى الخروج من برنامج التدريب الامريكى» نفس المصدر ١٧ مارس ٢٠١٠

(٤٨) «استطلاع الرأى الفلسطينى رقم ٣١» المركز الفلسطينى للسياسة وابحاث المسح، ٢٢ ديسمبر ٢٠٠٨. «تظاهرات حمساوية هائلة تدين اطلاق النار على البيتاوى كمحاولة اغتيال» وكالة اخبار معا، ١٩ ابريل ٢٠٠٩

فى الشتاء والربيع الماضيين، استعدت السلطة الفلسطينية لانتخابات المجالس المحلية فى يوليو والتى أعلنت حماس نيتها مقاطعتها

"الطـــــريـق المصــــــرى إلى القـــدس"

محيـى الــديـن عـمـيـمـور

■■ بعد قراءة أكثر من ثمانين صفحة من كتاب الأستاذ محمد حسنين هيكل «كلام فى السياسة» استعرض فيها بعض معطيات الكتاب الذى أصدره الأستاذ الجامعى ووزير الدولة السابق والأمين العام الأسبق لمنظمة الأمم المتحدة، الدكتور بطرس بطرس غالى: «طريق مصر إلى القدس»، قررت أن أقرأ الكتاب واستنتج بنفسى الخطأ والصواب من كتاب المثقف الذى كان أحد كبار مهندسى الاتفاق المنفرد بين مصر وإسرائيل، والذى أراه بداية البداية لكل ما عرفته المنطقة حتى نهاية العشرية الأولى من القرن الميلادى الجديد.

والكتاب يتميز بنزاهة الأستاذ الجامعى، الذى يستعرض الوقائع كما عاشها ويُثمن الرجال كما عرفهم، ولا يحاول، بأى حال من الأحوال، أن يكون غير ما هو بالفعل، ولا يبالى بما يمكن أن يفلت منه من أحكام أو إفضاءات، حتى ولو كان يمكن أن تسىء له بإظهاره كمن يعانى من عقدة معينة، ويلاحظ القارئ هذا عند كل إشارة من الكاتب لأسرته العريقة، أو لتعامل زملائه معه.

وأتصور أن هذه النزاهة هى من أهم ما يُذكر للكتاب، الذى رأيت أن أستعرض صفحاته لذلك السبب على وجه التحديد بأسلوب انتقائى غير مألوف، يعتمد على اختيار فقرات كاملة (وأقول فقرات كاملة لا تعانى من بتر تعسفى أو حذف يُخل بمعناها) وهكذا أتمكن من رسم رؤية الكاتب، بقلمه وبتعبيراته نفسها، وبالطبع مع الحرص الكامل على ألاّ تُبتر سطور عن سياقها الطبيعى بما يمكن أن يُشوه مضمونها، وهكذا مارست ما يسمى فى المدارس الابتدائية عملية «قص ولصق».

ولتسهيل الأمر على الباحثين سأشير بانتظام إلى أرقام الصفحات، وسأشير إلى أمكنة الحذف والاقتباس(..) وسأتفادى، بقدر طاقتى على التزام الصمت، كل محاولة للتعليق على الفقرات التى سأختارها لأننى لا أريد أن أتدخل فى الحكم النهائى للقارئ، لكننى سأشير بعلامتى استفهام أضعها بين قوسين لفقرات أتصور أنها تستحق لفت الانتباه، وقد تكون لى وقفات سريعة لتسجيل ملاحظة أراها هامة لعلم القارئ. وسأحتفظ لنفسى بحق التعقيب النهائى بعد إكمال هذه الدراسة المرهقة التى أقوم بها للمرة الأولى فى حياتى.

البــــدايــة

قبل الدخول فى صلب الموضوع أسجل انطباعى بأن أسلوب التعبير فى الكتاب قد يوحى بأن تفكير الكاتب عند صياغته لم يكن دائما باللغة العربية.

وهكذا، وتحت عنوان «السادات يختارنى» كتب الدكتور غالى يقول:

«بدأ يوم الثلاثاء ٢٥ أكتوبر ١٩٧٧ كأى يوم عادى فى حياتى الجامعية (..) فى عصر ذلك اليوم زرت معرضا للوحات الزيتية أقامته فنانة أمريكية فى المكتبة الأمريكية بغاردن سيتى، وكان ابن شقيقى قد ألح على بقوة فى أن أفعل ذلك، إذ أن الفنانة هى زوجة الأستاذ المشرف على رسالته للدكتوراه فى الاقتصاد بمعهد ماساشوشتس للتكنولوجيا (؟؟) وبعد ذلك توجهت إلى مطار القاهرة الدولى لمقابلة زوجتى، التى كانت عائدة من إيطاليا عندما دخلت مبنى المطار لمحتنى من بعيد هدايات عبد النبى الصحفية بالأهرام، فركضت نحوى منفعلة وهى تقول: إن رئاسة الجمهورية كانت تبحث عنك فى كل مكان. أين كنت؟ ألف مبروك يا دكتور على الوزارة.

وبمجرد أن وصلت زوجتى، ليا، ورأت التعبير الذى علا وجهى، سألتنى ماذا حدث لى فأجبتها أنى مهدد بمصيبة يمكن أن تقلب حياتها وحياتى رأسا على عقب (..) وقررت أن أتجه على الفور إلى رئاسة مجلس الوزراء لإنهاء الموضوع وشرح أسبابى فى الرفض لرئيس الوزراء.

دخلت المجلس القائم فى قصر الدوبارة، الذى كان من قبل قصر الأميرة شويكار أولى زوجات الملك فؤاد والمسؤولة عن التنظيم البديع لحفلات الملك فاروق (؟؟) وكانت الأميرة صديقة حميمة لأمى التى كانت مخلصة فى ولائها للأسرة المالكة، وقد سبق لى فى صباى أن سعدت بحضور حفلات فى ذلك القصر على شرف الملك فاروق.

كانت الساعة الحادية عشرة مساء عندما استقبلنى ممدوح سالم رئيس الوزراء (..) وممدوح سالم رجل طويل القامة ذو شخصية مؤثرة، معروف بالأمانة وضبط النفس وقلة الكلام واختيار الكلمات بعناية. وهى مجموعة صفات يندر وجودها فى العالم العربى(؟؟)

وظهرت مشاعرى الحقيقية عندما أبديت له العقبات العديدة التى تحول دون هذا التعيين. قلت: كيف يمكن أن أقبل هذا المنصب؟ إن جميع القوانين الاشتراكية قد طُبّقت علىّ(..) إن ثروة زوجتى قد وضعت تحت الحراسة، والحارس الحكومى يدفع لها مرتبا شهريا ضئيلا، وقد تعرض أفراد عائلتى لمعاملة مماثلة، وعلى ذلك نحن لا نتمتع بسمعة طيبة لدى من قاموا بالثورة (..) إن قوانينكم جعلتنى عدوا للشعب (؟؟).

كان صبر ممدوح سالم قد بدأ ينفد (..) فقال «الوقت قد تأخر يا دكتور. ويجب أن تستعد فكريا للمنصب الجديد.والمرسوم الجمهورى بتشكيل الوزارة، وأنت عضو فيها، أذيع بالفعل» السادات فى سعيه لتوثيق العلاقات مع الغرب لم يكن لديه اعتراض على استخدام شخصيات ينظر لها على أنها موالية للغرب، حتى إذا كانت تنتمى إلى «النظام القديم».

فى يوم الأربعاء ٢٦ أكتوبر ١٩٧٧ توجهت إلى قصر عابدين لأداء اليمين (..) وانتابنى الانفعال والخوف من ألاّ أتمكن من ترديد القسم بلا خطأ (..) خلعت نظارتى وتلوت اليمين متمهلا وعدت إلى مكانى. وفجأة انتشر شعور بالمرح، وشرع زملائى الوزراء فى تهنئة بعضهم بعضا، واجتمعنا فوق السلم العريض لالتقاط الصورة التقليدية.

وكان الزملاء الجدد يقومون بمناورات إستراتيجية مدروسة لشغل موقع ظاهر فى الصورة، وبسبب عدم انتباهى وجدت نفسى فى بقعة متواضعة فى الصف الأخير.(؟؟) 1sdfootnote1sym

فى مصر، ومن العصور الفرعونية حتى اليوم، ما زالت التقاليد تمجد الحاكم، فالمرء إمّا أن يكون من الحكام أو لا يكون شيئا، ولذا فإن أعلى منصب يطمع فيه المرء هو خدمة الحاكم.

فى الصباح التالى قمت بزيارة رسمية للبطريرك قداسة الأنبا شنودة رئيس الكنيسة المسيحية القبطية. وكانت الكاتدرائية القبطية الجديدة قد بنيت ملاصقة للكنيسة البطرسية التى أقيمت إحياء لذكرى جدى بطرس غالى رئيس الوزراء (..) وقد كانت الكنيسة القبطية فى وقت من الأوقات من كبار ملاك الأراضى فى مصر وتتمتع بثراء كبير. ولكن بعد الثورة تضاءلت ممتلكاتها بسبب قوانين الإصلاح الزراعى المتعاقبة».

وقفة سريعة: اغتال وطنى مصرى مسلم اسمه الوردانى بطرس غالى الكبير، جد مؤلف الكتاب الذى أصبح يصر على الانتساب للجد، وربما كنوع من العناد أكثر من كونه موقفا سياسيا.

«وقضيت الأيام التالية فى زيارة زملائى للاستفسار عن واجباتى، وقام أحد الموظفين بتوجيهى إلى الغرفة المخصصة لى، وهمس بأنى تأخرت فى اختيار أحسن غرفة لنفسى، وقال إن وزير الدولة الآخر، الدكتور نعيم أبو طالب، حضر مبكرا ذلك الصباح واختار أوسع الغرف وأجملها، وحاولت إقناعه بأنى

إذا تضمنت كلمة الرئيس السادات فى الكنيست أية إشارة إلى منظمة التحرير الفلسطينية فذلك لن يجعل من السهل سيادة الجو الجديد من المصالحة الذى نريد تشجيعه

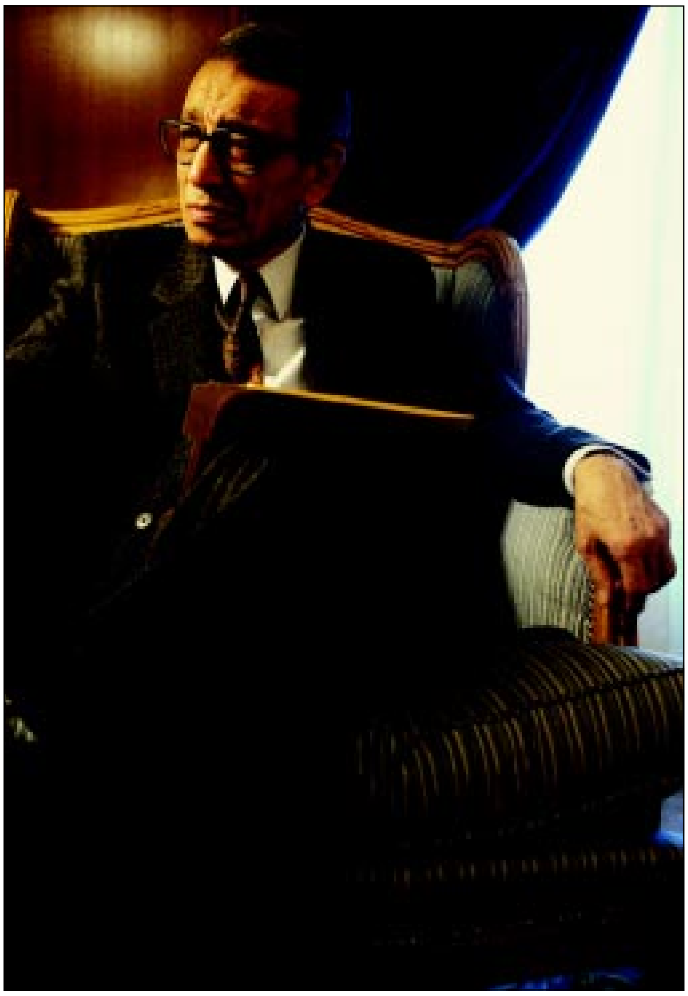

مهتم بالعمل الذى سأؤديه ولست مهتما بنوع الغرفة التى أشغلها. ولم يأخذ كلامى على محمل الجد.

بنهاية ذلك اليوم بات واضحا لى أن وزير الدولة هو وزير بلا وزارة، وأن عليه أن يُكافح حتى يجد ما يعمله (..) وبذلك تأكدت مخاوفى.(..) نحن وزراء الدولة الثلاثة ليست لنا مهام محددة، ولم يكن هناك مل يبرر تعييننا فى تلك المناصب.

كان اهتمامى الأول أن أذهب صباح كل يوم لمتابعة تجهيز مكتبى، وكان وكيل الوزارة لشؤون المشتريات يستقبلنى كل يوم قائلا: ألف مبروك، تمّ طلاء الجدران.... ألف مبروك، تمّ تركيب الستائر.... ألف مبروك، تم تركيب التليفون.... ألف مبروك...

وفى عصر يوم الأربعاء ٩ نوفمبر ذهبت إلى قاعة مجلس الشعب وجلست مع زملائى ننتظر حضور الرئيس السادات الذى كان متوقعا أن يُلقى خطابا بالغ الأهمية. وكان ياسر عرفات حاضرا ويجلس فى المقدمة (..) وأثناء إلقاء الرئيس السادات خطابه قال «إننى على استعداد حتى للذهاب إلى آخر نقطة فى العالم سعيا إلى السلام العادل (..) بل إننى على استعداد حتى للذهاب إلى الكنيست الإسرائيلى لأننا لا نخشى السلام، ولأننا أيضا لا نخشى المجابهة مع إسرائيل» (..) وكان الرئيس عرفات أول من انفجر بالتصفيق لهذه الكلمات.

ولم يكن عرفات ولا زملائى ولا أنا قد فهمنا تداعيات ما قاله الرئيس.

وفى يوم الأربعاء ١٦ نوفمبر أصبح مكتبى الجديد جاهزا لشغله أخيرا، وتلقيت مكالمة تليفونية تطلب منى التوجه لمقابلة رئيس الوزراء، وبطريقة غريبة وبها شىء من التباهى (؟؟) طلب منّى ممدوح سالم أن أذهب على الفور إلى قصر العروبة، مقر نائب الرئيس حسنى مبارك فى مصر الجديدة (..) ودخلت أحد الصالونات إلى يمين المدخل، وبعد دقائق قليلة دخل مبارك مبتسما ودودا، وقال «الرئيس السادات معجب بكتاباتك السياسية والفكرية، ويعرف اتصالاتك بالدوائر الدولية، ولذا قرر أن يُكلفك بعمل هام وسرى، فهو يطلب منك إعداد الخطوط العامة لكلمة يلقيها يوم الأحد المقبل. فى إسرائيل. كلمة يلقيها رئيس مصر أمام الكنيست الإسرائيلى». وكانت دهشتى مزدوجة، فلأول مرة أعرف أن الرئيس السادات يعتزم فعلا الذهاب إلى إسرائيل.

قبل ذلك بأيام قليلة، عندما كنت أحاول أن أعثر على مكتبى الوزارى وأُنظّمه، كان واحد من الأمريكيين اليهود الذين يُمثّلون حركة «السلام الآن» قد جاء يسألنى ما إذا كنت أستطيع أن أقنع السادات بأن يبعث برسالة تحية إلى مؤتمر «السلام الآن» الذى سيُعقد فى القدس برئاسة بيير منديس فرانس رئيس وزراء فرنسا الأسبق. وقلت لمحدثى «لا بدّ أنك لست فى وعيك. لا يمكن أن يُوافق السادات على شىء كهذا» ومع ذلك بعثت بتلكس إلى الرئاسة بشأن هذا الطلب، وبعد ثلاث ساعات تلقيت برقية من السادات نصها: «أوافق. قُم بإعداد نَصّ الكلمة» (..) وعلى الرغم من هذه البادرة من جانب السادات، لم أدرك ما كان يُفكّر فيه.

أمّا الإسرائيليون فقد رأوا فى تلك البرقية أول طيور الربيع. وقد اكتشفت فيما بعد أن يدا قد أزالت تلك الكلمة من الأرشيف، والأرجح أن ذلك بسبب قيمتها التاريخية (؟؟)

فى يوم الجمعة ١٨ نوفمبر ١٩٧٧ (..) عندما دق جرس التليفون، كان المتحدث مكتب مبارك يبلغنى أن نص الخطاب مطلوب على الفور (..) دق جرس التليفون ثانية، كان مكتب مبارك أيضا، بدأت أعتذر عن التأخير ولكنه قاطعنى قائلا: إنى لم أطلبك بشأن الخطاب، هناك مسألة أخرى مهمة، فقد صدر قرار جمهورى بتعيينك فى منصب وزير دولة للشؤون الخارجية، وقائما بأعمال وزير الخارجية، وبهذه الصفة ستنضم إلى الوفد المصاحب للرئيس فى زيارته لإسرائيل غدا، السبت. (..)

كان المعروف أن إسماعيل فهمى ومحمد رياض، اللذين كان أولهما وزيرا للخارجية وثانيهما وزيرا للدولة للشؤون الخارجية، قد آثرا الاستقالة على مرافقة الرئيس إلى القدس (..) وكانت الصحف العربية تكتب عبارات مسمومة، كانت تقول ليس هناك مسلم يقبل مصاحبة الرئيس، ولذا اختار المسيحى بطرس غالى المتزوج من يهودية.(..) وغمرت الأضواء سلم الطائرة المصرية التى كانت قد هبطت فى المطار الإسرائيلىّ (..) انتهت مراسيم الاستقبال الرسمى على عجل، وفى سيارة تنطلق إلى القدس جلس إلى يسارى موشى دايان وزير خارجية إسرائيل (..) قال إنه يريد منى أن أنقل رسالة إلى الرئيس السادات، وكانت كالتالى: إذا تضمنت كلمته فى الكنيست أية إشارة إلى منظمة التحرير الفلسطينية فذلك لن يجعل من السهل سيادة الجو الجديد من المصالحة الذى نريد تشجيعه.

استيقظنا فى الفجر. ذهبنا إلى المسجد الأقصى حيث صلّى الرئيس ومرافقوه، وقفت على مقربة منهم بينما كان المصلون ينحنون ويركعون (؟؟) أمام عظمة العلىّ القدير (..) كنت على وشك البكاء، وللتغلب على ذلك، أرغمت نفسى على التفكير فى الحذاء الذى تركته خارج المسجد، وما يمكن أن يحدث إذا لم أجده فى الكومة الكبيرة الموجودة هناك (؟؟) بعد ذلك ذهبنا إلى كنيسة القيامة (..) وألقى المطران خطبة نارية هاجم فيها الاحتلال والممارسات الإسرائيلية (..) واستمع الرئيس السادات إلى المطران بلا انفعال (..) ثم بدأ الرئيس السادات خطابه التاريخى. وكنت حتى تلك اللحظة أتصور أنه سيلقى الخطاب الذى أعددت مسودته. لكن الخطاب البديع الذى ألقاه كان مختلفا تماما (..) وأدى الخطاب الذى ألقاه السادات إلى خيبة أمل المستمعين. (وخلال جلسة جمعت الوفدين) بدأ وايزمان الحديث فتكلم عن ذكرياته عن القاهرة التى عرفها عندما كان طيارا فى سلاح الطيران الملكى البريطانى فى الحرب العالمية الثانية، وأجبته بأن قاهرة الأربعينيات ليست هى قاهرة السبعينيات، وأن القاهرة التى عرفها وايزمان كانت مدينة أوروبية أنيقة، أمّا الآن فقد أصبحت عاصمة آسيوية مزدحمة.

ركبت مرة أخرى سيارة موشى ديان فى طريقنا إلى المطار فى بداية رحلة العودة، وحاولت أن أقنعه بأن الدبلوماسية المصرية تهدف

إلى إبرام سلام شامل (..) أجاب ديان ساخرا: كيف تتمكنون من التفاوض باسم الفلسطينيين والسوريين إذا كانوا يرفضون مبدأ التفاوض؟.

أجبت بأن مهمة مصر هى إقناع الأطراف العربية بضرورة التفاوض.

بعد ذلك جاءت مفاجأة أخرى من جانب الرئيس السادات، فقد أعلن فى مجلس الشعب أنه يدعو إلى عقد اجتماع غير رسمى فى القاهرة تمهيدا للعودة إلى مؤتمر جنيف، وقال إنه يريد أن يدعو إلى القاهرة: إسرائيل والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وسوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية.

وكان مؤتمر جنيف المعنى بالشرق الأوسط قد عُقد فى ٢١ ديسمبر ١٩٧٣(..) لم يكن الرئيس السادات معارضا لمؤتمر جنيف المنعقد برئاسة مشتركة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى (..) وعندما طلب منى أن أعد لمؤتمر غير رسمى تمهيدا لجنيف، هل كان فى الواقع يُخفى عزمه على التفاوض الثنائى مع إسرائيل وتجاهل العرب؟(..) ثم التقيت بالدكتور الدجانى(..) وسلمته الدعوة الموجهة إلى المنظمة للاشتراك فى مؤتمر القاهرة التمهيدى (..) وقد استخدمتُ هذه الرسالة منذ ذلك الحين كثيرا لأثبت للفلسطينيين أنهم ضيعوا فرصة الحديث المباشر مع إسرائيل (..) ولكنى عندما أراجع الأحداث الآن أجد أنه لا بد من أعترف (..) بأن المحادثات التى اقترحناها فى مينا هاوس كانت سابقة لأوانها.2 sdfootnote2sym

وبينما كان مؤتمر القاهرة معرضا لكل هذا الهجوم كان البيروقراطيون (؟؟) فى الحكومة المصرية، ومن بينهم بعض الوزراء الذين لا ترتبط مسؤولياتهم بأى شكل بالموضوع، يحاولون إقحام أنفسهم فى كل التفاصيل المتعلقة بالمؤتمر.

فى عصر يوم ٦ ديسمبر عقدت ثانى مؤتمراتى الصحفية، وكان الغرض منه أن أشرح أسباب اتخاذ مصر لقرار قطع العلاقات الدبلوماسية مع الجزائر وسوريا وليبيا واليمن الجنوبى.

كان الرئيس السادات، دون التشاور مع أحد (؟؟) قد قرر قطع علاقاتنا مع كل من عارضوا مبادرته (..) اتصل بى رئيس الوزراء ليبلغنى أنه قرر إغلاق قنصليات الاتحاد السوفيتى فى بور سعيد وأسوان والإسكندرية (..) وقال لى أن الرئيس السادات عقد العزم على الردّ بشدّة على كل من أدانوا مبادرته، وكانت تلك فى رأيى ذريعة، إذ أن السادات كان يكره السوفييت.

فى يوم السبت ١٠ديسمبر توجهت فى الصباح الباكر إلى فندق هيلتون النيل لأصحب سيروس فانس، وزير خارجية الأمم المتحدة، إلى القناطر الخيرية للقاء الرئيس، ركبنا سيارة مصفحة. وكان معنا هيرمان أيلتس الذى أطلع فانس أثناء الطريق على حجم المعارضة العربية للسادات، ولا سيما بين الشيوعيين والأصوليين الإسلاميين.(؟؟)

اجتمع الرئيس السادات مع الوزير فانس وحدهما، ثم دعينا إلى الاشتراك معهما.

من الجانب المصرى كان هناك حسنى مبارك وممدوح سالم والفريق عبد الغنى الغَمْسى (..) أما القضايا الحقيقية فكانت تناقش بين الرجلين وحدهما وجها لوجه (؟؟) وأبلغ فانس بعد ذلك زملاءه بما قيل وراء الأبواب المغلقة، أما نحن فكلما سألنا السادات قال إنه لا يتذكر، ولم أعرف إلا فيما بعد أن الأمريكيين اعتبروا ذلك الاجتماع من الاجتماعات المهمة لأن السادات أقنعهم بأن على استعداد للسير فى طريقه ولو منفردا.

وفى يوم الأحد ١١ ديسمبر اجتمعت بلجان الشؤون العربية وشؤون الخارجية والدفاع فى مجلس الشعب، ورأس الاجتماع الدكتور جمال العطيفى، وهو محام من أعضاء الحزب ذوى الطموح السياسى، وكنّا قد مررنا معا بأوقات صعبة فى ظل نظام عبد الناصر.

(..) أجبت وأنا أنتقى كلماتى بعناية أن أول دعوة وجهت لحضور مؤتمر القاهرة أرسلت إلى السيد ياسر عرفات، وأكدتُ اعتراف مصر بمنظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها الممثل الشرعى للشعب الفلسطينى، ولكن تحسبا للمستقبل تجنبت استعمال تعبير «الممثل الوحيد» (..) فإذا استمرت مبادرة السادات قد تجد مصر نفسها عند نقطة معينة أن عليها أن تتفاوض باسم الفلسطينيين بموافقة الفلسطينيين من خارج المنظمة (؟؟).

يوم السبت ٢٤ ديسمبر طلب منى الرئيس السادات أن أقابله فى الإسماعيلية، وهى فى منتصف قناة السويس، حيث كان سيقابل رئيس الوزراء مناحم بيغين(..) جلسنا حول مائدة طويلة (..) ثم تلوت مشروع إعلان مشترك يصدر بعد اجتماع الرئيس مع بيغين، عندما انتهى الاجتماع سألت ممدوح سالم عمن يكون وزير الخارجية الجديد (..)

عدت إلى القاهرة وإلى بيتى حيث وجدت صديقا انتقدنى بقسوة وسألنى «كيف يمكن أن تقبل العمل تحت رئاسة محمد إبراهيم كامل؟ (..) كيف تسكت على هذا الإذلال؟».

فى عصر ذلك اليوم بعد عودتى إلى القاهرة حضرت اجتماع مجلس الوزراء، وأعلن رئيس الوزراء أن مؤتمر الإسماعيلية الذى سيعقد فى اليوم التالى بين الرئيس السادات ورئيس الوزراء بيغين سيؤدى إلى اتفاق على أهم أسس السلام، ووجدت من واجبى، من باب الأمانة الفكرية والسياسية، أن أعلق على ذلك، فطلبت الكلمة وقلت إن مفاوضات السلام تستغرق وقتا طويلا (..) وأن محادثات الإسماعيلية ستقوض مبدأ الوحدة العربية وتضحى بمصالح الفلسطينيين.

لم يلق ما قلته قبولا لدى رئيس الوزراء ممدوح سالم.

كان الرئيس السادات،
دون التشاور مع أحد (؟؟) قد قرر قطع علاقاتنا
مع كل من عارضوا مبادرته

السادات ليس له صبر
على التفاصيل، وهو يُفضّل أن يترك القرار
فيها لمساعديه

فى الإسماعيلية (..) بعد نصف ساعة خرج بيغين والسادات لكى ينضمّا إلينا، وبدا رئيس الوزراء الإسرائيلى سعيدا ومستريحا، وأقلقنى ذلك، ولم ألبث أن عرفت أن بيغين حصل على موافقة السادات على تشكيل لجنتين على المستوى الثنائى، إحداهما عسكرية والثانية سياسية.

وما أن علمتُ بهذا الاتفاق «عصابة» وزارة الخارجية، كما كان الإسرائيليون يسموننا، حتى سعينا إلى تغيير تشكيل اللجنتين بحيث تصبحان شاملتين بدلا من أن تُعقدا على المستوى الثنائى حيث تكون مصر فى وضع أضعف (..) نجحنا فى تحويل اللجنة السياسية إلى هيئة رباعية تشمل أيضا الأمم المتحدة والولايات المتحدة، لكن اللجنة العسكرية ظلت ثُنائية (..) ولكن جهودنا تعرضت للفشل مرة أخرى لأن العرب رفضوا مبادرة السادات، ولأن الإسرائيليين ظلوا يضغطون علينا من أجل صلح منفرد مع مصر يُستبعد منه الفلسطينيون. (؟؟)

(..) بدا لى أنه ليس ثمة شك فى أن اجتماع الإسماعيلية قد فشل، فقد اتسم بالارتجال وبعدم تنظيم المفاوضات، وكنّا قد أعددنا دراسات ومذكرات وملخصات وأبحاثا، لكنها لم تُقرأ ولم تستخدم. غلبنى شعور بالفشل والاكتئاب. وكشف لى اجتماع الإسماعيلية جوانب متعددة من شخصية السادات (..) السادات ليس له صبر على التفاصيل، وهو يُفضّل أن يترك القرار فيها لمساعديه، مما يسمح له أن يتخطاهم أو يُغيّر ما اتفقوا عليه فى اللحظة الأخيرة (..) الهدف الوحيد للسادات هو استعادة الأراضى المصرية

(..) السادات استخلص أن مصر لا تستطيع أن تبذل جهدا أساسيا لكسب الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى ما دامت هناك أرض مصرية تحت الاحتلال الإسرائيلى، وعلى النقيض من ذلك كنت على يقين من أنه لا يمكن لأى معاهدة للسلام أن تدوم إلا إذا تضمنت تدابير لحقوق الفلسطينيين، حدها الأدنى تقرير المصير (..) السادات لا يتمسك بمؤتمر جنيف، ومن الواضح أن مؤتمر مينا هاوس ليس فى رأيه تحضيرا للعودة إلى جنيف بل تمهيدا لمفاوضات مباشرة بعيدة عن الهيكل الشامل الذى يضم جميع الأطراف المتمثل فى مؤتمر جنيف.

وقد بات واضحا أن هدف إسرائيل هو عقد صلح منفرد مع مصر (..) ولم يلبث بيغين أيضا أن أدرك أن أسلوب السادات فى التفاوض يتيح لإسرائيل الفرصة لإثارة الخلافات بينه وبين مساعديه (..) وأخيرا كانت إسرائيل عاقدة العزم على

Egyptian President Anwar al-Sadat (c) surrounded by (l-r) Aliza Begin, Rosalyn Carter, Israeli Premier Menachem Begin, US President Jimmy Carter, Israeli Foreign minister Moshe Dayan and Israeli Defence minister Ezer Weizman as they walk10 September 1978 in Gettysburg during the Camp David Israeli-Egyptian peace negotiations. Boutros Boutros-Ghali, minister of state in Egypt's foreign ministry is standing between Sadat and Dayan and Elyahu Rubinstein, an Israeli advisor, is standing between Dayan and Weizman

التوصل إلى اتفاق حول النتائج العملية لاتفاق السلام (..) إذ كان المفاوضون الإسرائيليون يريدون حرمان المفاوضين المصريين من أهم ورقة فى أيديهم (..) وكان موقف المفاوض المصرى ضعيفا، وأسلوبنا فى التفاوض يزيد من هذا الضعف. وكان موقف إسرائيل فى التفاوض قويا، والمفاوضون الإسرائيليون يتحركون وفقا لخطة مدروسة من أجل تحقيق أهداف واضحة تتعلق بكل من الأمد المتوسط والطويل.

وفى ٢٧ ديسمبر حضرت مأدبة العشاء التى أقامها الرئيس السادات فى قصر عابدين تكريما لهيلموت شميت مستشار ألمانيا الاتحادية، وكان الطعام سيئا، غير لائق برئيس دولة أو حتى بمطعم من الدرجة الثانية.(..)

فى أوائل يناير ١٩٧٨ سافرت مع محمد إبراهيم كامل إلى أسوان (..) وأدهشنى أن أعرف أنه خلال عمله الدبلوماسى الطويل لم يقم بزيارة بلد عربى آخر، وأن معرفته بالعالم العربى والقضية الفلسطينية لا ترتبط كثيرا بالواقع، وأدت بى محادثاتنا إلى توقع صعوبات جديدة داخل الوفد المصرى.

وفى وقت مبكر من صباح الأربعاء ٤ يناير كنا فى مطار أسوان ننتظر وصول الرئيس جيمى كارتر (..) وقبل إقلاع الطائرة أصدر الرئيس الأمريكى بيانا يعلن فيه لأول مرة اعتراف الولايات المتحدة بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى وحقه فى المشاركة فى المفاوضات التى تقرر مصيره.

وكان ذلك إعلانا مهما ناقشته مع موسى صبرى (..) وهو صحفى غزير الإنتاج، يتصف بالأمانة والشجاعة، وهما أمران نادرا ما يجتمعان فى العالم العربى (؟؟) (..) واتفقنا هو وأنا على أننا يجب أن نسعى لتوجيه انتباه الصحافة إلى أن الولايات المتحدة تدعو الآن إلى مشاركة الفلسطينيين، وليس مجرد الحديث عن «مستقبلهم».

وبعد ذلك بأسبوع ذهبت مرة أخرى إلى أسوان لأكون من بين مستقبلى صاحب الجلالة محمد رضا بهلوى شاه إيران (..) كان كل من السادات والشاه فى ذروة قوتهما، وبدا واضحا أنهما إذا أقاما تحالفا فسوف يسيطران على الشرق الأوسط بكامله، باعتبارهما الدولتين العظميين فى المنطقة (..) ففى حرب أكتوبر ١٩٧٣ كان الشاه وحده هو الذى حافظ على استمرار تدفق النفط إلى مصر (؟؟)3 sdfootnote3sym

فى يوم الثلاثاء ١٧ يناير بدأ عمل اللجنة السياسية (فى القدس) بمشاركة سايروس فانس (..) فى المساء أقام بيغين حفل عشاء فى فندق هيلتون (..) وبعد العشاء ألقى كلمة طويلة هاجم فيها الموقف المصرى، وخاطب وزير الخارجية بلهجة التعالى واصفا إياه بأنه «صديقى الشاب» (..) ولم تكن عباراته ودية بل جارحة، وأغضبت الكلمة محمد كامل الذى نهض على الفور ليعلن أن حفل العشاء ليس هو المكان المناسب لإجراء مناقشات سياسية (..) ثم جلس ورفض أن يخاطب أيا من الجالسين بجواره، وعندما عرض بيغين نخبا رفض المشاركة (..) وتلاشت الحماسة للتفاوض مع الإسرائيليين (..) وصلنا إلى القاهرة قرب الفجر، مرهقين ومستائين لفشل المهمة. (..) غادرت القاهرة فى ٢٨ يناير متجها إلى يوغوسلافيا (..) كان القائم بالأعمال المصرى (؟؟) فى بلغراد من تلاميذى السابقين (..) وأطلعنى على صورة من الخطاب الذى وجهه تيتو إلى السادات بتاريخ ٢٤ يناير والذى كان سببا فى رحلتى إلى بلغراد، وكنت لا أصدق أن يتم إرسالى إلى بلغراد دون أن أطلع فى أى وقت على ذلك الخطاب، فوزارة الخارجية لم تتلق منه نسخة من رئاسة الجمهورية».

وقفة سريعة:لم يقل الدكتور كيف وصلت صورة الخطاب إلى القائم بالأعمال، بدون المرور بالخارجية ولماذا هو مجرد قائم بالأعمال وليس سفيرا فى بلد بحجم يوغوسلافيا.

«كان خطاب الرئيس تيتو شرحا مطولا لاقتناعه بأن إسرائيل ليست على استعداد لإبرام اتفاق للسلام مع الدول العربية، لأنها لا تعترف بالشعب الفلسطينى وبحقه فى تقرير المصير.

وقال تيتو أن مبادرة الرئيس ستؤدى فى النهاية إلى وضع فى غاية الخطورة وهو التمزق الداخلى للعالم العربى (..) ودعا

الرئيس السادات للعودة إلى التضامن العربى، وقال إن زعماء العرب الآخرين يرغبون فى عودة مصر إلى دورها القيادى فى الجبهة العربية المشتركة.(..) وأخذونى إلى قصر الرئيس تيتو (..) وبعد لحظات دخل كلبان صغيران يتبعهما الرئيس (..) عندما فرغت من عرضى بدأ تيتو يتحدث على مهل (..) تحدث عن شكه فى أن إسرائيل ستنسحب من شبه جزيرة سيناء بكاملها، وقال إن إسرائيل ستضغط على مصر للحصول على المزيد من التنازلات (..) فإسرائيل تعتمد على تفوقها العسكرى، وهى تعرف أن الولايات المتحدة تفتقر إلى الإرادة اللازمة لممارسة ضغط فعال عليها (..) بينما كان تيتو يتحدث عن التوازن بين الدولتين العظميين كان أكثر ما لفت نظرى أن حديثه حافل بالتعبيرات الماركسية الأصيلة (..) وقلت إنه لا يمكن أن يكون هناك شك بشأن صلابة الموقف المصرى فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية وحقوق الشعب الفلسطينى (..)

وتذكرت رأى صديق جزائرى كان قد قال لى: «أنا لا أفهم لماذا لا تهتمون أنتم فى مصر بالإيديولوجية (..) إن الإيديولوجية بالنسبة للبلدان التى تفتقر إلى القوة الاقتصادية أو التكنولوجية أو العسكرية هى بديل للقوة، فالإيديولوجية تقدم تفسيرا لتخلفها، وهى أداة فى علاقاتها الدولية، وعون لها فى السياسة العالمية، وحلم بالنسبة للمستقبل، وبدون حلم كهذا تكون حياة الفقراء غير محتملة4 sdfootnote4sym.

فى اليوم التالى قابلت وزير خارجية يوغوسلافيا ميلوس مينيك. قال لى أنه قرأ النص الحرفى للقائى بالرئيس تيتو. وانتقل ذهنى على الفور إلى أن تسجيلات مقابلات الرئيس السادات تصل إلى الوزارة المعنية بعد أسبوع على الأقل أو عشرة أيام، هذا إذا وصلت أصلا. وأغضبنى أن عدم كفاءة النظام المصرى تجعلنى فى وضع أضعف من نظرائى».

وقفة سريعة: لا أتصور أن هذا التعليق، وهناك غيره، كان ضروريا فى صلب هذا الكتاب، لأنه لا يضيف شيئا يرتبط بالقضية التى يطرحها، وهو إساءة مجانية لجهاز ربما كانت له عيوبه ولكن المؤكد أنه يمثل كفاءات هائلة.

«غادرت بلغراد فى المساء مدركا أننى أتحدث فى واد بينما يتحدث اليوغوسلاف فى واد آخر (..) ولم يُعلق السادات بشىء، كان يبدو بعيدا وغير مهتم، وشعرت بأن رحلتى إلى يوغوسلافيا فشلت من ناحيتين، فشلت فى إقناع تيتو، وفشلت فى إقناع السادات بأهمية موقف تيتو. (...)

عندما أدت المعارضة لمبادرة السادات إلى زيادة عزلة مصر فى العالم شرعت فى سلسلة طويلة من الأسفار إلى جنوب آسيا وإفريقيا (..) فى نيودلهى قادونى إلى القصر السابق لنظام حيدر أباد. ذكرنى هذا المبنى بقصر عمّى واصف (؟؟) فى كولومبو قابلت وزير الخارجية الذى قارن بين موقفى كمسيحى فى دولة مسلمة وموقفه كمسلم فى دولة بوذية (..) فى سفارة مصر أصر سفيرنا مصطفى راتب وهو رجل متشدد ذو شخصية صعبة، على أن أستشير مُنَجماً (..) وعندما غادرت جنوب آسيا على متن طائرة «سويس إير» شعرت كأنّى وصلت فعلا إلى سويسرا (..) وأدركت أننى بينما أنتمى بقوة إلى العالم الشرقى والعربى فإن ارتباطى بالثقافة الأوربية لا انفصام له (؟؟).

وفى ٢٤ إبريل استقبلت فى مكتبى غوشو نكومو قائد جبهة التحرير الوطنى فى زمبابوى (كان اسمها روديسيا) وكان وزن نكومو يبلغ نحو ٢٧٠ رطلا، وقد انهار الكرسى الذى جلس عليه تحت وطأة وزنه (..) وكان من شأن البيروقراطية المصرية أن استغرق إصلاح الكرسى ستة أشهر.(..)

وفى اليوم التالى بدأت رحلتى إلى العواصم الإفريقية (..) كنت منذ أمد طويل أناصر قيام اتحاد فيدرالى بين مصر والسودان (..) ولكن بعد سقوط رئيس السودان نميرى فى ١٩٨٩ انقطعت شعرة معاوية، إذ قام نظام أصولى فى الخرطوم، وهذا النظام يمثل خطرا حقيقيا على استقرار كثير من الدول العربية والإفريقية (..) وبعد طيران ساعتين وصلت إلى نيامى عاصمة النيجر (..) وفى يوم الاثنين افتتح الرئيس كونتشى الدورة الجديدة للمؤتمر الوزارى (..) عند خروجى من مبنى المؤتمر كان بصحبتى (؟؟) على التريكى وزير خارجية ليبيا. قال لى (..) إن حكومة ليبيا مستعدة للتعاون مع مصر إذا تخلت عما تفعله من التفاوض المباشر مع إسرائيل (..) قلت إن مصر ليست فى حاجة إلى نصيحة من ليبيا، فمكانة مصر فى العالم قاطبة وفى العالم العربى لا تحتاج إلى توضيح لمن يريدون أن يفهموا، وأعطيت ظهرى للتريكى وتركته واقفا.

قابلت بعد ذلك وزير خارجية المغرب (..) كان كل اهتمامه موجها إلى مسألة الصحراء الغربية، وهى مستعمرة إسبانية بها عدد قليل من السكان يسعون إلى الانضمام إلى المغرب، بينما تسعى مجموعة أخرى من السكان تعيش فى المنفى فى الجزائر إلى الاستقلال (...) وبمجرد عودتى أعددت تقريرا تفصيليا قدمته إلى الرئيس السادات. قلت إن زعماء إفريقيا يُقدرون مبادرته، ولكنهم يريدون إبقاء النزاع العربى بشأن مبادرة السلام بعيدا عن قمة الخرطوم المقبلة.(..) وفى اليوم التالى عُقدت الجولة السادسة لاجتماعات اللجنة الوزارية المعنية بالوحدة بين مصر والسودان (..) وكان الوفد السودانى برئاسة رشيد الطاهر نائب الرئيس (..) وقام الوفد السودانى بتوزيع مجموعة مختارة من الهدايا على أعضاء الوفد المصرى، مثل القمصان الفاخرة والمصنوعات الجلدية، وكانت الألوان رديئة الذوق (؟؟) بحيث أعطيت نصيبى من الهدايا لمن معى من الحراس، وبسبب هذه العادة فى إعطاء الهدايا كان الحراس دائما أكثر منى حرصا على حضور تلك الاجتماعات.

كان مؤتمر الخرطوم محاولة من جانب نميرى لاكتساب مكانة دولية (..) وصل الرئيس السادات فى الساعة الحادية عشرة، وكان معه على نفس الطائرة حسن كامل واللواء حسن التهامى وفوزى عبد الحافظ والدكتور محمد عطية، طبيب السادات وطبيبى أيضا، و «حاشية» كبيرة غير محددة، وفريق كبير للأمن. همس فى أذنى فوزى عبد الحافظ المساعد الشخصى للرئيس بأنه يريد أن يبلغنى برسالة مهمة: «يجب ألاّ تنسى أن تأخذ معك التبغ الذى يحتاجه الرئيس لغليونه عندما تنتهى الجلسة ويغادر قاعة الاجتماع. استمعت إليه بأدب وأدركت أن كيس التبغ والغليون لهما لدى هذا الشخص أهمية تتجاوز بكثير قرارات المؤتمر. كنت أراقب باهتمام تعبيرات وجه الرئيس. كان يبدو غير مهتم بالجلسة، كما لو كان غارقا فى التفكير فى مسائل أخرى.

عندما انتهت الكلمات وغادر الرؤساء القاعة كدت أنسى كيس التبغ والغليون، لكنى تذكرت فى آخر لحظة المهمة التى أوكلت إلىّ، ولكن سكرتير الرئيس انتزع منى بسرعة كيس التبغ والغليون كأنه يتصور أنى لست جديرا بهذه المهمة، ولعله خشى أن أنافسه إذا قمت بالمهمة بمهارة.

(..) عندما انتهى فالدهايم من كلمته وقف السادات وقال إنه سيغادر الجلسة، وطلب منى أن أبقى وأمثله فى غيابه، وأثناء انسحابه (؟؟) من القاعة كان زملائى، بقية أعضاء الوفد الرئاسى، يركضون وراءه، حاولت أن أقنعهم بالبقاء دون جدوى وأوضحت لهم أن المقاعد الخالية للوفد المصرى ستكون صورة سيئة، ولكنهم رفضوا البقاء قائلين: «إنك كفيل بأداء المهمة يا بطرس».

وهكذا وجدت نفسى وحيدا فى الجزء المخصص لمصر. وعندما انتبه الدبلوماسيون الذين يُشكلون الوفد المصاحب لى للموقف المحرج سارعوا إلى قاعة الاجتماع وانضموا إلىّ.

(..) عندما انتهت كلمة سيكوتورى تقدم الرئيس (السادات) إلى المنصة فدافع عن مبادرته ببلاغة وقوبل بتصفيق من وفود المؤتمر (؟؟) ولم يكد الرئيس يرجع إلى مقعده حتى قرر مغادرة

لا يمكن أن يكون هناك شك بشأن صلابة الموقف المصرى فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية وحقوق الشعب الفلسطينى

عندما انتهت كلمة سيكوتورى تقدم الرئيس (السادات) إلى المنصة فدافع عن مبادرته ببلاغة وقوبل بتصفيق من وفود المؤتمر

الجلسة. ومرة أخرى سارعت حاشيته، التى كانت قد عادت إلى الظهور فجأة فى وقت إلقاء كلمته، إلى مغادرة القاعة، ومرة أخرى وجدت نفسى وحيدا فى المقاعد المخصصة للوفد المصرى ومستاء من موقف الحرص على «مرافقة السيد» الذى يتخذونه. (..) وكانت الدول الراديكالية بقيادة بنين ومدغشقر والجزائر تُسيطر على مجرى المناقشات (..) ثم استقبل السادات الرئيس سينى كونتشى رئيس النيجر الذى بدأ الاجتماع بالإشادة بى قائلا: «إن وزير الخارجية المصرى أشبه بكبار الكهنة إنه واحد من حكماء إفريقيا!» وشعرت بعدم الارتياح. واكتفى السادات بالابتسام وهز رأسه (..) بعد مقابلة جوليوس نيريرى رئيس تانزانيا اتجه السادات نحوى وقال: «إن هذا الرجل شبيه بكبار الكهنة، وهو بلا شك واحد من حكماء إفريقيا!!» (..) وبينما كان نميرى والسادات يتبادلان الفكاهات وأجلس بجوارهما صامتا، دخل أحد المساعدين ليقول إن سفير المغرب، أحمد العراقى، يطلب مقابلة عاجلة مع الرئيسين (..) وخرج نميرى مع سفير المغرب، وعند ذلك انتقد السادات سفير المغرب لعدم سيطرته على نفسه، وقال: «إن السفراء الذين يمثلون الملوك مدللون وفاسدون وليسوا قادرين على العمل الجاد فى المؤتمرات الدولية».

(..) كان هناك مرشح واحد لمنصب الأمين العام (..) وأجرى التصويت ولكن كوجو لم يحصل على الأغلبية اللازمة (..) وعند ذلك رأيت أن الدول الراديكالية أرادت أن تبين أنها تسيطر على المنظمة، وأنها، إذا أرادت، تستطيع أن تمنع الأخذ بأى سياسة لا تتفق معها (..) لقد كان هذا الاستقطاب هو أقوى انطباعاتى عن الخرطوم، إذ كان فى قدرة مجموعة راديكالية متماسكة تتحرك بسرعة أن تسيطر على ثلث أعضاء المنظمة، وهم يُشاركون فى كل الاجتماعات، ويسهمون فى مناقشة كل مسألة، ويتدخلون باستمرار، ويظلون جالسين فى مقاعدهم حتى الفجر دون أن يبدو عليهم الملل والتعب، وفى نفس الوقت فإن «الأغلبية الصامتة» من المعتدلين كانت تفتقر إلى الوحدة والالتزام، وتفضل الدردشة أثناء احتساء كوب من البيرة. كانوا نادرا ما يتكلمون فى الجلسات، وعندما يتكلمون تكون حججهم ضعيفة واقتراحاتهم غير موحدة وبياناتهم غير مقنعة».

وقفة سريعة: أمانة الجامعى كانت تفترض التساؤل عن السبب، والذى يتلخص فى أن الوفود التى أسماها راديكالية، ومن بينها الجزائر، كانت تؤمن بما تفعله وتناضل من أجله.

«وفى يوم الأربعاء ٢٦ يوليو ١٩٧٨ أخذت الطائرة إلى بلغراد حيث كان يعقد المؤتمر الوزارى لدول عدم الانحياز (..) وفى يوم السبت ٢٩ يوليو اقتحم أحد الشبان من أعضاء الوفد المصرى منفعلا اجتماعا كنت أحضره ليبلغنى أن ممثل كوبا بدأ يهاجم مصر، استأذنت وتوجهت على الفور إلى الجلسة، وأعطانى رئيس المؤتمر الكلمة تطبيقا لمبدأ حق الرد (..) وبدا أن كلماتى أوقفت الهجوم الكوبى (..) وقد علمت فيما بعد أنها لم تكن كلمتى التى أنقذت الموقف بل الذى أنقذه قرار اتخذه العراق وسوريا وغيرهما من الحكومات العربية بأن الوقت لم يحن بعد لإدانة مصر، وكان توقف المفاوضات المصرية الإسرائيلية قد أعطى هذه الدول أملا فى أن السادات قد يتخلى عن مبادرته ويعود إلى الأحضان العربية. عُدت إلى القاهرة وأبلغت السادات أن الدبلوماسية المصرية تمكنت من احتواء الرافضين. والواقع أن المعركة كانت قد تأجلت فحسب. (وكانت المشاركة فى جنازة البابا) واتصل بى السفير شافعى عبد الحميد سفير مصر فى الفاتيكان بالتليفون. كان مهتما جدا بالملابس الرسمية التى يجب أن أرتديها فى جنازة البابا بولس السادس (..) وقال إنه استأجر لى بدلة «فراك» من روما، وبعد ذلك أصبح الاهتمام الرسمى للسفير هو الأوسمة التى أضعها على صدرى (..) وكان شافعى عبد الحميد يضع على صدره عددا كبيرا من النياشين والميداليات. وقد رحب أحد القساوسة الذين حضروا الجنازة بالسفير على أنه هو وزير خارجية مصر، وشعر عبد الحميد بالحرج وأشار إلىّ (..) وعرض علىّ السفير أن يُقرضنى بعض أوسمته، ولم أستطع أن أعرف ما إذا كان يرغب حقًا فى أن يحفظ ماء وجه وزيره أم أنه كان يسخر فحسب وفى يوم الخميس التقيت بالكاردينال بيندولى (..) وكان من بين أفراد المجموعة الصغيرة التى يُتوقع أن يتم اختيار البابا الجديد منها وفقا لرأى السفير شافعى عبد الحميد (..). بطبيعة الحال لم يُصبح أى من الكرادلة الذين زرتهم فى روما هو البابا الجديد، وكانت تنبؤات شافعى عبد الحميد خاطئة.

(....) فى يوم الخميس الموافق ٢٤ أغسطس ١٩٧٨ أجريت محادثة طويلة مع محمد إبراهيم كامل حول المؤتمر القادم فى كامب دافيد. لم نكن ندرى كيف نُعدّ للمؤتمر. كان هناك كثير من الأوراق والوثائق والتحليلات، ولكن الإستراتيجية العامة التى نؤسس عليها حركتنا لم تكن واضحة (..) غير أن صفقة منفردة مع إسرائيل من أجل سيناء بدت غير واردة. ذلك أن مصر زعيمة العالم العربى، ونحن لا نستطيع التخلى عن الوحدة العربية لمجرد استعادة أراضينا فى حين تظل الأراضى العربية الأخرى تحت الاحتلال الإسرائيلى. إلاّ أننى لم أكن واثقا من أن السادات بالرغم من تأكيداته المتكررة يشارك هذا الرأى. فمصر بالنسبة له تأتى أولا. وبعد أن تعرض للإدانة العربية بسبب مبادرته بدأ يهزأ ببقية العالم العربى باعتباره مجرد بركة بجوار النهر، وكانت «عصابة» وزارة الخارجية قلقة من أن إستراتيجية السادات لاستعادة سيناء أولا، بهدف إحراز القوة التى تمكنه من استرداد بقية الأراضى العربية فيما بعد، لن تنجح. وكنّا نخشى من أن الخطوة الأولى لن تتبعها الخطوة الثانية، بسبب الإجهاد والمعارضة، ولأننا لا نحمل تفويضا من الفلسطينيين لمواصلة مرحلة ثانية. وغادرنا القاهرة إلى باريس (..) وفى مأدبة عشاء لنا فى وزارة الخارجية تحدث محمد إبراهيم كامل بالإنجليزية متناولا العموميات، ولكن حسن التهامى احتكر الحديث، وكان بمثابة عرّاف السادات وسمير الرئيس و«رجل بَركة» ورافع للمعنويات. لقد كان التهامى ضابطا عسكريا كبيرا جسورا ولامعا فى الثورة (؟؟) ثم أصبح أشبه بالصوفى، مؤمنا بأنه يتلقى فى الأحلام تعليمات خاصة من الرسول (..) وكان السادات يرتاح إلى وجوده ويستمتع بصحبته (..) وقد سافر التهامى سرا إلى المغرب لملاقاة دايان، ووصف هذه الرحلة بأنها مهدت الطريق لمبادرة القدس الساداتية (..)

وعندما عُدنا إلى طائرة الرئاسة دعانا الرئيس إلى صالونه الخاص، إذ أن أسرته بقيت فى العاصمة الفرنسية، وتناولنا الغداء معه (..) كان السادات على ثقة من الأمر كله سينتهى قريبا. فهو سيعرض موقفه. وسترفض إسرائيل هذا الموقف. وسيؤيد الرأى العام الأمريكى مصر. وسيرى كارتر أن موقف مصر جيد وموقف إسرائيل سيئ. ومن ثمّ تقوم الولايات المتحدة بالضغط على إسرائيل لقبول ما قدمه السادات. وقال إنه أمر بسيط. وكنت أعتقد أن الأمر ليس بمثل هذه البساطة، وأخشى أن الأمريكيين لن يضغطوا على إسرائيل، وأن السادات سيقوم فى هذه الحالة بتقديم تنازلات.

(..) وقام التهامى بتوزيع قطع صغيرة من العنبر على أعضاء الوفد المصرى، شارحا بأن علينا إذابتها فى الشاى وبأنها ستمنحنا القوة على مواجهة الإسرائيليين (..) ولم تكن الترتيبات المادية مشكلتنا الرئيسية، وإنما هو أسلوب السادات الذى أربكنا. فكلما التقى مع كارتر أو بيغين لم نكن نُبلغ على الإطلاق بما قاله، فى حين كنا نلاحظ أن الزعيمين الأمريكى والإسرائيلى يحيطان وفديهما علما بالأمر قبل كل اجتماع وبعده، وكنت أخشى أن السادات بغرض استعادة سيناء قد يقدم تنازلات ضخمة (..) كانت الأجواء المحيطة بنا غريبة والسادات لا يمكن التنبؤ

لم يُصبح أى من الكرادلة الذين زرتهم فى روما هو البابا الجديد، وكانت تنبؤات شافعى عبد الحميد خاطئة

سافر التهامى سرًا إلى المغرب لملاقاة دايان، ووصف هذه الرحلة بأنها مهدت الطريق لمبادرة القدس الساداتية

بأفعاله، وبدا التهامى فى حالة عدم توازن وفى يوم السبت ٩ سبتمبر عقدنا جلسة عمل فى كوخ السادات. ودارت مناقشة حامية بين السادات ومحمد كامل. لم يكن السادات يثق فى دبلوماسييه. وكان كامل على حق (..) وكان واضحا أن السادات يريد لاجتماعات كامب دافيد أن تنتهى بوثيقة دولية مهما كان الثمن. إذ كان السادات يدرك أنه دون مثل هذه الوثيقة سوف تبدو رحلته للقدس والمبادرة الدبلوماسية اللاحقة فاشلة».(..)

وقفة سريعة: كنت أتمنى أن أعرف ما إذا كانت المخابرات المصرية، التى تتوفر على كفاءات عالية وتجهيزات ملائمة، قد قامت بتأمين مكان الاجتماع ضد التنصت واستراق السمع.

«(..) وكان السادات يعتبر غزة مسؤولية مصر بحكم الواقع، وأنه سوف يُعطيها للأردن، الأمر الذى يوفر للأردن ميناء على البحر المتوسط، علاوة على جموع من الغزاويين الغاضبين ومع مرور الأيام بدت كامب دافيد كمعسكر اعتقال (..) وفى ساعة متأخرة من يوم الأحد ١٠ سبتمبر تردد أن الجانب الأمريكى يعتزم تقديم ورقة أمريكية للرئيس السادات، وطلبتُ نسخة لدراستها مقدما، ولكننى لم أنجح فى الحصول عليها. وفى صباح اليوم التالى دعانا السادات إلى كوخه. وسلمنى وثيقة وطلب منى قراءتها بصوت عالٍ على أعضاء الوفد. إنها الورقة الأمريكية. وبدت فى قراءتها طويلة ومعقدة بصورة لا تطاق. وعندما فرغت من قراءة النص، طلب السادات إلى كل منّا تقديم ملاحظاته وآرائه، وبينما نحن نقوم بذلك أصبح واضحا أن السادات لا ينتبه لما كنا نقوله. واقترح محمد كامل أن ننسحب جميعا لنعكف على دراسة الوثيقة بعناية (..) ولدى عودتنا إلى كوخ السادات، هاجم السادات المشروع الأمريكى (..) وأعلن بأنه سوف ينسحب من المحادثات (..) وعندما ألححت عليه بالبقاء فى كامب دافيد استشاط غضبا وقال: إنك لا تفهم فى السياسة (..) لقد صدم السادات حقا بالمشروع الأمريكى وأراد بالفعل أن يُغادر المكان، وفى الوقت نفسه كنت أخشى أنه إذا غير السادات رأيه وبقى فى كامب دافيد فقد يضعف موقفه التفاوضى ويجعله أكثر قابلية لتقديم تنازلات. ولدى عودتنا إلى كوخنا المشترك تحدث محمد كامل طويلا عن السادات (..) كانت أعصابه منهكة بوضوح وكان متشائما للغاية، وأوضحت أن دورنا ثانوى، وأن القرار السياسى سيتم اتخاذه شئنا أم أبينا (..)

وبسرعة قام فانس بالجمع بين كارتر والسادات فى محاولة لوقف انهيار المفاوضات. وعندما خرج السادات قال إن كارتر أبلغه بأنه إذا انهارت محادثات كامب دافيد فإنه لن يُعاد انتخابه رئيسا للولايات المتحدة. أما إذا نجحت محادثات كامب دافيد. كقول كارتر للسادات. فإنه فى فترة الرئاسة الثانية سوف يضمن له أن يحقق الاتفاق كل تطلعات السادات.(..) وانتابنى شعور بأن السادات كان راغبا فى الاقتناع والرجوع عمّا قاله وبإعادة قراءة المشروع الأمريكى رأيت أنه لم يكن شاملا وإنما كان مضطربا (..) فالقسم الأول من المشروع .وهو الانسحاب من الأراضى المصرية. لا يتبعه بالضرورة القسم الثانى، وهو الانسحاب من الأراضى الفلسطينية. ولم تكن الأجزاء مترابطة، الأمر الذى يعنى بأن مصر قد تتهم بتوقيع سلام منفصل مع إسرائيل وبأنها تتخلى عن العرب. غير أن السادات بدا غافلا عن ردود الفعل العربية.

كان يريد من الأمريكيين أن يضمنوا نجاح مبادرته، وكنت أخشى من أن الأمريكيين يخدعون أنفسهم، وأن السادات بدوره سوف يخدع العرب.

كنت ألح على السادات بمقابلة دايان ليس فقط استجابة لطلب وايزمان(..) وكان السادات يرفض، ولم أجد بدًا من نقل الرفض لوايزمان، وإزاء حساسيته للمشكلة تدخل الرئيس كارتر وتقدم بنفس الطلب، وفى هذه الحالة وافق السادات على لقاء ديان «علشان خاطر كارتر». وحظيت هذه العبارة بشعبية وسط المندوبين المصريين، فكل طلب نراه ضد المصالح العربية صار يوصف بأنه «علشان خاطر كارتر».

وشعر المندوبون المصريون بالصدمة إزاء الأحكام المتعلقة بسيناء الواردة فى الوثيقة الأمريكية، فشبه الجزيرة المصرية ستكون منطقة منزوعة السلاح تشرف عليها قوات الأمم المتحدة ووكالة دولية لحفظ السلام. وتضمَّن المشروع عشرات من القيود على السلطة المصرية. وكانت تلك الشروط مهينة لمصر (..) وعندما خرج كارتر كان واضحا أن السادات وافق على البقاء، والحقيقة أنه قد وافق على وثيقة معدلة لم يعرف أى منا شيئا عن مضمونها (..) غير أن وليام كوانت أبلغنى بعد ذلك بوقت طويل بأن السادات كان قد نقل سرًا موقفه «المتراجع» إلى الأمريكيين (..) ثم قام نائب الرئيس والتر مونديل بزيارة السادات. ولم يقف أى منا على ما دار أثناء هذا اللقاء (..) وفى وقت متأخر اجتمعنا فى كوخ السادات (..) وكان واضحا لى أننا، أعضاء الوفد، بمثابة كَمّ مهمل، وأن علينا الانتظار لحين إعلان النتائج النهائية.

وبعد الظهر جاء نبيل العربى إلى كوخنا حيث أشار إلى عبارة وردت فى الوثيقة أحس بأنه لا يمكن قبولها. وأجبناه جميعا: «لا تخبرنا نحن، اذهب إلى الرئيس السادات وأخبره». لقد فقدنا الأمل فى إقناع السادات، وتوجه نبيل العربى إلى كوخ الرئيس، وسرعان ما عاد إلينا مضطربا مهزوما، لقد أثارت ملاحظته غضب السادات الذى انفجر فيه.

وحان وقت الرحيل (..) وعندما عدنا (..) تأكد نبأ استقالة محمد كامل، وصعدنا إلى الدور الثالث حيث كان السادات يرتدى البيجاما يحيط به الصحفيون المصريون (..) قال: «إننى أعتبر محمد كامل أخا صغيرا لى (..) إننى أعذره لأن أعصابه لم تتحمل الضغوط العنيفة التى واجهناها، كما أن بعض الأولاد فى وزارة الخارجية سمّموا الجوّ (..) واحد منهم جاءنى بعد ظهر ذلك اليوم ليُسدى إلىّ النصح» وتساءل السادات «هل معقول أن يتدخل موظف فى وزارة الخارجية فى أمور السياسة الدولية؟» (..) ووصلنا إلى القاهرة عند الظهر حيث تجمعت الآلاف المؤلفة من المستقبلين فى المطار لتحية السادات بالهتافات والشعارات (..) والمؤكد أنه استقبال مُدبَّر(..) وفى ٣١ أكتوبر علمت بانتخاب الجمعية العامة للأمم المتحدة الدكتور عبد الله العريان قاضيا فى محكمة العدل الدولية. وأقبل أعضاء الوفد المصرى (فى نيويورك) يهنئون عبد الله بحرارة، وشعرت بأن حماسهم قد لا يكون بعيد الصلة عن حقيقة مغادرة عبد الله إلى لاهاى مما يؤدى إلى خلوّ منصب السفير فى برن، الذى يطمعون فيه كثيرا (؟؟) ووصلت إلى القاهرة فى التالى ولدى وصولى علمت أن الرئيس السادات كان قد رفض استقبال وفد من وزراء خارجية الدول العربية أرسله مؤتمر القمة العربى فى بغداد إلى القاهرة.

ثم يقول الدكتور بطرس: كانت زيارة الشاه (لمصر) تحذيرا بأن الأصولية أصبحت خطرا يتهدد العالمين العربى والإسلامى، وسألت موسى صبرى: «هل هناك خطر امتداد الثورة الإيرانية إلى مصر؟» وأجاب صبرى، وهو أحد الصحفيين القلائل الذين جرءوا على انتقاد الإخوان المسلمين فى جريدته اليومية واسعة الانتشار، قائلا: «إن الثورة الإيرانية مرض لا يمكن انتشاره فى مصر، ذلك أن مصر بلد سنى بينما إيران شيعية».

وقفة سريعة: يتضح هنا بعض خلفيات الموقف المتشدد ضد الثورة الإيرانية فى بداياتها، وأتصور أن اختيار ذكر موسى صبرى بالذات (وهو مسيحى) خطأ.

«(..) كنت أتمنى أن تدرك القيادة المصرية ضرورة أن أصبح وزيرا للخارجية (..) فلم يتردد عباس حلمى الثانى فى تعيين جدى بطرس غالى وزيرا للخارجية ثم رئيسا للوزراء (؟؟) قبل قرن من الزمان تقريبا (..) ولم يتردد سعد زغلول بموافقة الملك فؤاد فى تعيين عمى واصف بطرس غالى وزيرا

كان السادات يدرك أنه دون مثل هذه الوثيقة سوف تبدو رحلته للقدس والمبادرة الدبلوماسية اللاحقة فاشلة

وافق السادات على لقاء ديان «علشان خاطر كارتر». وحظيت هذه العبارة بشعبية وسط المندوبين المصريين

للخارجية، أما اليوم وفى الربع الأخير من القرن العشرين، يتردد السادات فى تعيين شخص غير مسلم وزيرا لخارجية مصر. (..) أثناء الرحلة إلى واشنطن عكفنا، مصطفى خليل وأنا، على تحليل المفاوضات. ولم أكن متفائلا، وقلت إن الفشل أكثر احتمالا من النجاح (..) فالسادات وحده هو القادر على اتخاذ القرارات المهمة، والفرق أن السادات قد يتنازل أما بيغين فلا يتنازل.

وفى يوم ٦ مارس وعلى متن الطائرة التى تحملنى إلى القاهرة وجدت نفسى جالسا إلى جوار محمود رياض الأمين العام للجامعة العربية، الذى تحدث معى بلا انقطاع عن النزاع بين مصر والعرب، وراح يكرر المرة بعد الأخرى بأنه أمر ضار للجامعة العربية وللتضامن العربى.

وحاولت متابعة حديثه ولكن رغبتى فى النوم كانت قوية للغاية.

كارتر فى مصر (..) وتوجهنا إلى الإسكندرية بقطار خاص كان يستخدمه الملك فؤاد (؟؟) وبدا أن المحادثات فى الإسكندرية لن تصل إلى شىء، ولكن الرأى السائد وسط الوفد المصرى أن السادات على استعداد للتنازل من أجل معاهدة السلام (..) وانتابنى القلق وقلت للسفير ايلتس: «هل تضغطون على الرئيس للتوصل إلى معاهدة سلام على حساب التزامات مصر العربية؟ إن ثمن الاستجابة لضغوطكم ستدفعه مصر والرئيس السادات.(..) وأخيرا وفى ١٤ مارس كان نص المعاهدة جاهزا (..) وطبقا لأحكام المعاهدة الثانية المتعلقة بالضفة الغربية وغزة، فإن الأردن والفلسطينيين سيشاركان فى المفاوضات، وفى حالة عدم اشتراكهما فإن مصر ستتفاوض نيابة عنهما (؟؟) وصباح الأحد تابعت القنوات التليفزيونية الأمريكية الثلاث حيث ظهر كل من بيغين وديان وكيسينغر يتحدثون واحدا بعد الآخر عن المعاهدة، ولم يُسمع للمصريين أو للعرب صوتا (..) وبدت المعاهدة بمثابة انتصار للدبلوماسية المصرية، ولكننى شعرت بأنها ستضر بنا، فمما لا شك فيه أن هذا النصر أمكن تحقيقه بتهميش الفلسطينيين وإضعاف تأثير مصر على مستقبل الضفة الغربية وغزة، فمصر ستحصل على السلام ولكن الفلسطينيين لن يحصلوا على حقوقهم (..) وبدا من الصياغة أن مصر وحدها قد تخرق المعاهدة، وأن الولايات المتحدة فى هذه الحالة ستقدم معونة «عاجلة» لإسرائيل (..) وبعد مغادرة فانس بعث الدكتور مصطفى خليل مذكرة إلى فانس يقول فيها إن مصر فى غاية الإحباط لاكتشافها أن الولايات المتحدة دخلت فى اتفاقية مع إسرائيل، الأمر الذى نعتبره موجها ضد مصر (..) وعندما قام الدكتور مصطفى خليل بإبلاغ الرئيس السادات بالالتزام الأمريكى لإسرائيل، لم يُبدِ السادات، كما توقعت، أىّ اهتمام. فبالنسبة للسادات فإن شيئا لم يكن ليستطيع أن يُنقص من سحر الاحتفال الذى سيجرى فى الساعات القادمة(..) بعد سنوات طويلة أبلغنى هيرمان ايلتس بأن كيسينغر سأله فى ذلك اليوم: لماذا وقع السادات هذه المعاهدة؟» لقد كان فى وسعى أن أحصل له على ما هو أكثر كثيرا» (..) وبعد ظهر ذلك اليوم، وأثناء جلسة عمل مع الأمريكيين، نشب خلاف رهيب بين مصطفى خليل وسايروس فانس. كان خليل قد قرر نشر الخطابين المصريين اللذين يعترضان على الاتفاق الإسرائيلى الأمريكى، وللمرة الأولى فى حضورى يفقد فانس أعصابه. فقد اسودّ وجهه وقال: «هذان الخطابان وثائق سرية وليسا للنشر!» (..)

فى يوم أول أبريل ١٩٧٩ أبلغتنى الرئاسة بأننى سوف أرأس بعثة الشرف المرافقة أثناء زيارة رئيس الوزراء الإسرائيلى للأهرامات وأبى الهول (..) ولاحظ الجميع غياب مصطفى خليل الذى قال أنه مريض (..) وكان واضحا على وجه حسنى مبارك والسيدة قرينته أنهما أيضا متضايقان لتكليفهما باستقبال هذا الضيف. ولم أكن وحدى الذى يشعر بأن إسرائيل هى الرابحة ومصر هى الخاسرة فى هذه المعاهدة.(..) وبنهاية مراسم الاستقبال عدت إلى مكتبى وهناك وجدت فى انتظارى برقية من صديق وزميل لسنوات طويلة، وهو جورج طعمة مندوب سوريا السابق لدى الأمم المتحدة، يقول فيها: «إن رئاستك لبعثة الشرف المرافقة لمجرم الحرب بيغين هى صفعة على وجه كل عربى (..) وأفاض نص البرقية فى وصف دور بيغين كإرهابى (..) وجاء فى البرقية (..) وبدلا من أن تكون ضمن المطالبين بمحاكمة بيغين كمجرم حرب فإنك اليوم تستقبله كرئيس للوزراء (..) فلا الشعب العربى النبيل ولا الإنسانية تغفر لك صنيعك ولا لتبريرات رئيسك السادات» (...) ولو أننى تسلمت هذه البرقية قبل ذلك، لكنت طلبت دون تردد وبفخر أن أرأس وفد الشرف المرافق لمناحم بيغين (!!!).

وفيما أنا أستقل سيارتى عائدا إلى بيتى رحت أفكر بأن مصر قد ضحت بما فيه الكفاية، من حياة أبنائها وأموالها، من أجل العرب والفلسطينيين، وقد حان الوقت لأن تفكر مصر فى نفسها، وأن التزام السادات بمصر أولا له ما يبرره (..) وعندما استأنف مجلس الشعب مناقشاته حول المعاهدة (..) اقترح محمود أبو وافية، عديل الرئيس والمحامى بالأقاليم، إرسال محاضر مناقشات مجلس الشعب الحالية إلى جميع الدول العربية، وناولت جارى الجالس إلى جانبى قصاصة صغيرة كتبت فيها: «إن العضو المحترم يغفل حقيقة أن إخواننا العرب لن يقرءوها، مثلهم فى ذلك مثل أولئك الذين هاجموا إطار كامب دافيد دون أن يقرءوا تلك الوثيقة».

(..) واختلطتُ بالجماهير وتساءلت لماذا هم سعداء إلى هذا الحد. قال بعضهم إنهم فقدوا أبناء فى المعركة ولن تكون هناك حروب أخرى بعد الآن، وقال آخرون أن الأمريكيين سيقومون ببناء المصانع فى مصر (..) ولقد أسعدنى سماع تلك العبارات. إنها صادقة.

الرأى السائد وسط
الوفد المصرى أن السادات على استعداد للتنازل
من أجل معاهدة السلام

إن رئاستك لبعثة الشرف
المرافقة لمجرم الحرب بيغين هى صفعة
على وجه كل عربى

وسافرت إلى الإسماعيلية لاستقبال الرئيس تشاوشيسكو (..) واقترح، كما كان يدعو منذ بعض الوقت، عقد مؤتمر دولى لمناقشة القضية الفلسطينية، ولم يبد السادات اهتماما بذلك، أمّا أنا فقد أيدت الفكرة، واعتقدت أنه (..) فى حالة فشل معاهدة السلام وكامب دافيد فإن المؤتمر الدولى سيوفر لنا وسيلة التراجع. ولكنى لم أقل ذلك بصراحة للسادات (..) الإسرائيليون يرفضون تبادل وثائق التصديق لأنها تتضمن وثيقتين (..) وقال الإسرائيليون أن برلمانهم وافق فقط على معاهدة السلام وليس على الاتفاق الآخر (الخطابات الخاصة بالحكم الذاتى الفلسطينى) وهمست فى أذن الدكتور مصطفى خليل بأن عملية التبادل فى سيناء تواجه مأزقا بسبب اعتراضات إسرائيلية، وقام هو بإبلاغ السادات (..) وقال مصطفى خليل منفعلا: «إن كل شىء يسير على طريق الخطأ، وهو قول، على ما يبدو، لم يعجب السادات (..) وفى صباح اليوم التالى، ولأسباب لا أعلمها، اختفى الحراس من مدخل عمارتنا السكنية، وانزعجت زوجتى وصار الجو متوترا. وعندما استعلمت قيل لى إن اليوم هو الجمعة وإنهم ذهبوا إلى المسجد للصلاة (؟؟)

فى ذلك العام أقيم احتفال عيد العمال فى سفاجا (..) وكنا، مصطفى خليل وأنا، نرجو ألاّ يثير خطاب السادات حفيظة الدول العربية (..) فقد كنّا نتفاوض بهدوء مع بعض الحكومات العربية حول مصانع السلاح المملوكة ملكية مشتركة (..) وألححت على موسى صبرى الذى كان عاكفا على كتابة الخطاب أن يتأكد من أن شيئا من هذا لن يحدث (..) توجه السادات إلى المنصة (..) فجأة أزاح الخطاب المكتوب جانبا ليتحدث بدون مذكرات، ونظر مصطفى خليل نحوى وبادلته النظرة فى أسى. وشرع السادات فى شن هجوم عنيف على الزعماء العرب الآخرين، يشجب تقاعسهم وغدرهم وانعدام تأثيرهم. ونتيجة لذلك انهارت المفاوضات الخاصة بالمصانع المشتركة للسلاح. وعندما قررت جيبوتى، وهى دولة متناهية الصغر تقع تحت النفوذ الفرنسى سياسيا واقتصاديا وعسكريا، قطع علاقاتها مع مصر، قلت للسفير الفرنسى فى القاهرة إن فرنسا كان فى استطاعتها الحيلولة دون ذلك (..) كانت لطمة مريرة لكبرياء مصر.

وفى تلك الليلة تناولت العشاء بالسفارة البريطانية

(فى مصر) وعلى العشاء قابلت محمد حسنين هيكل (..) وقال لى بقلق كبير: «رويدا رويداً! لابدّ أن تفرمل السادات، فليس هناك ضرورة على الإطلاق لإجراء التطبيع مع إسرائيل بهذه الخطوات السريعة»، وهيكل أحد المفكرين المصريين الراديكاليين الذين لا يستطيعون قبول فكرة الحوار مع إسرائيل.

وفى يوم السبت تناولت العشاء فى دار الدكتور زهير فريد بمناسبة مغادرة هيرمان ايلتس لمصر. وتحدث ضيف الشرف معى لأول مرة دون اعتبار لمنصبه كسفير للولايات المتحدة، معلنا أن: «اتفاقيات كامب دافيد كارثة» (..) وكنت قد أبلغت أجهزة الإعلام بأنه وفقا للمعاهدة فإن التطبيع بين مصر وإسرائيل لن يبدأ قبل نحو تسعة شهور (..) وبعد ذلك بيومين (فى العريش) حدثت خطوة جديدة نحو التطبيع بين إسرائيل ومصر (..) ونهض السادات ليعلن قراره بفتح الحدود بين مصر وإسرائيل (..) أدليت بحديث إلى مراسل «لوموند» فى القاهرة، وتضمنت أسئلته استفسارا عن ابن عمى، إبراهيم أمين غالى، الذى فصله عبد الناصر من وزارة الخارجية لخدمته الدبلوماسية لنظام الملك فاروق. (؟؟)

(..) وأجبت الرئيس (..) صار معلوما الآن لدى الكافة بأننى أتحدث جهارا لصالح القضية الفلسطينية (..) ولكننى كإنسان واقعى (..) أعلم أنه إذا لم تتابع مصر مصالح الفلسطينيين فإننا سنخسر زعامتنا للعالم العربى، كما أن السلام مع إسرائيل سيحيق به الخطر (..) وبدا أن كل أسباب انزعاج العالم العربى لا تنصب على المعاهدة المصرية الإسرائيلية، التى تعنى إعادة الأرض العربية من إسرائيل، وإنما كان يُخشى أن يكون وراء المعاهدة حلف سرى بين إسرائيل ومصر بمساندة الولايات المتحدة، تصبح مصر بمقتضاه الزعيمة السياسية، وإسرائيل الزعيمة التكنولوجية، والولايات المتحدة السند المالى (..) لم يكن هناك أى ظل للحقيقة فى هذا الادعاء» (؟؟)

وقفة سريعة: لم يكن هناك عربى واحد يجادل فى أحقية مصر كزعيمة ورائدة، والتعليق هنا يُخلّ، إلى حد ما، بالأسلوب العلمى، لأنه مضاربة سياسية، بجانب أن العالم يعرف بأن أمريكا لم تكن أبدا سندا ماليا لأحد، بل هى تريد أن تكون هى الآمرة بصرف الأموال عربية المصدر.

«فى يوم الأربعاء ٤ يوليو ١٩٧٩ سافرت لحضور مؤتمر القمة الإفريقى فى مونروفيا، وكنت أتوقع الأسوأ (..)

وتناولت العشاء بمنزل عادل خير الدين سفير مصر (..) وكان يأمل أن تؤدى علاقتنا الشخصية إلى توليه منصب فى أوروبا (..) وبالرغم من شكاواه التى لم تنقطع أبدا كان الجو فى العشاء مبهجا.

(..) اجتمعت مع حسن كامل لمناقشة القائمة التى كنت قد أعددتها لرؤساء الجمهورية الأفارقة الذين يجب على السادات أن يجتمع بهم، وقال حسن كامل بعجرفة: «إن رئيس الجمهورية لن يقوم بطبيعة الحال بأى زيارات» (..) وعندما استقبلنى السادات (..) وأبلغته بما هو مطلوب، ووافق على الفور على زيارة الرؤساء الآخرين (..) ثم جاء الدور على أحمدو أهيدجو رئيس الكاميرون (..) وكنت أقوم بالترجمة من العربية إلى الفرنسية، مفصلا فى أماكن متفرقة كلمات السادات، وذلك بالموافقة الصريحة من جانب الرئيس، الذى كان يهز رأسه بالموافقة عند كل نقطة عندما كان يلاحظ إسهاماتى فى بلورة كلماته (؟؟)

واستقبلنى فى نيويورك الدكتور عصمت عبد المجيد وطلبت منه أن يساعدنى فورا بشأن تقديم اقتراح بتنقيح قرار مجلس الأمن ٢٤٢ لكيلا يُشار إلى الفلسطينيين على أنهم لاجئون فحسب، ولكن كشعب له حق تقرير المصير (..) غير أنه عندما عرف الإسرائيليون بهذه الفكرة عارضوها بعنف (..) وكان السادات نفسه يخشى من أن يؤدى تعديل القرار إلى إضعاف اتفاقات كامب دافيد (..) وقد أبلغ السادات بوب شتراوس بهذه المخاوف، ونتيجة لذلك، حاول شتراوس بكل نشاط أن يقتل مبادرتنا (؟؟)

واتصل الدكتور مصطفى خليل بى هاتفيا من القاهرة ليقول إن معارضة السادات لتغيير القرار ٢٤٢ قاطعة.

وتركت نيويورك متوجها إلى هافانا (..) كان الشعور العام أننا نواجه خطرا (..) غير أن الرئيس السادات لم يكن يعبأ بذلك. فلم تكن حركة عدم الانحياز تهمه. فهو يعتزم تحقيق الانسحاب الإسرائيلى من سيناء مهما كان الثمن الدبلوماسى بالنسبة لمصر.(..)

وقفة سريعة للعلم: لا أذكر أن الرئيس السادات حضر قمة عدم الانحياز السابعة فى هافانا، عاصمة كوبا.

وفى ساعة متأخرة من ذلك المساء طرق السفير محمود أبو النصر، المصرىَ المُعار إلى سلطنة عُمان ليعمل ممثلا لها فى الأمم المتحدة، باب غرفتى، وقال إن سوريا قد طلبت من المجموعة العربية أن تشجب وترفض اتفاقات كامب دافيد (..) وطلب منى أن أبقى على اجتماعنا سرا».

وقفة سريعة: أتصور أن الدبلوماسية المصرية كان يمكن، بحد أدنى من التنسيق والتفاهم والتفهم المشترك، أن تستثمر التنديد العربى فى مساومة الإسرائيليين والأمريكان، وكلما زاد الهجوم العربى كلما أمكن انتزاع مكاسب أكثر من الطرف الإسرائيلى، بشرط الاتفاق المسبق بين القادة العرب.

«(..) وقال رودريغيز (نائب الرئيس الكوبى) أن صديقه هوارى بومدين قد ذكر له أكثر من مرة أنه، وبرغم أى خلافات، يجب ألاّ ينسى المرء أبدا أن مصر هى أهم دولة فى العالم العربى (..) تناولت مهدئا وتوجهتُ إلى سريرى، غير أن التليفون بدأ فى الرنين، وكان المتكلم

سيسيل دونيس (وزير خارجية ليبيريا ورئيس المجموعة الإفريقية) وقال إنه يريد مقابلتى فورا (..) وقال وهو يصرخ: «بطرس أخى، صديقى، كيف يمكن أن أدافع عن مصر وسياساتها فى الوقت الذى يُحرّض فيه الرئيس السادات الرأى العام العالمى ضد مصر؟. وقال إن السادات قد توجه لتوه إلى إسرائيل فى زيارة رسمية، وعلى مسمع ومرأى العالم، وفى الوقت الذى ينبغى له أن يشترك فى مؤتمر هافانا (..) وأضاف أن الأكثر من ذلك أن «السادات قال فى تصريح نقلته جميع وكالات الأنباء، إن مصر سوف ترسل جنودا إلى المغرب لمساعدة الملك الحسن الثانى فى حرب الصحراء الغربية» (؟؟)

(..) ووجهت برقية عاجلة إلى مصطفى خليل رئيس الوزراء، ورويت له القصة، لقد أردت أن يعرف السادات لماذا يتعين علىَ أن أتنصّل من تصريحاته، آملا فى ألاّ يُغضبه ذلك.

وشن فيديل كاسترو هجوما عنيفا على الإمبريالية (..) ووصف اتفاقات كامب دافيد بأنها خيانة للعالم العربى (..) بمن فى ذلك المصريون أنفسهم. واشتعلت غضبا وقلت لعصمت عبد المجيد إنه لابد من أن أردّ على وقاحة هذا الرجل فورا (؟؟) وساد القاعة الكبرى صمت تام. كيف يجرؤ هذا المنشق على إلقاء محاضرة على فيديل كاسترو، رئيس جمهورية كوبا، ورئيس مؤتمر القمة، الماركسى وإله عدم الانحياز، بهذه الطريقة. ولم يدل كاسترو بأى تعقيب على ما قلته (..) وبعد ذلك أعلن أن المؤتمر وافق على شطب كلمة ممثل مصر من محاضر الجلسة، وضجت القاعة بالتصفيق المدوى، وتعالت صيحات النصر بين الدول الرافضة واليسارية، أما الوفود التى اختارت عدم الاستحسان فقد انكمشت على نفسها بأمل أن تمر العاصفة دون أن تؤذيها. وفى ذلك المساء أقام كاسترو حفلا لرؤساء الوفود (..) وعندما كنت أصافحه قال: «لقد سمعت قبل وصولك أنك خصم خطير، ولقد تجلت لى حقيقة ذلك اليوم». وأضاف مبتسما أنه يتمنى لى إقامة سعيدة فى هافانا. ولم تؤد روح المودّة التى أبداها إلا لزيادة هياجى، لأنها نقلت إلىّ ثقة كاسترو بأن مصر خسرت قضيتها.

وبعد الظهر قمت بزيارة كورت فالدهايم فى استراحته، وأشار إلى كلمتى وقال إنه ربما حان الوقت لعقد مؤتمر دولى بشأن أزمة الشرق الأوسط (..) واستمعت إلى فالدهايم دون أن أفصح عن رأيى بأن السادات لن يقبل عقد مؤتمر دولى فى هذه المرحلة (..) وبالرغم

إذا لم تتابع مصر مصالح الفلسطينيين فإننا سنخسر زعامتنا للعالم العربى

لا أذكر أن الرئيس السادات حضر قمة عدم الانحياز السابعة فى هافانا، عاصمة كوبا

مما كنت قلته فى كلمتى فإننى كنت أعرف أن فكرة عقد مؤتمر دولى فى غزة أو العريش، والتى ذكرها السادات فى مونروفيا منذ شهر، لم تكن سوى مناورة دبلوماسية لإرباك الرافضين العرب (؟؟)

وفى ذلك المساء رجعت إلى فندقى لانتظار رئيس وزراء المغرب، الذى كان قد طلب أن يجتمع بى فى غرفتى دون تكتم، ووصل المسؤول المغربى حوالى الساعة العاشرة مساء، مرتديا عباءة بيضاء طويلة ونظارة سوداء، كما لو كان متوجها إلى حفل أزياء، ودخل هو والسفير المغربى لدى الأمم المتحدة إلى غرفتى بعد أن ألقيا نظرات شمالا ويمينا خشية أن يراهما أحد.

وبعد مناقشات كثيرة (..) رفض المغاربة طلبى بأن يعلنوا أنه لا صحة للرواية التى تقول إن مصر سوف ترسل جنودا إلى المغرب بطلب من الرباط (..) وعندما غادر رئيس الوزراء غرفتى وضع على عينيه النظارة السوداء مرة أخرى، وهرع خارجا خلسة» (؟؟)

وقفة سريعة: كنت فى هافانا آنذاك، وكنّا على علم بزيارة المسؤول المغربى، فلا يمكن كتمان شىء فى مؤتمر دولى كهذا، والمؤسف أن الدكتور بهذا الاستعراض لملكاته الوصفية البوليسية يخرج عن إطار الموضوعية الجامعية، فالمغاربة لم يكونوا فى حاجة للتنكر فى مؤتمر كل ما فيه مكشوف.

«وصبيحة اليوم التالى قمت بزيارة الرئيس تراورى رئيس جمهورية مالى (..) وقال فى غيظ: «إذا كان أعداء مصر لا يفهمون السياسة المصرية، وأصدقاء مصر لا يفهمون السياسة المصرية، فهل لا تتفق معى على أن هناك خطأ ما يتعلق بالسياسة المصرية؟ (..) وقد اجتمعت سرا مع ممثل الإمبراطور بوكاسا، إمبراطور جمهورية إفريقيا الوسطى، فى مرحاض للرجال وفى طريق عودتى عن طريق باريس تقابلت مع وزير الخارجية الفرنسى الجديد جان فرانسوا بونسيه. قال، وهو يعدل ياقة معطفه ويتكئ إلى الخلف بمقعده: «موشى دايان كان يجلس فى هذا المكتب الذى تجلس فيه، منذ فترة قصيرة. وقال لى ديان دون مواربة إن ما تم إبرامه بين مصر وإسرائيل ليس سوى سلام منفصل، وأنه عندما تتفاوض إسرائيل حول الضفة الغربية وقطاع غزة فلن يكون الموضوع هو السيادة على هذه المناطق بل فقط إعطاء الحكم الإدارى للفلسطينيين، ولا شىء غير ذلك «وأضاف» إنه بذلك يكون ديان قد أكد نية إسرائيل فى الاحتفاظ بالضفة الغربية، وأن الدبلوماسية الأمريكية قد أخطأت، لأنه بينما كان انسحاب إسرائيل من الأراضى المحتلة أمرا مُفترضا فيما مضى فإنه أصبح الآن موضوعا للتفاوض. وكدتُ أسرّ لوزير الخارجية الفرنسية أننى ربما أشاركه رأيه.

وعند عودتى للقاهرة (..) استدعانى الرئيس للاجتماع به (..) وهاجم بشراسة الدول فى الخليج وإفريقيا التى ليست سوى زمرة صغيرة لا قيمة لها سياسيا أو ثقافيا أو اقتصاديا.

كان السادات قد قرر ترتيب استعراض كبير ليبين أن فترة مفاوضات الحكم الذاتى، التى كانت قد استمرت شهورا، قد حققت تقدما. إلا أن الحقيقة كانت على خلاف ذلك.

وسافرت إلى الإسكندرية (..) وبدأت المفاوضات فى قاعة فندق سان استفانو (..) ووصلت إلى مطعم سان جيوفانى وذلك لاستقبال الضيوف بدلا من مصطفى خليل، وحول المائدة كان يجلس يوسف بورج (رئيس الوفد الإسرائيلى) إلى يمينى وشارون إلى يسارى، وكانت المواجهات التى حدثت أثناء النهار قد تركت آثارها علينا جميعا (..) وعالج بورج وشارون سماجة الموقف عن طريق تكديس الطعام فى أطباقهما (..) وأثناء العشاء اقترب منى السفير محسن الديوانى رئيس البروتوكول ليبلغنى بأنه تم ترتيب عرض فنى، وبدأ العزف، ثم ظهرت راقصة شرقية وبدأت تؤدى رقصاتها بطريقة إيقاعية، وتوقف جارى آرييل شارون، عن تناول الطعام، وعكست أسارير وجهه مشاعر الاغتباط والسعادة، والتفت إلىّ وتكلم بمودة: «يا دكتور غالى، لو أنك أرسلت ثلاث راقصات مثل هذه الراقصة إلى إسرائيل، فلن تحتاج إلى أى سلاح آخر أو دبابات لغزو بلدى» (؟؟؟!!!!!) وضحك، وضحكت أنا (..) وعندما كان يحدث ذلك وجدت أن بورج قد اختفى (..) لقد ترك القاعة فزعا (..) ونظر إلىّ نظرة مرتاعة، وقال: «ألا تعرف أننى رئيس لحزب دينى، وإن وجود راقصات نصف عاريات يقمن بإيحاءات جنسية ينتهك التعاليم الدينية؟» (..) واعتذرت له».

وقفة سريعة: أتساءل ما الذى كان يمكن أن يحدث لو أن الأمر تعلق بزعيم سياسى مسلم غادر لنفس السبب مائدة الرئيس، ألن تقوم القيامة على هذا الأصولى المتعصب؟

«وفى الصباح كانت المناقشة تدور حول نص البلاغ المشترك، واتفقنا على أن أفضل طريقة لإخفاء فشل الجولة هو إعلان مواعيد الاجتماعات التالية (..) وكان كل ذلك من أجل إخفاء عدم تحقيق أى تقدم، وطمأنة الرأى العام على توافر الإرادة والزخم لدى الجانبين من أجل مواصلة المفاوضات (..) وكنت مقتنعا بأن الإسرائيليين لا يسعون أبدا من أجل إيجاد حلّ للمسألة الفلسطينية، فقد كانوا يستخدمون المفاوضات لكسب الوقت بينما يحققون السيطرة الكاملة على الضفة الغربية وغزة من خلال سلسلة المستوطنات التى يقومون ببنائها (؟؟) فى المناظرة المصرية الإسرائيلية فى ستراسبورغ (..) مضى ديان قائلا إن «اتفاقات كامب دافيد لا تتضمن إمكانية قيام دولة فلسطينية» (..) وقلت «السيد دايان على حق (..) غير أنه لم يذكر أى شىء يحظر إقامة دولة فلسطينية.

(..) تلقيت مكالمة هاتفية من إبراهيم نافع رئيس تحرير الأهرام، الذى أبلغنى أن السادات غاضب جدا من التصريح للذى أدليت به لإذاعة مونتى كارلو والذى استنكرت فيه موقف الإسرائيليين من الفلسطينيين (..) وطلب الصحفيون الإسرائيليون عقد اجتماع عاجل معى، وأبلغونى أن السيد بيغين طلب من السادات أن يتخلص من الوزير بطرس غالى (..) وفى المطار لم يوجّه الرئيس لى التحية والتفت بعيدا وكأنه لا يرانى، وقد لاحظ ذلك زملائى ومرافقو السادات، وفى قاعة المطار جلست بمفردى يحوطنى الصمت، حتى العاملين فى خدمة المسافرين بدوا كما لو كانوا يقاطعوننى، ولم يقدموا لى القهوة (..) واقتربت من الرئيس وقلت بهدوء» لقد أحاط بيغين الصحافة علما بأنك قدمت تنازلات جديدة من أجل الإسراع بعملية التطبيع بين مصر وإسرائيل، وأن الخطوط الجوية سوف تبدأ رحلاتها بين البلدين... غير أننا لم نحقق أى تقدم فيما يتعلق بالمشكلة الفلسطينية. وقاطعنى السادات بصوت غاضب وعالٍ: «لقد تعيّن علىّ أن أقدم هذه التنازلات لكى أحدّ من الأضرار الناجمة عن تصريحاتك الأخيرة للصحافة الدولية، لقد جاء بيغين لمقابلتى صباحا ولم يكن قد نام طول الليل، وهو متكدر للغاية وشاحب الوجه جدا، وهو يشعر بالإساءة نتيجة لتصريحاتك الغبية. وقد اضطررت إلى تهدئته وتقديم تنازلات للتعجيل بعملية التطبيع (؟؟)

(..) وبحلول شهر أكتوبر نجحت الولايات المتحدة فى إعادة مباحثات الحكم الذاتى، ولكنها كانت عارا. لقد كانت ستارا لعدوان إسرائيلى (..) وفى نوفمبر انتخب ريغان (..) وشعر السادات بخيبة أمل، حيث كان يأمل فى إعادة انتخاب صديقه جيمى كارتر. وكنت قبل بضعة أسابيع قد اتصلت بالسادات وقلت له أنه من المحتمل ألاّ يُعاد انتخاب كارتر. وغضب السادات وقال: «يا بطرس، إنك تنصت دائما للشائعات، وتعتقد أنها حقيقة». والآن (..) اتصل بى السادات (..) وقال: «تعرف يا بطرس، كنت أعلم أنه لن يُعاد انتخابه» وبطبيعة الحال لم أذكره بتحذيراتى السابقة.

وفى اليوم التالى لانتخاب ريغان ذهبت (..) لاستقبال وفد حزب العمل الإسرائيلى (..) لقد شعرت بأن هؤلاء الإسرائيليين ليس لديهم فهم للموقف الذى تجد مصر نفسها فيه (..) وقلت إن الثمن الذى دفعته مصر مقابل معاهدة السلام ليس هو عزلة مصر عن العالم الثالث

كنت مقتنعا بأن
الإسرائيليين لا يسعون أبدا من أجل إيجاد حل
للمسألة الفلسطينية

مضى ديان قائلا إن
«اتفاقات كامب دافيد لا تتضمن إمكانية
قيام دولة فلسطينية»

بقدر ما هو عجزها عن القيام بالدور الذى كانت تقوم به أثناء السنوات العشر الأخيرة (..) ولأننا لم نحصل على شىء، فالحقيقة أن حالة الفلسطينيين أصبحت أسوأ بعد معاهدة السلام مما كانت عليه قبلها.(..) وأبلغ بيغين الصحفيين أننى تعرضت للتوبيخ من جانب السادات (..) ولاحظت الصحيفة أن تصريحاتى لا تدخل السرور على قلب من يسمعونها من الإسرائيليين، فهم لا يستطيعون استيعاب حقيقة أن العالم العربى مهم جدا بالنسبة لمستقبل مصر بدرجة تفوق أهمية إسرائيل، وأنه لأسباب إيديولوجية وعملية لا يمكن لمصر أن تترك الفلسطينيين دون اهتمام بهم. وكان واضحا أن السادات لم ينس تصريحاتى التى أثارت غضب بيغين، وقد رأى ليا (زوجى) وقال لها «قولى لبطرس اقفل بقك وتوقف عن الإدلاء بتصريحات».

سافرت يوم الأربعاء إلى تل أبيب لبدء الدورة الثامنة من المفاوضات المتعلقة بالحكم الذاتى الفلسطينى (..) وباستثناء الاتفاق على اتباع جدول زمنى مُكثف، والتعبير عن التقدم الذى تم حتى الآن، لم يتضمن البلاغ أى شىء على الإطلاق.

وفى كل يوم كان الإسرائيليون يواجهوننا بتطور جديد، فهم يدمرون المنازل الفلسطينية، ويُصادرون المزيد من الأراضى الفلسطينية، ويزجون فى السجون بالزعماء الفلسطينيين أو يطردونهم (..) وبالرغم من عوامل الإحباط هذه لم يكن لدينا خيار سوى مواصلة المحاولة (..) ولو فشلنا فسيعنى ذلك نشوب أزمة بين مصر وإسرائيل تؤدى إلى وقف الانسحاب الإسرائيلى من سيناء يكون ذلك انتصارا للرافضين.(؟؟) (..) وفى ختام الجلسة العامة كنّا جميعا منهوكى القوى وفى حالة اكتئاب، وقد تُلى البيان الختامى، وبالرغم من لهجته المتفائلة، فإن شيئا لم يتحقق.

وكان يوم ١٥ مايو هو المرة الرابعة خلال ثلاث سنوات التى قام فيها السادات بتغيير الحكومة (..) وكان السادات فى حالة نفسية سيئة جدا، إذ أنه انتقد جميع الوزراء الذين أدوا اليمين لتوهم (..) اشتدت هواجس السادات تجاه الشيوعية (..) وكان ما يعقد حياتى حينذاك هو أن عداءه للشيوعية قد امتد أيضا ليشمل منجستو هايلى ماريام (..) وكانت مصر توفر الدعم العسكرى والمالى للصومال sdfootnote5sym 5، عدو إثيوبيا (..) وكنت أرى أن مصلحة مصر تتطلب منا أن نقيم علاقات مع إثيوبيا، حيث تنبع أصلا ٨٥ فى المائة من مياه النيل6 sdfootnote6sym (..) وفى مساء يوم ما، وبعد حديث هاتفى طويل، وافق السادات على الكتابة إلى منجستو (..) وقد وافق السادات على طلبى باصطحاب أنيس منصور معى (..) وكان السادات، من أجل إقناع الإسرائيليين بإعادة الضفة الغربية وغزة، قد عرض عليهم تزويدهم بمياه النيل من أجل مشاريع الرى الخاصة بهم، وقد أثار ذلك ضجة فى مصر، فضلا عن الدول المطلة على النيل، التى استشاطت غضبا لأن السادات عرض مياه النيل دون موافقتها. وأخيرا أصبحنا فوق أديس أبابا. ومما بعث هلعنا أن المطار رفض التصريح لنا بالهبوط (..) وأصدرت تعليماتى إلى قائد الطائرة: «أبلغوا المطار بأن الوقود بدأ ينفد وأننا سنهبط هبوطا اضطراريا» (..) وكان السفير يبدو قلقا، أو حتى خجلا، وهمس إلىّ بالعربية: «إنه أمر غير مفهوم. إن منجستو يرفض مقابلتك».

وعند عودتى إلى القاهرة علمت (..) أنه، عشية سفرى إلى إثيوبيا، أصدر السادات بيانا صحفيا انتقد فيه منجستو ونظامه الفاسد، بل وهدد بالتدخل العسكرى إذا ما تجرأ على المساس بمياه النيل (..) غير أن إهانة منجستو لمبعوث السادات لم يرد ذكرها لا فى الصحف المصرية ولا الإثيوبية» (؟؟)

وقفة سريعة: ليست عندى معلومات عن هذه القضية ولكن تصورى، مما أعرفه عن مؤامرات القمم، هو أن هناك مسؤولا مصريا معينا أراد إفشال مهمة غالى والحيلولة دون تقارب مصرى إثيوبى قد يؤثر على الدعم المصرى لنظام زياد برى فى الصومال، الذى كان يتحطم تدريجيا بحرب الأوغادين ويمتص طاقة إثيوبيا فى الوقت نفسه.

«دعت معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل، الموقعة فى ٢٦ مارس ١٩٧٩، الطرفين إلى مطالبة الأمم المتحدة بأن توفر مراقبين من أجل الإشراف على عودة سيناء إلى السيادة المصرية (..) بيد أنه الآن، بعد مضى عام، أدت المعارضة القوية من جانب الدول العربية والاتحاد السوفيتى ودول أخرى لاتفاق كامب دافيد إلى إعاقة إنشاء قوة تابعة للأمم المتحدة (..) وأبلغنا رُوى آثرتون بأن الولايات المتحدة سوف ترسل ألف رجل إلى سيناء، وأنها أقنعت دولة فيجى (؟؟) بالموافقة على إضافة بضع مئات من الجنود كى ما تكون القوة «متعددة الجنسيات». وكان هذا أمرا مضحكا!

وقد أعربت للسفير عن احتجاجى بأقوى العبارات، وقلت: «إنه سيكون لدى الرأى العام المصرى مبرر لأن يقول إن الاحتلال الإسرائيلى لسيناء قد استبدل بقوة احتلال أمريكية (..) ورد آثرتون: «لو أردتم تشكيلا مختلفا للقوة متعددة الجنسيات، فإنه يتعين عليكم أن تضطلعوا بالمسؤولية عن العملية كلها (..) ولكن احصلوا على موافقة إسرائيل بالنسبة لجنسيات الوحدات المُشاركة (..) وتم إطلاع الرئيس السادات على ما قلته لآثرتون. وقال السادات إنه «مادام بطرس هو الذى أثار المشكلة فلندعه يحلها» ولم يكن حلّ المشكلة سهلا. لقد كان آثرتون على حق. فإن إسرائيل لن تقبل أى قوات من دولة لا تقيم معها علاقات دبلوماسية. وكانت غالبية الدول الإفريقية والآسيوية قد قطعت علاقاتها بإسرائيل (..) أما الدول الأوروبية، التى ظلت بمنأى عن عملية السلام، فقد أصدرت «إعلان فينيسيا» الذى ركز على منظمة التحرير الفلسطينية (..) ولذا كان أملى الوحيد هو دول أمريكا اللاتينية.(..)

وهكذا، فى مطلع شهر يوليو ١٩٧٩ توجهت مرة ثانية، وبصحبتى ليا، إلى أمريكا اللاتينية بهدف واضح، هو: الحصول على وحدات من أمريكا اللاتينية تشترك فى قوة متعددة الجنسيات غير تابعة للأمم المتحدة (؟؟) وقد بدأت بأوروغواى (..) حيث أوضح وزير خارجية أوروغواى أن حكومته سوف تنظر باهتمام فى الدعوة المذكورة. وكان ردّ الأرجنتين هو الرفض وفشلت مرة أخرى فى فنزويلا، ثم مضيت إلى بوغوتا (..) وقد جاءنى سفير الولايات المتحدة لكى يهمس فى أذنى بأن موقف الحكومة الكولومبية إيجابى جدا بالنسبة لمهمتى، غير أنى لم أحصل على أى التزام. وقد بدأت زيارتى الرسمية لبنما يوم الاثنين، عندما وضعت باقة من الزهور عند النصب التذكارى الوطنى، وعزفت الموسيقى العسكرية السلام الوطنى المصرى القديم والذى كان يرجع إلى أيام الملك فاروق (؟؟) وبعد الحفل عاتبت السفير المصرى، وهو لواء متقاعد، بسبب هذا الخطأ الكبير. ورد السفير بهدوء بأن حكومة بنما ليس لديها سوى موسيقى هذا السلام الوطنى السابق، وأنه بدلا من عدم عزف أى سلام، فقد فضلّوا عزف موسيقى الملك السابق. ثم أضاف وهو يبتسم: «إن القاهرة بعيدة عن بنما، ولا يعرفون بهذه الواقعة، وربما تكون أعادت إلى سعادتك ذكريات أيام الشباب».

وقفة سريعة: أتمنى أن أعرف ماذا حدث فيما بعد لهذا السفير.

«وفى ٢٩ يوليو وصلت إلى غواتيمالا (..) وأثناء خطبته أعلن الرئيس لوكاس غارثيا أن هناك ضيف شرف حاضرا هذا الحفل. وقال «إنه وزير خارجية... «ثم تردد وأضاف «... إسرائيل!» (..) وكانت فترة بقائى فى غواتيمالا هى أفضل عطلة أشهدها لسنوات طويلة (؟؟) ولكنها لم تحقق شيئا لمصر.

وفى ٥ أغسطس، فى مكسيكو سيتى (..علمت أنه) لن يكون باستطاعة المكسيك الاشتراك، حتى بشكل رمزى، فى القوة المتعددة الجنسيات (..) غير أنه فى صبيحة عودتى أبلغت أن كولومبيا قد وافقت (..) وبعد أسابيع لاحقة، أعلنت أوروغواى أنها هى أيضا، سوف تشترك فى

أدّت المعارضة القوية من جانب الدول العربية والاتحاد السوفيتى ودول أخرى لاتفاق كامب دافيد إلى إعاقة إنشاء قوة تابعة للأمم المتحدة

« لو أردتم تشكيلا مختلفا للقوة متعددة الجنسيات، فإنه يتعين عليكم أن تضطلعوا بالمسؤولية عن العملية كلها

القوة متعددة الجنسيات (..) وبحلول شهر سبتمبر كانت إسرائيل راضية عن قوة متعددة الجنسيات تتكون من الولايات المتحدة وفيجى ودولتى أمريكا اللاتينية، فى مطلع ١٩٨١ كانت حملة الانتخابات الإسرائيلية على أشدها (..) كان بيغين قد استغل انتهاء مجابهة إسرائيل مع مصر لكى يتحول بدرجة أشد عدوانية تجاه أعدائه فى الشمال. وقد وصلت الأمور إلى حد الأزمة فى شهر أبريل عندما حركت سوريا قذائف سوفيتية من طراز «سام» إلى موقع قريب من زحلة. وشعر العالم العربى، بصورة يمكن فهمها، بأن إسرائيل خدعت مصر وجرتها إلى سلام منفصل بغية إطلاق حرية إسرائيل للقتال فى مكان آخر.

وفى ٧ يونيو ١٩٨١ دمرت طائرات السلاح الجوى الإسرائيلى مرفقا نوويا عراقيا فى أوزيراك (..) ولم تبرز صحف القاهرة معارك إسرائيل مع الدول العربية الأخرى، فقد كنا نخشى أن تؤدى هذه الأنباء إلى تقويض التأييد الجماهيرى المصرى لعملية السلام (..) وفى يوليو ١٩٨١ قصفت الطائرات المقاتلة الإسرائيلية عن عمد أهدافا فلسطينية فى لبنان، وفى اليوم السابع عشر قُصفت بيروت أثناء غارة أسفرت عن مقتل نحو ثلاثمائة شخص، وأصابت ثلاثة أضعاف هذا العدد بجراح. وبالرغم من ذلك مضى السادات فى محاولته إنجاح عملية السلام (..) وفى مطلع شهر سبتمبر تم الاتفاق بين بيغين والرئيس ريغان فى واشنطن على مبدأ أمريكى. إسرائيلى جديد، أطلق عليه اسم «التعاون الاستراتيجى»، بما فى ذلك المناورات العسكرية المشتركة. وتعالى عُواء المعارضة العربية لمصر لشعورها بالإحباط.

بالرغم من عدم مبالاة الرأى العام أو موقفه المعادى تجاه فكرة المفاوضات مع إسرائيل، فإننا استأنفنا محادثات الحكم الذاتى فى ٢٢ سبتمبر ١٩٨١، وشعرت بالإحباط جدا لدرجة أن فكرة استئناف المفاوضات ذاتها كانت باعثة على الاكتئاب.(..) وبعد الظهر، وبعد مفاوضات مضنية، توصلنا إلى حل وسط، فبدلا من اعتماد جدول أعمال نقوم باعتماد بلاغ مشترك، تُذكر فيه جميع الموضوعات بطريقة السرد، ومن ثم، فإننا نقول إن شارون قد بيَن التدابير المتخذة من أجل إنشاء جو جديد من الثقة بين الفلسطينيين، ونقول إن تدابير تتخذ من أجل تشجيع الفلسطينيين على الاشتراك فى عملية السلام وفقا لاتفاقات كامب دافيد (..) وكانت جلسة اليوم الثانى مضنية، فقد نشب بيننا شجار حول نص البلاغ المشترك (..) وهمس كمال حسن على فى أذنى بحلول وسط، وقلد صوت السادات: «يا بطرس، بطّل تغيظ الإسرائيليين» (..) وخرجنا بحل وسط أخرق لتغطية فشلنا، وأحسست بالمرارة والإحباط (؟؟)... والآن وبعد مضى أربع سنوات، حدث ما كنت أخشاه. لقد قتل السادات نفسُ النوع من المتعصبين الذين قتلوا جدى فى عام «١٩١٠»

وقفة أخيرة: لم ترهقنى دراسة قمت بها كما أرهقتنى هذه القراءة الانتقائية لكتاب من أهم الكتب التى قرأتها، فلقد كنت حريصا، وأنا أختار هذا الأسلوب الجديد فى تقديم الكتاب إلى القارئ بنفس كلمات وتعبيرات كاتبه، على أن أحترم اختيارات بطرس غالى الأدبية واللغوية، علما أن بعضها يتناقض مع قناعاتى، بالإضافة إلى التناقضات السياسية. ولقد احترمت النقاط والفواصل، ولم أحذف كلمة واحدة ترتبط بسياق الجملة التى أوردها أو بالفكرة التى يستعرضها الملف. ولن أفسد ما اطلع عليه القارئ بالتحليلات، فقد يكون أقدر منى على التحليل الموضوعى وقد وضعت أمامه أهم عناصره. لكننى للأمانة أنصح القارئ المهتم بالإطلاع على الكتاب نفسه وقراءته أكثر من مرة، لأنه يرسم بصدق وبنزاهة غير مألوفة فى الكتابات السياسية صورة واضحة عن عصر غامض.

وأعتذر للدكتور بطرس بطرس غالى عن كل تقصير فى تقديم جهده الكبير للقارئ. ■

---

1 sdfootnote1anc. المألوف فى هذه الحالات أن الوزراء لا يتركون لمبادراتهم بل يوضع اسم كل منهم أو رقم يشير له على درجات المنصة المخصصة للتصوير وبالتالى فأنا أتصور أن تصرف غالى هنا هو نوع من التصوير الكاريكاتورى للموقف لزوم الدراما اللغوية.

2 sdfootnote2anc. رُفع علم فلسطين فى البداية على واجهة الفندق ثم نزع بطلب من السفير الإسرائيلى ساسون

3 sdfootnote3anc. أثبت الأستاذ هيكل كذب هذا الادعاء.

4 sdfootnote4anc. يُعتقد أن الصديق هو الأخضر الإبراهيمى وزير الخارجية الجزائرى الأسبق.

5 sdfootnote5anc. فى تناقض مع احترام مبدأ الحدود الموروثة عند الاستقلال والذى أقرته منظمة الوحدة الإفريقية.

6 sdfootnote6anc. تبدو هنا أهمية النظرة المستقبلية لبطرس غالى فيما يتعلق بمياه النيل.

كتاب الزاوية

محمد عفيفى مطر

(٢)

الأرض القديمة

رأيتُها فى صكوكِ الإرثِ مكتوبه
سِفْراً من الإنسانِ والإزميل
والحجرِ
رأيتُها من شقوقِ الصيفِ
مسكوبه
غاباتِ أيدٍ ترعرعُ فى دمِ الشجرِ
وأَوْجُهاً منْ حميمِ الطمى مجلوبه
منسوجة بالفروعِ الخُضَرِ والثمرِ
وأعظُماً غالبتْ أكفانَها، انقلبتْ
فراشةً حمراءَ مخضوبه
بالنارِ والغيمِ والرّهَجِ الدوّارِ فى
السفرِ..
كانت صكوكُ الإرثِ مختومه
بخاتمٍ ملتهبٍ وأحرفٍ مشويّه
وكان فى أطرافِها منْ سلّةِ الأيامْ
زخرفةٌ كوفيّه
وأَثَرُ القوافلِ المغبرّةِ الأعلامْ
والزحمةُ التى تشبهُ عشّ البومه
وطرّةُ السيّافِ والإمامْ
والصرخةُ المكتومه !
حين تقصّفتْ أصابعى ويبستْ
مفاصلُ الراحلة الملعونه
وقفتُ فى الصحراءِ تحت الشمسْ
أنتظرُ الطغراءَ والأوامرَ الميمونه
كى أستطيع الهمسْ.
وقفتُ فى الصحراءِ واجماً مُقنّعاً
أنظر جِلْدَ الأرضْ
مستبدلاً منتسخاً مرقّعا
وكلما ثبّتت الشمسُ رماحَها
الحمراءَ فى جمجمتى
قطعتُ رحلةَ الوقوفِ بالقراءه..

"ياعـــزيزى كلنــــــا..."

محمــــد رءوف حــــامد

رغم أن لعمليات الفساد، مهما تعددت صوره، نفس الجوهر (أو الطبيعة)، إلا أن الحس بالفساد، بمعنى التمكن من فهمه والإحاطة بأبعاده بشكل صحيح، ليس بالأمر السهل. السبب فى ذلك يرجع إلى أن الحس الصحيح بالفساد يتطلب القدرة على رؤيته من خلال أبعاده الحقيقية، ذلك بينما هذه الأبعاد تبزغ وتتشابك عبر منظومة من الحركيات المتعددة والمعقدة داخل السياق الأكبر، وهو السياق المجتمعى العام.

■■ من هذا المنظور فإن الفهم الصحيح للفساد يظل مسألة خاضعة للتطور بإستمرار، من خلال المزيد والمزيد من الدراسات النظرية والعملية. وعليه، فإن التوصل إلى الحد الأدنى المناسب من الفهم والإدراك للفساد بأبعاده المختلفة، يصعب أن يتحقق بنجاح بالاعتماد على رؤية (أو نظرية) واحدة بذاتها. ولأن التنظير للفساد يتزايد حاليا بشكل مكثف، فإن من المتوقع أن تطرأ على نظريات الفساد إضافات وتحويرات تصل بها إلى مزيد من النضج. ذلك التوجه (أو الشأن) يجعل هناك حاجة، ليس فقط لاستيعاب أكثر من نظرية واحدة عن الفساد، على غرار النظريتين المشار إليهما فى الجزء السابق (الفصل الأول - ثالثا)، نظرية «العدوى»، ونظرية «الانحطاط الحلزونى»، ولكن أيضا الإحاطة، بقدر مناسب، بالعديد من الأبعاد الرئيسية والتنظيرات الأولية، التى تكشف تفاصيل أكثر عن حركيات وسياقات الفساد، والتى هى، إما تساهم فى فهم نظريات موجودة بالفعل، أو من المتوقع أن يكون لها أثر رئيسى فى تطوير هذه النظريات والارتقاء منها إلى نظريات جديدة أكثر اكتمالا. ذلك فضلا عن الحاجة الأساسية للقائمين على (والمساهمين فى) عمليات مجابهة الفساد ورفضه، إلى التسلح بالقدرة الذاتية على الفهم والتفسير (والتوقع) لأية مستجدات يستحدثها المفسدون، فى سعيهم (والتفافهم) الدائم لتوسيع ونشر حركيات الفساد.

من أجل ذلك نختار للتناول هنا ثلاثة أبعاد رئيسية، تمثل تفاصيلها شروحات ضرورية فيما يتعلق بالبنية الرئيسية للفساد.

أولاً: التبرير - قوة دفع وتغطية:

ربما يمكن تصنيف الممارسين للفساد إلى نوعين. النوع الأول، من يمكن اعتبارهم فاسدين أصليين، ذلك بمعنى أنهم يسعون لممارسة الفساد، ويعملون على تطوير ممارستهم له، وتعظيم مكاسبهم من خلاله، بل وتطوير الفساد ذاته. لا أحد من هؤلاء يمكن أن يقر ويعترف بأن ما يمارسه يعتبر فسادا. إنهم يتقنون فن التبرير. وأما النوع الثانى، فيشمل هؤلاء الذين يمارسون الفساد فى سياق من الاتباع، و/أو قلة الحيلة، و/أو الاستسهال. إنهم - إلى حد ما - يمثلون مستوى الأشخاص العاديين فى الشارع. هم يعرفون أن ما يمارسونه يعتبر فسادا، وبعضهم، إن لم يكن معظمهم، يقرون بذلك. غير أن كلا منهم يبرر انحرافه بالقول: «حسنا، إذا كان الجميع يمارسون الفساد، لماذا يجب على أنا ألا أمارسه»، تماما كما أشار إلى ذلك جونار ميدرال السويدى الحاصل على جائزة نوبل، فى كتاب له صدر عام ١٩٦٨، وكان من أوائل من أشاروا إلى مكانة «التبرير» فى ممارسة الفساد (Mydral، ١٩٦٨).

الحقيقة أن التبرير حجر زاوية فى ممارسة الفساد. له أشكاله وله دوره، سواء فيما يتعلق بحماية المفسد والتغطية على العملية الإفسادية، أو فيما يختص بتطوير الممارسات الإفسادية كما وكيفا.

وهكذا، يمكن الإشارة إلى مكانة «التبرير» فى ممارسات الفساد من خلال عرض لبعض أشكاله، وحجم الدور الذى يلعبه.

أ) أشكال (وأساليب) التبرير:

١- أساليب التبرير عند القيادات:

لاحظت اللجنة العليا المسئولة عن إعمال القانون والتسيير الإدارى فى الولايات المتحدة أن «المسئولين عن استفحال الفساد هم عادة من شاغلى المناصب القيادية فى مؤسساتهم، وأن ممارساتهم تؤسس لنموذج بشأن الانتهاك الأخلاقى للقانون، وإعطاء الفرصة للمخالفين للقانون لتبرير سلوكهم» (Cressey، ١٩٧٨).

لقد وجد أن قيام القيادات (الفاسدة) بدعم النزعة التبريرية عند مرؤوسيهم من الخارجين عن الالتزام بالقانون، يتم فى سياق تضافرى تحت مظلة قيام القيادات ذاتها بممارسة السلوك التبريرى لما يقومون هم به (القيادات) من سلوكيات فساد. لقد تم رصد ثلاث طرق تبريرية مختلفة تلجأ إليها القيادات لتمرير انحرافاتهم فى توجيه الأمور(Werner، ١٩٨٣).

الطريقة الأولى تتمثل فى تنصيب القيادات لأنفسهم باعتبارهم الوحيدين القادرين على التمييز بين العطايا (أو الميزات) التى يُعد قبولها مشروعًا (أى لا يخرج عن الأمانة) وتلك التى يعتبر قبولها غير مشروع.

وأما الطريقة الثانية فهى ادعاؤهم (القيادات) بأن سياقات وظروفا معينة تدفعهم إلى تغيير القواعد، وأن تلك هى مسئوليتهم، أن يقبلوا ما يمكن أن يعتبر فسادا، طالما أن ذلك يجرى من أجل المصلحة (أو الخير) للمؤسسة (والتى يتعاملون مع أمورها كما لو أنها مملكتهم الخاصة).

وأما إذا وقعت الممارسة الإفسادية، فإن ذلك يكون مدعاة للقيادات لاستعمال الطريقة الثالثة، والتى تتمثل فى اللجوء إلى تجنب المسئولية عن الفساد باستخدام «التقنيات القانونية» (وذلك بمعنى الهروب من خلال القانون). إنهم عندها، يلعنون المنظومة ولا يجدون أنفسهم مسئولين عن أى ذنب. هذه الطريقة الثالثة فى التبرير تعد مدخلا عمليا لإساءة استخدام منظومات العمل.

هنا، تجدر الإشارة إلى اتجاه جرى إستفحاله مؤخرا، وهو أن بعض القيادات يجلبون مستشارين قانونيين للعمل فى مؤسساتهم تكون مهمتهم الأساسية (والخاصة جدا) المساعدة فى تمكينهم من استخدام الطريقة الثالثة سالفة الذكر (التغطية على الفساد والهروب من المحاسبة باستخدام القانون).

٢- الاحتماء بالقائد الأعلى:

يمارس هذا الميكانيزم التبريرى بواسطة أفراد ذات عزم فوق العادى فى ممارسة الفساد. إنهم يلجأون إلى الاحتماء بالسلطة الأعلى من السلطة المباشرة لهم (Zyglidopoulos et al، ٢٠٠٨). تو أن يكتشف خروجهم فى تصرفاتهم عن الممارسات الصحيحة فى العمل فإنهم يتقدمون بالتظلم إلى السلطة الأعلى مختلقين ادعاءات غير حقيقية. عادة إذا كانت السلطة الأعلى على دراية وخبرة وأمانة، فإن التعامل مع الموضوع يجرى داخل سياقاته وأطره التنظيمية القائمة، وبشكل نزيه، ولا يتأثر بأى ادعاءات لصاحب السلوك المنحرف. وأما إذا كانت السلطة الأعلى قليلة الخبرة، فإنها قد تخدع بواسطة ادعاءات الشخص المنحرف، ويكون فى تصرفاتها قدر من التردد وعدم الحسم، الأمر الذى يخلق أمام الأخير فرصة لتخطى (أو تخفيف) المحاسبة. غير أن هناك إحتمالا ثالثا، وهو أن تكون السلطة الأعلى هى الأخرى ذات نزعة إفسادية. عندها فإن القائد (الإفسادى) يعتبر نفسه قد اكتشف ثروة. لقد اكتشف

يصدر قريبا للمؤلف كتاب حول الموضوع ذاته، عن دار العين للنشر - القاهرة

الـــرقـــص مـــع

الفساد!!

عنصرا فاسداً بطبيعته (أو على استعداد للتمادى فى الفساد) داخل إحدى منظومات العمل. النتيجة تكون، ليس فقط مساندة من القائد للشخص المنحرف بمساعدته على المواءمة التبريرية للخروج من تحت طائل المحاسبة والردع، وإنما استخدام الشخص المنحرف فى مهمة تغيير قيم ونواميس العمل فى المنظومة الأدنى، بحيث يتزايد عدد المنحرفين داخل هذه المنظومة، ويتم تعضيدهم. الهدف هنا يكون إضعاف وإنهاك التوجهات الانضباطية فى المنظومات الأدنى، وبالتالى إطلاق إمكانات وفرص أكبر للممارسات الإفسادية على المستوى المنظومى (المؤسسى) الأكبر.

٣. ذريعة عدم الحاق الأذى بأحد:

الهدف الأساسى من اللجوء إلى السلوك التبريرى هو اكتساب سلامة فى الموقف تجاه الآخر، بحيث يصبح هذا الموقف لا غبار عليه من قبل الآخرين، وبالتالى يبدو الموقف (أو الشخص) لهؤلاء الآخرين وكأنه غير مشكوك فى سلامته (أو أمانته). المفسدون يبذلون جهدا تبريريا خارقا من أجل المحافظة على عدم الشك فى سلوكياتهم، بحيث تكتسب هذه السلوكيات الإيحاء بأنها عادلة. الإيحاء بذلك أمر فى غاية الأهمية والحيوية عند المفسدين. إنه يساعدهم على المحافظة على اتساق وتكامل نفسى، وبالتالى يساعدهم على الاستمرار فى الظهور بمظهر مقبول عند الآخرين، الأمر الذى يتيح لهم التواصل فى سلوكياتهم الإفسادية، وفى جنى ما يحصدونه منها من فوائد شخصية. إضافة إلى ذلك فإن تأمين هذا المناخ التبريرى يحقق لهم تجنب المساءلة. المدخل المهم، والبسيط فى نفس الوقت، الذى يستخدمه المفسدون لكى يحافظوا على قبول الآخرين لتصرفاتهم وعدم تضررهم منها هو الادعاء والترويج والدفع بأن «سلوكهم لم يرجع بالأذى على أحد».

قبول هذا الدفع يرجع عادة إلى سببين رئيسيين. السبب الأول هو القصور فى الثقافة والإدراك، الأمر الذى يحجب - عن المتلقى - رؤية التداعيات المنظومية وتلك طويلة المدى من جراء حصول فرد أو كيان على فوائد لا يستحقها (هنا يمكن للقارئ أن يرجع إلى الجزء الخاص بانعكاسات الفساد فى الفصل السابق. وأما السبب الثانى (والذى هو مكمل للسبب الأول)، فيكمن فى أنانية المتلقى، حيث هو هنا لا يدرك الضرر، إلا إذا وقع عليه بشكل شخصى ومباشر وعاجل.

٤. توقع طريقة لعب المباراة بواسطة الآخرين:

فى الألعاب الجماعية، مثل رياضة كرة القدم، تكون هناك إستراتيجية للعب، ويمارس اللاعبون أدوارهم فى إنجاز هذه الإستراتيجية عن طريق أعباء مختلفة (لكن متكاملة) يؤديها كل منهم. إستراتيجية (أو طريقة) اللعب هنا، تعتمد على قيام كل لاعب بالواجبات المكلف بها، فهذا يحرس المرمى، وهذا يقوم بجهد دفاعى من ناحية اليمين وذاك يراقب لاعبا معينا فى الفريق الآخر بطريقة يسمونها رجل لرجل، وثالث يقود الهجمات من منتصف الملعب... الخ.. الخ.

إذا كان موقف اللاعبين فى مباريات كرة القدم يصنع فى إطار عمل جماعى، أو ما يسمى إستراتيجية فريق العمل، فإن مواقف اللاعبين فى أنواع أخرى من المباريات (أو الأحداث الحياتية)، تختلف اختلافا جذريا. فى أحداث (أو مباريات) الفساد يحدد اللاعب (أو الفرد عضو المؤسسة أو عضو المجتمع) موقفه، أو طريقة لعبه (أى طريقة تفاعله مع الأحداث) بناء على ما يمكن أن يتوقعه هو عن الإستراتيجية (أو المنطق) الأكثر احتمالا للعب (أو للاتباع) بواسطة كل الآخرين. هذا التفاعل بين منطق الفرد الواحد، وما يتوقعه هذا الفرد الواحد أن يكون المنطق الأكثر احتمالا عند كل فرد من الآخرين هو ما يطلق عليه «مفهوم التمنطق التفاعلى»، إذا جاز التعبير (Interactive rationality concept)، والذى وضع عام ٢٠٠٥ بواسطة كل من روبرت أومان (الحاصل على جائزة نوبل) وجاك دريز (Aumann and Dreze، ٢٠٠٥). من الناحية العملية، يمكن أن يطلق على هذا المفهوم «مفهوم التفاعل التبريرى».

أساس فكرة «أومان ودريز» أن اختيار الفرد للإستراتيجية التى يلعب بها تختلف كثيرا، بناء على تصوره عن الإستراتيجية التى يمكن أن يقع عليها إختيار كل فرد من كافة الآخرين. لقد وجد

بوروسشتاين (Rothstein, 2007) فى هذا المفهوم تفسيرا للنزعة التبريرية للفساد عند الأفراد.

فى هذا الإطار فإن الموقف (موقف الفرد/ كل فرد) من من ممارسة الفساد (أو عدم الأمانة) يكون كالتالى:

«أعتقد ان باستطاعتك أن تكون أمينا، وذلك إذا كنت أعتقد أنك أنت تعتقد أننى يمكن أن أكون أمينا».

وبتعبير آخر، إنه (أى الموقف من ممارسة الفساد) يتبع المنطق التبريرى التالى:

«السبب فى اعتقادك أن معظم الآخرين سوف يتصرفون بأمانة (أو بعدم أمانة)، هو أنك أيضا تعتقد أن آخرين مثلك سوف يتصرفون بأمانة (أو بعدم أمانة)».

من الواضح أن دوافع ما، تقود الأفراد إلى اتباع هذا المفهوم، مفهوم «التمنطق التفاعلى» أو «التفاعل التبريرى» المؤدى إلى الفساد. من هذه الدوافع يمكن الإشارة إلى:

إحساس المواطن الفرد برغبة الجميع فى تحقيق فوائدهم (أو منافعهم) الخاصة.

إحساس المواطن الفرد بعدم جدوى أن يكون اللاعب الوحيد الذى يلعب بأمانة، حيث لن يغير نتيجة المباراة (الخاصة بالفساد).

وعليه، فإن تفسير الفساد من منظور هذا المنطق التبريرى (والذى يرجع الفضل فيه إلى بو روزشتاين، وأومان، ودريز) يعنى القبول بالافتراضات التالية:

أن الفساد (أو عدم الفساد) ظاهرة تتمتع بدفع ذاتى.

أن التحول على المستوى المؤسسى (أو المجتمعى) من حالة ممارسات الفساد إلى عكسها (حالة الأمانة)، مسألة لا يمكن حدوثها إلا بتوقف معظم الأفراد (أعضاء المؤسسة أو المجتمع) عن الاستناد التلقائى إلى (أو اللعب بطريقة) المنطق التبريرى المؤدى إلى الفساد.

أن الخلاص من حالة الفساد يمكن أن يكون أمرا متاحا إذا ما تحول الأفراد إلى استخدام المنطق التبريرى فى اتجاه مضاد للفساد، بمعنى أن معظم الآخرين يتصرفون بأمانة.. الخ.

أن شيوع المنطق التبريرى المؤدى إلى الفساد ناتج عن واقع حياتى (مؤسسى أو مجتمعى)، وعليه فلا يمكن أن يتوقع تحول الأفراد عن هذا المنطق تحولا مؤثرا على استمرارية هذا الواقع ما لم يتغير الواقع ذاته. هنا تأتى الإشارة إلى الأثر السلبى الحاد لشيوع الفساد على مستوى قيادات حكومية و/أو قيادات فى الحزب الحاكم.

أن تغيير الواقع المؤسسى (أو المجتمعى) إلى اتجاه يجعل الأفراد يتحولون إلى إستخدام المنطق التبريرى فى اتجاه مضاد للفساد هو أمر ليس منوط بالأفراد العاديين، ولا يتوقع أن يبادروا باتخاذه، حيث لا يتصور - عمليا - أن يأتى هذا التحول من جانبهم إلا كانعكاس لتغيير جذرى (مؤسسى أو مجتمعى) يحسون به على مدار اليوم وفى كافة شئون حياتهم.

المسألة إذن أن تفسير الفساد بـ «طريقة لعب المباراة» إنما يعنى لزوم حدوث تغيير مؤسسى أو مجتمعى على المستوى القيادى بقدر وبطريقة يكون من شأنهما انسياب وتغلغل لسلوكيات مضادة للفساد عبر كافة المستويات والوحدات فى المؤسسة أو المجتمع. فى هذا الخصوص، من الوارد أن ينطبق تعبير «المستوى القيادى»، ليس فقط على القيادات السياسية الرسمية الحكومية، بل وأيضا، وبشدة، على القيادات الفكرية والشعبية (ومعها أو من بينها قيادات الفكر الدينى والتعليم والإعلام).

٥ - التذرع بفساد المنظومة (أو السيستيم):

كلما اشتدت سيادة الفساد على مجريات أمور المؤسسة (أو المجتمع ككل كلما إزداد ضلوع الأفراد العاديين فى الممارسات الإفسادية. وإذا كانت نسبة منهم قد تجد تحقيقا لذاتها فى هذه الممارسات، فإن النسبة الأكبر تحتفظ بموقف داخلى ذاتى غير راض عن الفساد رغم ممارسته. هؤلاء الذين يعتبرون الفساد خطأ أخلاقيا، رغم ممارستهم له، يتذرعون فى اضطرارهم للضلوع فيه بفساد المنظومة ككل. إنهم لم يتغيروا داخليا بعد (Karklins, 2005)، وهم على ثقة بأنهم يمكن أن يتوقفوا عن المشاركة فى ممارسات إفسادية إذا ما توقف الآخرون عن ممارستها، أو بمعنى آخر، إذا ما رجع النظام (أو المنظومة) عن الفساد.

إذا جوبه خطأ ما برد فعل تبريرى، فإن التبرير هنا قد يكون من شأنه التغطية على الخطأ

(ب) وظيفة التبرير:

إذا جوبه خطأ ما برد فعل تبريرى، فإن التبرير هنا قد يكون من شأنه التغطية على الخطأ. وأما إذا كان الخطأ يتمثل فى ممارسة لفساد ما، فإن القصد من التبرير يكون، ليس فقط لتغطية وتمرير الفساد، وإنما أيضًا لتعظيم الممارسات الإفسادية بوجه عام. حدوث تعظيم لممارسات إفسادية بواسطة «التبرير» يحدث من خلال ما يقدمه التبرير من مهام تالية.

١- إحداث خروج عن الشرعية المتضمنة فى النظم واللوائح والقوانين:

مع استمرار النهج التبريرى بخصوص عمليات الفساد تزداد وقائع الخروج عن الشرعية كما وكيفا، بحيث يصبح الفساد هو المتحكم فى مجريات الأمور عن طريق نظم ولوائح وقوانين إفسادية غير مكتوبة، لكنها معروفة ومعرفة.

٢- الترابط مع بزوغ الفساد وتطوره:

إذا كان التبرير يقصد التغطية على الخروج على القواعد والقوانين المرعية، وبالتالى السماح بتواجد الفساد، فإنه يجدر الإنتباه إلى وجود تشارك وترابط بين كل من بزوغ الفساد ونشأة التبرير. الفساد يحتاج إلى التبرير، والتبرير يغطى على الفساد، ومع تطور الفساد يتطور التبرير المطلوب، بحيث مع تضخم قدر الفساد والمفسدين يمكن أن يصل التبرير إلى نهاية عظمى ينقلب بعدها (أو يتحول) إلى وسيلة أخرى بديلة، قد تتضمن عنفا مباشرا. إنه عنف متعدد الاتجاهات، فهو عنف فى ممارسة الفساد، وعنف ضد الراصدين والمجابهين والرافضين له. العنف ضد الآخر هنا قد يصل إلى حد تلويث السمعة والعنف الجسدى.

٣- التكبير المتزايد (أو التعظيم التعويضى) للفساد:

عندما يقوم الممارس للعملية الإفسادية بممارسة التبرير، فإن جهده التبريرى لا يكون فقط بالقدر اللازم للتغطية التى يمكن أن تكافئ القدر الذى قام (أو يقوم) به من فساد. إن تبريره يكون أكثر من المتوقع أو أعلى من القدر الذى يمكن أن يعادل الفعل التعضيدى للتغطية. زيادة الشحنة التبريرية (فى موقف التغطية) يكون له عائدان إستراتيجيان لصالح الفساد والمفسدين. العائد الأول يتمثل فى التغطية ،أكثر وأكثر، على فساد آخر يكون قد تم فى الماضى. وأما العائد الآخر فيكون إتاحة (أو الحصول على) مزيد من الفرص لممارسة فساد أكبر قدرًا وحجمًا فى أوقات لاحقة، أنظر الشكل رقم ٥. بمعنى آخر، فإن زيادة المستوى التبريرى عن قدر (أو حجم) الفساد ينشئ إمكانية القفز إلى فساد أكبر فى المستوى وأعلى فى الحجم. إنها ظاهرة غاية فى الأهمية يطلق عليها «الأثر التعويضى الزائد عن الحد» Overcompensation8 Zyglidopulos (etal, 200.

وهكذا، من خلال القفزات المتتابعة للممارسة الإفسادية بالاعتماد على التبرير، يكون للتبرير دور فى تمدد الفساد وتطويره تطويرًا متسارعًا.

والآن، بعد هذا العرض الموجز بخصوص أشكال وأدوار التبرير بالنسبة للفساد، فإن من أهم ما يجدر الانتباه إليه فى هذا الشأن هو أن التبرير هنا يعتبر - فى الأساس - وسيلة. وعليه، فمن المفيد النظر إلى التبرير كعنصر رئيسى فى المدخلات in puts إلى الفساد وكذلك فى حركيات الفساد. معنى ذلك أن فهم التبرير (كطبيعة وأشكال ودور) يعتبر عاملا مساعدا مهما فى أية مقاربات وجهود لمجابهة وتحجيم الفساد الأمر الذى جرت مقاربته فى بحوث عديدة من أبعاد إدارية ونفسية واجتماعية سياسية مختلفة (Darley 1992, Audi 1983 and Ashforth and Brief et al 2003 (Anand 2001.

فى هذا الخصوص قد يكون من الملائم الالتفات إلى نقطتين.

النقطة الأولى: أن نهج تساهل القيادات مع التبرير (رغم خطورته)، بمعنى قبوله وتمريره، هو أمر لا يمكن حدوثه، والاستمرار فى حدوثه، على مجرد خلفية من تبادل للمصالح الخاصة (أى الفساد المشترك) مع القيادات المتساهلة، أو الغباء والعته من جانب هذه القيادات. حيث ،فى كلتا الحالتين، الفساد المشترك أو الغباء والعته، فإن فساد المنظومة الأعلى (أوالحكومة و/أو النظام السياسى) هو المسئول عن اختيار القيادات واستمرارها، فضلاً عن ارتقائها.

أما النقطة الثانية فهى أن التبرير، كوسيلة، هو أداة تمكين للمفسدين. وإذا ما تم للمفسدين ،كأفراد وكشبكة، استنفاذ كل الاستفادات الممكنة من هذه الوسيلة، فإنهم سيلجئون. بهدف مواصلة تعظيم الفساد ـ إلى وسيلة أو وسائل أخرى، والتى ستكون أكثر مباشرة. الاحتمال الأكبر هنا هو أن الوسيلة (أو الوسائل الأخرى) ستكون أكثر عنفا كما أشرنا فى السطور أعلاه. قد يكون العنف هنا فيزيائيا مباشرا (مثلا: ضد المضادين للفساد من الإداريين ورجال القضاء والمفكرين). أيضًا قد يأخذ العنف صورة التمكن من شراء أصوات من يمكن أن يكون لهم صوت، سواء عند إتخاذ القرار فى منظومات العمل، أو فى أية ممارسات لها طابع الرأى، مثل الإنتخابات أو الإستفتاءات .. الخ.

ثانيًا: حركيات تمدد و«فوران» الفساد

إذا ما تُرِكَ وعاء على اللهب لفترة أطول من اللازم (أى بعد الوصول إلى درجة الغليان) دون مراقبة، فإن حجم اللبن يزداد، ويستمر فى الازدياد حتى ينسكب خارج الوعاء فيملأ المكان.

بالتأكيد يستحيل هنا أن نشبه الفساد باللبن، إنما يمكن أن نشبهه بعملية الفوران ذاتها، وما يصاحبها من تمدد وإنسكاب.

هذا حقيقى. الفساد إذا وُجد (أو سُمح له بالبزوغ) فإنه لا يظل على حاله، فى حجمه، أو درجته، أو شدته. إنه، أى الفساد، لا يعيش (طالما وُجد) إلا بالتمدد والتكاثر والانتشار.

حالة ازدياد الفساد من خلال تمدده تُعرف فى الكتابات المتخصصة بتعبير Spill over. البعض يترجم هذا التعبير بلفظة «وفورات»، إننا نحس به أكثر عندما نشير إليه باعتباره «تمددات أو امتدادات» أو «فورانات».

هذا ويمكن تناول خاصية «إمتدادت» الفساد من خلال ما يلى:

(أ) طبيعة الانتشار الذاتى للفساد:

الفساد ذاتى التغذية. إنه يتضخم ذاتيًا. طالما وُجد فإنه (أى الفساد) كفيل بذاته، قادر على خلق وتفعيل وتكبير أدوات حفظه ونموه. فى هذا الخصوص، بعض الخبراء يشبهون الفساد بالسرطان. إنه يزيد من الخلل التنظيمى والفوضى واللانظام أينما وجد، لكنه هو نفسه يكبر ويستفحل. استفحاله وتفاقمه يجريان بالتوازى تمامًا مع ما يحدث حوله، ويخلقه (ويخلفه)، من معاناة وكوارث.

الفساد إذن يمنع التطور والإصلاح (مؤسسيًا ومجتمعيًا)، وحتى إذا ما جرت محاولات للإصلاح فى وجود الفساد، فإنها تتحول ـ بسهولة ـ إلى عمليات فساد. ذلك، وكأن الأضرار الناجمة عن الفساد تكاد تستحيل معالجتها، حيث الفساد، طالما وجد، فإنه يكون وسيطًا (أو وسطًا) للمزيد من الفساد.

فى هذا الصدد توجد أمثلة كثيرة، يمكن أن يجدها المواطن حوله، إذا ما كان يعيش فى أحد المجتمعات التى تتخلف (فى المؤشرات الإنسانية)، مع مرور الزمن. ذلك إضافة إلى أمثلة من نموذج حى سنرجع إليه فى مكان آخر من هذا الإصدار.

(ب) دور «الأمير» فى الانتشار الأسموزى للفساد:

الأمير هنا هو «القائد» أو «المدير» أو «الرئيس». لقد جرت الإشارة فى سطور سابقة إلى الأشكال التبريرية التى يمارسها القائد. وبينما تمثل هذه الأشكال ركيزة لإحداث امتدادات للفساد، فإن هناك بعدا آخر أكثر أهمية ينبغى أخذه فى الاعتبار، وهو أن للقائد إمكانات فذة فى انتشار الفساد، ينبع أهمها من مجرد أنه هو القائد، أو (الأمير).

هنا (فى هذا المقام، وخاصة فى المجتمعات المتخلفة)، تصدق مقولة مكيافيللى: «ما يفعله الأمير سيفعله عديدون آخرون غيره، حيث الأمير وأفعاله يكونان دائمًا فى عيونهم». (مرجع: Werner, ١٩٨٣).

بمعنى آخر للقيادات وزن كبير فى تشكيل الرأى والسلوك من حولهم (مؤسسيًا ومجتمعيًا)، إن لقيمهم ولممارستهم تأثيرات وانعكاسات مباشرة على كافة مرؤوسيهم.

هذه التأثيرات على المرؤسين تشمل ولاءهم للعمل، ونوع القيم التى يحترمونها ويلتزمون بها، وبالتالى هى تشمل مدى تكاملهم مع مهامهم، وأيضًا تكاملهم الداخلى الذاتى كأفراد.

من هذا المنظور، منظور تأثير القائد على المحيطين به فى منظومة العمل، يكون للقائد امتداداته الإفسادية المتنامية دومًا، إذا ما كان يتبع سلوكيات فاسدة.

وفى المقابل تكون له مكانته فى تحجيم الفساد إذا ما كان قائداً جيداً.

فى هذا الخصوص، سبقت الإشارة إلى ملاحظة لجنة حكومية عُليا فى الولايات المتحدة. كانت الملاحظة تقول بمسئولية القيادات الفاسدة عن إضعاف وإنهاك الأسس الأخلاقية للقانون فى مؤسساتهم، وذلك بالقدر الذى أعطى للخارجين عن الشرعية فى سلوكياتهم الفرص لتبرير هذه السلوكيات.

وهكذا الحركيات الامتدادية للفساد، تحت تأثير القائد الفاسد، تحدث من خلال كونه، «نموذجا للآخرين» باعتباره قائدا، وكذلك من خلال تبريراته لنفسه، وسماحه وتعضيده للتبريرات الإفسادية الصادرة من الآخرين.

هذه الحركيات جعلت البعض يصف دور القائد بشأن امتدادات الفساد بأنه يجعل الفساد ينتشر بطريقة «أسموزية»، أى ينتشر بسرعة دون أى عوائق عبر الأفراد والمجموعات، ووحدات العمل. الإنتشار الأسموزى للفساد يعنى عبوره إلى حيث تكون مستويات الفساد قليلة أو منعدمة، فى أية مجالات أو منظومات، الأمر الذى يجعل جسم المؤسسة (أو المجتمع أو الدولة)، يعج بدرجات متكافئة من الفساد فى غضون فترات زمنية وجيزة.

الحقيقة أن من أبرز الخصائص التى تكشف القيادات العليا الفاسدة هى وجود فجوة واضحة بين ادعاءاتهم الإعلامية من ناحية، وممارستهم على أرض الواقع من ناحية أخرى، من أمثلة ذلك تلك الفجوة ادعائهم محاربة الفساد، بينما هم من الناحية العلمية يعملون ضد من هم ضد الفساد. (Halaya, 1975)

(ج) الفساد الصامت:

المشكلة بالنسبة للكثيرين أن هناك فساداً صامتًا، غير مرئى، وغير محسوس به، ولا يستوجب العقاب من منظور المسئولين العموميين

الفساد الزاعق.. أى المباشر الواضح، يسهل على الجميع ملاحظته والحس به واتخاذ موقف منه أو معه، ولأنه واضح ومحسوس به، (حتى لو وُجِد وانتشر من خلال التبرير)، فإنه من ناحية اللون يكون مرئيًا، أحيانا يكون رماديًا، وأحيانًا يكون أسود، وذلك طبقًا لشدته، واحتمالية التنبه إليه، وانعكاساته، ودرجات تكاثره.

المشكلة بالنسبة للكثيرين أن هناك فساداً صامتاً، غير مرئى، وغير محسوس به، ولا يستوجب العقاب من منظور المسئولين العموميين (Werner, 1983).

من خصائص هذا النوع من الفساد، والذى يطلق عليه أحيانًا الفساد الأبيض، أنه يتم ـ شكلاً ـ من خلال الصداقة وحُسْن النية (أو ما يبدو أنه كذلك، حيث الحقيقة أن هذه الصداقة تبزغ وتتطور فى إطار ومن خلال الفساد والمصالح الخاصة غير الشرعية). من خصائصه أيضًا أنه يظهر وكأنه غير مؤذ، حيث يصعب تحديد شخص بذاته يكون قد تعرض للأذى من جرائه.

إضافةً إلى ذلك فإن هذا الفساد الصامت أو الأبيض يصعب إعتباره مضاداً للقانون وإن كان يستفيد من ثغرات أو فجوات فيه (أى فى القانون) بحرفيّة بالغة. إنه يستعمل (أو يوظف) القانون لصالحه.

ولأنه يبدو صغيراً (فى حجمه وتبعاته كسلوك)، ويقع على الحدود بين الخطأ والصواب، فإنه يكون من السهل تبريره، وهكذا، تكون النتيجة تهميشه وإهماله، بينما هو يتزايد ويتكاثر، ويضر بالمصلحة العامة.

ذلك إضافةً إلى مساهمته فى تسهيل ممارسة الفساد الصريح، وتحوله هو نفسه إلى فساد مباشر وأكثر قتامة.

ربما تكون هناك حاجة للإشارة إلى أمثلة لسلوكيات الفساد الأبيض، (أو الفساد الصامت)، والتى توجد على غرارها ممارسات عديدة تجرى من حولنا دون انتباه مناسب.

فيما يلى نشير إلى بعض الأمثلة:

مثال (١):

استخدام رئيس مؤسسة حكومية للصلاحيات الإجرائية الممنوحة للمؤسسة بشأن استيراد (أو استجلاب) بعض المستلزمات من الخارج، وذلك بأن يستجلب أشياء ليست خاصة بالمؤسسة وإنما خاصة باستخدامات «بيزنس» له، أو لأحد معارفه.

صحيح أن المؤسسة لا تخسر شيئا ماليا مباشرا لأن رئيسها يقوم بتسديد كافة التكاليف، لكن أسئلة عديدة يمكن أن تثار هنا، ويكون من شأنها أن تدل على فساد لم يكن فى

حسبان أعضاء المؤسسة. من أمثال هذه الأسئلة نورد ما يلي:

ما هي مصالح المؤسسة في استهلاك جزء من وقتها وجهدها (جهد ووقت العاملين فيها) في تأدية مهام «بزنسة» ليست خاصة بالمؤسسة (وبالطبع ليست مهام خيرية)؟

ما نوع المصالح التي تعود على شخص رئيس المؤسسة كعائد لاستخدام المؤسسة في استجلاب مستلزمات من الخارج سواءً لشخصه أو لغيره؟

هل في استخدام المؤسسة لاستجلاب هذه المستلزمات ضياع حق ما (أو التداخل مع واجب ما)، يختص بجهة ما في الدولة، مثل مصلحة الضرائب، أو التعبئة والإحصاء.... الخ؟

إلى أي حد يمكن لعملية استخدام المؤسسة في أداء مهام أخرى (تخرج عن أهدافها ومصالحها) أن ينعكس على عدالة التنافسية بين أصحاب الأعمال، ذلك حيث إن أحدهم (سواء رئيس المؤسسة أو صديق له) استخدم (واستفاد من) ميزة ليست متاحة لمنافسيه؟ إضافة إلى ذلك، إذا لجأ منافسوه للتصرف بما يشبه تصرفه، أي استخدام جهة حكومية كوسيط، أليس في ذلك تداخل مع مهام الجهات الحكومية، وشبهات لفوائد خاصة (أي فساد) لصالح رؤسائها (و/أو بعض معاونيه)؟

ثم، أليس في كل ما سبق تعميم لخروج عن الشرعية، حتى وإن لم ينتبه القانون (لسبب أو لآخر)؟

وأيضاً، من الطبيعي التساؤل عن تلك القيم والسلوكيات التي يمكن أن يكتسبها بعض العاملين في المؤسسة وهم يرون خروجا عن الشرعية يمارس في مؤسساتهم بواسطة رئيسها؟!!؟

مثال (٢):

حظوة تسريع إجراءات رقابية ما، تختص بأحد المنتجات، وذلك لأن هذه المنتجات تخص شركة معينة، لرئيسها علاقات صداقة مع رئيس المؤسسة الرقابية.

أيضاً في هذا المثال، رغم أن العملية تبدو بعيدة عن شبهة الفساد، حيث هي مجرد صداقة أو محبة بين رئيسي الجهتين، الشركة المنتجة، والجهة الرقابية، فإن أسئلة عديدة يمكن أن تثار، ويكون من شأنها أن تدل على فساد لم يكن في حسبان العاملين في الجهة الرقابية، وذلك على غرار ما يلي:

أليس من التسريع في إنجاز المتطلبات الرقابية لمنتج شركة ما، بسبب صداقة رئيسها مع رئيس المؤسسة الرقابية، مايشكل إجراء مخالفا لقواعد التنافسية بين الشركات؟

وكيف يكون لمؤسسة رقابية، من واجباتها «الضمنية» الحفاظ على عدالة التنافسية بين الشركات، أن تنحاز إلى طرف دون - أو على حساب - بقية الأطراف؟

هل يا ترى تتأثر دقة العملية الرقابية على المنتجات التي يجرى تسريع اعتماد تقاريرها الرقابية بسبب علاقة الصداقة المشار إليها، سواء كان ذلك بتدخل من رئيس الجهة الرقابية، أو بتكرم ما من أحد معاونيه (رغبة في حظوة ما)؟

من يستطيع أن يؤكد أو ينفي أن يكون التسريع في العملية الرقابية لمنتجات الشركة المشار إليها (بصرف النظر على مدى الالتزام بدقة الإجراءات الرقابية) يجرى أو لا يجرى في إطار تبادل منفعة، وليس مجرد محبة وصداقة بين رئيس الجهة الرقابية ورئيس الشركة؟

وحتى لو افترضنا أن كل ذلك يتم في إطار المحبة، والصداقة، فكيف يمكن القبول بأن تستغل (أو تستخدم) حظوة المحبة والصداقة في التأثير على الإجراءات الرقابية؟

بل وهناك تساؤل آخر يتصاعد إلى ذهن من يهمه الأمر، هل يا ترى يوجد مردود لهذه الصداقة بشكل ما على رئيس الجهة الرقابية؟، وإذا حدث ارتفاع في هذا المردود (نتيجة تسريع «خصوصي» في الإجراءات الرقابية)، ألا يعتبر ذلك، رغم أنه صداقة!!، ورغم عدم تعارضه شكلاً مع القانون!!، استثماراً ما للمكانة الوظيفية للرئيس ؟!!، سواء كان ذلك الاستثمار من جانب رئيس الجهة الرقابية، أو من جانب رئيس الشركة، أو من كليهما ؟؟؟

النتيجة تكون حدوث أنواع ودرجات متفاوتة من الخلل أو الإتلاف لمناخات العمل في سائر المنظومات

ولأن الأمر لا يحدث في الخفاء، حيث المعلومات تنتشر داخل الجهة الرقابية، وكذلك خارجها، فهل يكون لمعنى الحظوة المشار إليها تداعيات مثل: حرص رؤساء بقية الشركات على عقد صداقة مع رئيس الجهة الرقابية؟..... ومن جهة أخرى، ألن يحدث من بعض معاوني رئيس الجهة الرقابية التجرؤ في اتجاه السعي لعمل صداقات ما مماثلة (في التتابعات والمعاني والعائدات)، مع مندوبين للشركات التي تجرى رقابة لمنتجاتها؟؟؟

الحقيقة، في هذا المثال، تماما كما في المثال رقم ١، تساؤلات كثيرة تتصاعد وتتفرع، لكن التساؤل الأم لكل التساؤلات يمكن أن يكون: هل يا ترى يمكن للجهة الرقابية باعتبارها الجهة المنوط إليها قانونياً أن تراقب منتجات ما، أن تظل - رغم هذه الصداقات وتتابعاتها - قادرة على أداء مهامها الرقابية، كما ينبغي لها أن تكون؟؟؟

وفي نفس الوقت يتبع هذا التساؤل الأم تساؤل آخر، وهو: هل إذا كانت مسارات العمل في الجهة الرقابية منضبطة بحق تكون هناك حاجة لرؤساء إحدى الشركات لأن يسعى لتسريع الإجراءات الرقابية لمنتجات شركته؟، أو يكون لرئيس جهة رقابية ما أن يؤدي واجب صداقة بتسريع الرقابة على منتجات لشركة يرأسها أحد أصدقائه.

قد يوافقنا القارئ على ما يتضح من المثالين السابقين من تأهب للخروج عن الشرعية، أو خروج عن الشرعية بالفعل (أي إفساد)، من خلال سلوكيات تكاد تبدو للجميع خالية من أية أغراض خاصة بينما هي في الحقيقة «حاضنة ذكية» لتبادل المنافع الخاصة، على حساب - ومن وراء - الانضباط المنظومي والصالح العام.

هناك عامل مشترك في المثالين السابقين، وهو أن الاحتضان الذكي لإمكانات وعزم الخروج عن الشرعية ينزل بقوة دفع من المستوى الفوقي للمنظومة (أو المجتمع)، ويُبث إلى باقي مستويات المنظومة، أو إلى بقية قيادات المنظومات الموازية.

النتيجة تكون حدوث أنواع ودرجات متفاوتة من الخلل أو الإتلاف لمناخات العمل في سائر المنظومات.

ما نشير إليه في المثال التالي، هو ما يمكن اعتباره نموذجا لأنواع من «الفساد الصامت»، تنشأ من مستويات وسطى في المنظومة، (وليست من القيادات العليا).

لكن ما يجدر الانتباه إليه بشأن هذا المثال أمران مهمان.

الأمر الأول: هو أن هذا النموذج لم يكن لينشأ، (وينتشر)، إلا في ظل وجود تلوث في مناخ المنظومة، أي «تلوث في قيم ومسارات وسلوكيات العمل»، وبالطبع لم يكن ليحدث هذا التلوث المنظومي، وينتشر بعيداً عن مسئولية القيادة.

أما الأمر الثاني: فهو أن الفساد الصامت الذي ينشأ من مستويات وسطى في المنظومة لا ينجح في البزوغ والتواجد بغير «تغميض العين» و/أو تعضيد من المستويات القيادية الأعلى، وسوء فهم، أو عته، أو تقاعس، أو سوء نية (بمعنى رغبة مماثلة في القيام بفساد مماثل) من مستويات وسطى، أو مستويات أدنى.

مثال (٣):

حدوث ترقي الباحثين في الجامعات ومراكز البحوث من خلال تبادل المنفعة عند تقديم ملفات بحوثهم إلى اللجان المعنية بفحص الإنتاج العلمي.

هنا، يجدر بنا في البداية أن نضع بعض المحاذير عند التعامل مع هذا المثال.

أول المحاذير أن ليس كل الباحثين يفعلون مثل ذلك، حيث لا يزال هناك باحثون شرفاء كثيرون، (بل ونتعشم أنهم الغالبية)، وثاني المحاذير أن عضوية اللجان العلمية للترقي مليئة بالعديد من الكوادر التي لا ينطلي عليها الانحراف العلمي، ولا تقبله في حال اكتشافه، وثالث المحاذير أننا نظن، ونتمنى أن نكون محقين في ظننا أن المؤسسات العلمية الموجودة، سواء كانت داخل الجامعات أو خارجها، هي في أغلبها ما تزال ماسكة على الجمر، بمعنى أنها لا تزال حريصة على «قيمة» عدم قبول الفساد العلمي، بالرغم من تعاظم مناخ الفساد على وجه العموم، ودخوله - بالطبع - إلى حيز عامة المؤسسات، ومن بينها المؤسسات العلمية.

لكننا - برغم هذه المحاذير - نعود وننبه إلى أن المثال الذي نعرضه هنا هو مجرد مثال خفيف وصامت، وأن أمثلة أخرى عديدة أشد رمادية وسواداً تطل من وقت لآخر.

جوهر هذا المثال هو قيام بعض الباحثين بالتعضيد الثنائي لبعضهم بعضاً، ذلك بمعنى أن يقوم الباحث بعمل بحث، وعند نشره يضم معه في قائمة أسماء مؤلفي البحث اسما لباحث آخر لم يكن مشاركا في البحث.

وفي المقابل، فإن الباحث الآخر يفعل نفس الشيء في قائمة الأسماء الخاصة ببحث له، حيث يضم اسم الباحث الأول.

النتيجة هنا تكون أن كلا من الباحثين قد أضاف إلى قائمة بحوثه بحثاً جديداً لم يقم به.

وهكذا، ربما تضم قائمة البحوث للباحث الواحد، من هذا النوع من الباحثين أكثر من بحث لم يشارك فى إجرائه، لكن عند الترقى فإن هذه البحوث التى تنتسب إليه بينما هو لم يقم بها، تشكل جزءاً من مجمل البحوث التى يترقى بها!!!

فى هذا النموذج من تبادل المنفعة يبدو - عند البعض - أن ليس هناك ضرر أو أذى قد وقع على أى شخص.

ربما أيضاً يرى - هذا البعض - أن ما حدث هو عمل تعاونى، إذ قد تبادل كل من الباحثين الاستفادة دون إيقاع أى ضرر على آخرين!؟!

المسألة لاتقف عند هذا المثال، هناك عديد من الخلفيات والأسباب الأخرى التى تدفع بباحث لأن يضع اسم باحث آخر على بحثه دون أن يكون ذلك الباحث المضاف ضالعاً فى إجراء البحث، لا ذهنياً ولا عملياً، وتكون النتيجة الواقعية أن باحثا قد ترقى إلى أعلى سلم الألقاب العلمية بأبحاث لم يشارك فيها.

من هذه الأسباب أن يكون الباحث المضاف قد أعطى مادة كيميائية للباحث صاحب البحث، إنها مادة متوفرة لديه، أو حتى قد اشتراها خصيصاً من أجل إعطائها للآخر مقابل إضافة اسمه، أو ربما يكون الباحث المضاف قد أتاح للباحث الآخر استخدام وسيلة بحثية كانت متاحة لديه، ولم تكن متاحة لصاحب البحث، كجهاز مثلاً، أو حيوانات تجارب.... الخ

وبينما يظل البعض يرى أن مثل هذه السلوكيات لا غبار عليها، طالما لم يقع أذى على أحد، ولم يتقدم أحد بشكوى يدفع فيها بالتضرر، فإنه يمكن أيضاً جذب الانتباه إلى أنه، حتى لو تقدم أحد بشكوى فمن المتوقع أن يُفاجأ برد فعل غريب من المؤسسة العلمية يكون مفاده بأن عليه أن يلجأ إلى القضاء.

التفكر فى النموذج المشار إليه، والأمثلة التى على غراره، يدفع إلى عديد من التساؤلات والتعليقات نذكر منها التالى:-

هل من المعقول أن تتضمن البيانات الشخصية لباحث، قائمة بحوث، من المفترض أنها تشكل مجموع الأبحاث التى قام بها، وبالتالى تعكس خبراته الحقيقية، ذلك بينما بعض هذه الأبحاث ليست له على الإطلاق، وأن قائمة الأبحاث المرفقة المتضمنة فى بياناته الشخصية تعطيه خبرة أكثر من المستوى الذى يستحقه؟؟؟

هل من المقبول أن يترقى باحث على سلم ألقاب البحث العلمى، من مدرس إلى أستاذ مساعد، ثم من أستاذ مساعد إلى أستاذ، ذلك بينما بعض البحوث التى يترقى على أساسها هى ليست بحوثه؟؟؟.

أى بحوثا لم يبذل جهدا أكاديميا فى أدائها، وأن إضافة اسمه تأتى فقط من خلال تبادل المنفعة؟؟؟.

نفس التساؤل السابق يمكن توجيهه بطريقة أخرى مبسطة:-

إذا كان الترقى من درجة مدرس إلى درجة أستاذ مساعد - مثلاً - يتطلب ارتقاء الباحث إلى مستوى ما من الكفاءة البحثيّة، وإذا كان من الممكن أن نرمز لهذا المستوى بالرمز «س»، وإذا كان من المتطلبات (أو الشروط)، المعمول بها والخاصة بالترقى إلى المستوى «س»، أن يكون الباحث قد أنجز عدد خمسة أبحاث «مثلاً»، فإذا حدث أن كان الباحث قد تقدم للترقى بعدد الخمسة أبحاث، وكان إنجازه فيها هو إنجازه لثلاثة فقط، وليس خمسة، عندها هل سيعتبر إنجازه البحثى مكافئا تماماً للمستوى «س»، أى بدرجة مائة فى المائة؟ أم إنه سيكون معادلا فقط لدرجة ٦٠٪ من المستوى المطلوب «س»، وهى الدرجة التى تكافئ الثلاثة أبحاث (من الناحية الكمية ومع الإعتذار عن التبسيط)!؟

استكمالاً للتساؤل السابق يبرز التساؤل التالى:-

إذا كانت القدرة البحثية للباحث تمثل فقط ٦٠٪ من المستوى الذى يفترض أنه يجتازه، فهل يجوز عندها أن تقبل المؤسسة العلمية إجازة ترقية الباحث، طالما أنه استطاع بطريقة أو بأخرى أن يضيف إلى قائمته ٤٠٪ من الكفاءة المطلوبة ببحوث ليست هى بحوثه، وبجهود ليست هى جهوده.

مثل هذا الأمر يحدث، بين حين وآخر، هنا أو هناك، لقد استمر ويستمر، وسيستمر فى الحدوث طالما لم يظهر أن أحد قد وقع على شخصه أذى أو ضرر يدفعه لرفع دعوى قضائية؟؟؟

ولكن هل حقيقةً لم يقع أذى أو ضرر على أحد؟...... إنه سؤال محورى، بل ومصيرى بالنسبة لأمانة وحيوية البحث العلمى، فى هذا الصدد نعقب بالإشارة إلى ما يلى:

أن تقنين حصول شخص على شىء ليس مؤهلا له هو انحراف بالسلطة.

أن أى شخص يوهم السلطات باستحقاقه لشىء هو لا يستحقه، ويستخدم من أجل ذلك مستندات علمية هى ليست فى الحقيقة تخصه، إنما هو يمارس انحرافا، ولذلك الانحراف مسمياته التى يعرف بها، مثل التزوير.

أن عملية وضع اسم باحث على بحث ما، باعتباره مشاركا فى تأليف هذا البحث، بينما هو فى الحقيقة لم يشارك ذهنياً ولا عملياً فى إجراء البحث، إنما تمثل فعلاً فاضحاً فى المجال العلمى، تماماً مثل أى فعل فاضح فى المجالات أخرى مثل: الآداب العامة، والبيع، والشراء.........الخ.

أن استمرار الانحرافات فى الوسط العلمى من نوع الفعل الفاضح المشار إليه أعلاه، إنما يعنى أن منظومة البحث العلمى فى بلادنا أصبحت - فى بعض مكوناتها - دون الحد الأدنى اللائق بأنشطة البحث العلمى، باعتبارها أنشطة تقوم على السعى بأخلاقيات البحث العلمى.

ربما رغم هذه الإشارات يظل البعض على الموقف الذى يرى أنه طالما لم يصب أحد بأذى فلنترك الأمور كما هى عليه، وليرتق من يرتقى، طالما هو استطاع جمع الكم المطلوب من الأبحاث المناسبة.

هنا، نقدم لهذا البعض الملاحظات التالية، والتى نتصور أنها ستساعد فى إستيعاب قدر العواقب التى تحدث، وستستمر فى الحدوث، طالما ساد الصمت تجاه مثل هذه الانحرافات.

إذا كان ارتقاء باحث علمى إلى مستوى علمى أعلى، يعنى ارتقاء مسئولياته العلمية تجاه تلاميذه من شباب تواقين إلى البحث العلمى، وكذلك تجاه المؤسسة العلمية التى يعمل بها (وتجاه الوسط العلمى بوجه عام)، وأيضاً تجاه المعرفة ذاتها كمنتج متنامٍ ومتغير باستمرار، فهل يا ترى إذا ارتقى «أستاذ مساعد» إلى وظيفة «أستاذ» بينما هو ليس حقيقةً بأستاذ، وقد يكون قد ارتقى من قبل ذلك إلى الدرجة الأسبق (أى درجة أستاذ مساعد)، بينما هو أيضاً لم يكن مستحقاً لها، هل يا ترى هذا «الأستاذ» سيكون قادراً على القيام بمسئولياته العلمية تجاه تلاميذه وتجاه المؤسسة العلمية، وتجاه المعرفة ؟!

> **هل من المعقول أن تتضمن البيانات الشخصية لباحث، قائمة بحوث، من المفترض أنها تشكل مجموع الأبحاث التى قام بها**

الإجابة على السؤال السابق تكون قطعاً بالنفى، هنا يبرز تساؤل آخر: إذا كان المستوى العلمى للأستاذ، الذى ليس بأستاذ هو أقل من المستوى الذى يؤهله للقيام بمسؤولياته العلمية، إذاً كيف سيغطى هذا النقص فى إمكانياته، وعلى حساب من؟، هل سيعترف لتلاميذه أنه أقل من المستوى؟، هل سيطلب المساعدة والدعم من الأساتذة الحقيقيين حتى يقوى على أداء مهامه؟، هل سيتراجع قليلاً للوراء ويترك الفرصة لمن هم أساتذة بحق لأن يُسيروا المنظومة العلمية ويكتفى هو - على إستحياء - بمجرد حصوله على اللقب؟

المتوقع عادة، طبقا للواقع العملى، أن الأستاذ الذى ليس هو بأستاذ، سيجتهد بكل الطرق الممكنة، (وغير المشروعة بالطبع)، لتحقيق كل الفوائد لنفسه (منح، ومشروعات، وعلاقات، ومناصب...الخ)، باتباع نفس الأساليب التى استخدمها فى الترقى. إنه عندما كان أصغر كان يمارس الالتواء بخصوص متطلبات الترقى، (وقطعاً بخصوص أشياء أخرى)، غير أنه الآن قد وصل إلى أعلى درجات سلم الألقاب العلمية (الأستاذية)، وسيكون التواؤه أكثر صراحة، وأكثر شراسة، وموجها تجاه أولويات أخرى لن تتضمن المصالح العلمية، لا تلك الخاصة بطلاب العلم، ولا تلك المرتبطة بالمؤسسة العلمية، ولا أى مصالح حقيقية تتعلق بالمعرفة العلمية. أولوياته ستكون مصالحه هو المادية المباشرة، بل وأكثر من ذلك، سيجتهد فى الارتقاء فوق كل الأكفاء فى المؤسسة العلميّة، بل وفوق المؤسسة ذاتها.

والآن نأتى إلى ما يمكن أن نعتبره ملاحظة ختاميّة، على الأقل فى السياق الحالى. ببساطة شديدة نقول أنه يكفى فى أى مؤسسة علمية أن يكون هناك أستاذ واحد غير حقيقى، أى يكون قد ارتقى إلى الدرجة العلمية دون وجه حق، حتى تتحول هذه المؤسسة إلى حالة من اللانظام والمنظرة وتبديد الطاقة. التفاحة الفاسدة تفسد قفص تفاح، والأستاذ الفاسد

يفسد مؤسسة علمية بأكملها، فما بالنا لو أن هناك أكثر من أستاذ غير حقيقى قد تمكن من منصب الأستاذية فى كل مؤسسة علمية؟!؟

علينا إذن أن نكف عن الاندهاش والتندر بضعف مؤسساتنا العلمية، لقد أشرنا إلى سبب واحد للفساد الصامت فى هذه المؤسسات، فما بالنا وهناك أوجه عديدة لهذا النوع من الفساد الصامت، ناهيك عن الأنواع الأخرى الأكثر قتامة.

وهكذا، كخلاصة لما تم عرضه بخصوص الفساد الأبيض، أو الفساد الصامت، يمكن استنتاج ما يلى:.

الفساد الصامت يمثل خروجا عن الشرعية برغم القانون وباستخدام مايعرف بثغراته، وكذلك باستخدام ثغرات فى الإدارة.

الفساد الصامت يؤذى الأفراد. إنه يؤذيهم من خلال الإضرار بالمؤسسات، وبالعلاقات المؤسسية، حيث هذا الإضرار يعود بالأذى المباشر وغير المباشر على كافة أفراد المجتمع على المدى الطويل.

القبول بالفساد الصامت يعضد التمكين والتقوية للأنواع الأكثر حدة وسواداً من الفساد، ذلك حيث الفساد الصامت هو المدخل (أو بداية الطريق) إلى الفساد الزاعق.

(د) دور «البيزنس» فى توليد وإدارة الفساد:

لم تكن مجرد صدفة أن يفاجأ العالم بفضائح فساد كبرى فى مؤسسات أمريكية عالمية (مثل لوكهيد وإمرون). ثم لم تكن صدفة بعد ذلك أن تتوالى انكشافات عمليات فساد كبير، فى مؤسسات كبرى، فى مناطق مختلفة من العالم، وصولا إلى الأزمة المالية العالمية الأخيرة (٢٠٠٨/ ٢٠٠٩)، والتى بدأت بذرتها من البنوك وشركات التمويل العقارى فى الولايات المتحدة، ثم انعكست تبعاتها السلبية (وتبعات سلوكيات مثيلة فى مؤسسات الدول المتقدمة) على العالم كله تقريباً.

كل هذا الفساد الذى ملأ (وامتد إلى) العالم بأسره جاء كنتيجة لممارسات فساد فى عمليات اتخاذ القرار بواسطة المديرين الكبار فى المؤسسات الأمريكية (والعالمية) المشار اليها (الإدارة.. الإشكالية المنسية إشتراكيا ورأسماليا، جريدة البديل، عدد ٢٠٠٨/١١/٢٢).

ولكن، ما الذى دفع ويدفع المديرين الكبار فى تلك المؤسسات الكبرى لممارسة الفساد فى اتخاذ القرارات ؟ ولماذا لم يحدث بروز لمثل هذا الفساد كظاهرة عالمية قبل العولمة الحديثة (أى قبل تسعينيات القرن العشرين)؟

لقد جاءت العولمة الحديثة لتعلى من شأن (بل وتعمق من إمكانات) ما يسمى باقتصاد السوق. وبالتوازى مع حدوث تضخم لثقافة اقتصاد السوق Market economy، كانت الهيمنة تتصاعد من جانب العوامل والاعتبارات المتحكمة فى السوق (التنافسية والتراكمات المالية)، على القرارات الإستراتيجية الكبرى للبعض من المديرين الكبار. إنها أخلاقيات البيزنس، والتى تغلبت على الضرورات الإستراتيجية للقرارات المؤسسية الاقتصادية. لقد أدى ذلك إلى ظواهر شديدة المرضية pathogenic (بينما كان المديرون الكبار يعتبرونها ظواهر صحية)، وذلك مثل ظاهرة العملقة والاستحواذ (والمتعلقة باندماج الشركات الكبرى) عندما تكون مصحوبة بموجات من التسريح للآلاف من العاملين (وخاصة العاملين فى قطاعات البحوث)، بينما المديرون الذين يكونون قد رتبوا لبيع واندماج شركاتهم يخرجون كأفراد بغنائم خيالية من الأموال.

ما حدث من تضخم لثقافة اقتصاد السوق، ساعد على ركوب إعتبارات السوق على أى اعتبارات إنسانية أو اقتصادية طويلة المدى. كان ذلك يعنى وجود تحول فى طبيعة القرارات الاستراتيجية. التحول حدث (ويحدث) فى سياق أن عوامل السوق أكثر أهمية عما عداها. وكامتداد لهذا التحول، كان هناك تحول مماثل فى القرارات الاستراتيجية للشركات، إذ أصبحت مصالح البيزنس الخاص للشركة (أو المؤسسة)، هى أكثر أهمية (من أجل التنافسية والتراكم المالى) عما عداها.

لم تكن مجرد صدفة أن يفاجأ العالم بفضائح فساد كبرى فى مؤسسات أمريكية عالمية (مثل لوكهيد وإمرون)

وهكذا، بالتدريج، حدث تحول فى الأطر الأخلاقية لاتخاذ القرارات على مستوى الإدارة العليا، إذ أصبحت المصلحة الخاصة مبررا شديد القوة فى الدفع إلى اتخاذ قرارات خارجة عن الكود الشرعى والقانونى الرسمى، وذلك ـ تبريريا ـ من أجل صالح الشركة أو المؤسسة.

لقد تحولت الشركات إلى كيانات تمارس التنافس بأساليب تنتهك الأخلاقيات والقوانين واللوائح. صار التنافس فى هذا السياق، سياق الخروج على المعايير السائدة، دافعا رئيسيا ضاغطا من أجل صالح الشركة (أو المؤسسة) ومن أجل سمعة ومكاسب وتنافسية المديرين.

المسألة إذن أن تدرج الانحراف فى طبيعة ودوافع عمليات اتخاذ القرار عند كبار رجال البيزنس قد أدى إلى وقوع الفساد.. وعندما حدثت أزمات نتيجة الفساد، حدث الافتضاح لعمليات الفساد، وتوالت سلاسل التداعيات، تداعيات الفساد، من أكبر وأقوى دول العالم المتقدم إلى أضعف وأصغر الدول «الأقل من النامية». إنها سلسلة الأذى الناجم عن الفساد فى قمة مستويات إدارة البيزنس.

هنا، يجدر جذب الانتباه إلى استنتاجين مهمين، يشيران بشكل مباشر إلى دور البيزنس بشأن إحداث إمتدادات (ووفورات) وفورانات للفساد.

الاستنتاج الأول، هو أن ما حدث من انحراف أخلاقى فى عمليات اتخاذ القرارات فى الشركات والمؤسسات الكبرى (مثل البنوك) جاء ـ فى طبيعته المتعلقة بالمصلحة الخاصة والتنافسية ـ امتداداً لثقافة اقتصاد (وعوامل) السوق. أى أن الهيمنة المتصاعدة شبه المطلقة لاعتبارات اقتصاد السوق قد أوجدت سياقات انحرافية فى المناخات الخاصة بالقرارات الإستراتيجية للشركات والمؤسسات الكبرى، الأمر الذى كان له امتدادات، ظهرت فى شكل الخروج على الأعراف والقوانين، فى عمليات اتخاذ القرارات بواسطة المديرين الكبار. ومن ثم، حدوث فساد بواسطة هؤلاء المديرين، وذلك تحت ستار المصلحة الخاصة للشركة (و/أو للمدير) اولاً.

أما الاستنتاج الثانى فهو توجه كبار رجال البيزنس، فى ظل السياقات المشار اليها أعلاه، إلى الفصل فى قراراتهم وخططهم بين عمليات اتخاذ (وتطبيق) القرارات الإستراتيجية من جهة، والأسس الأخلاقية لصناعة القرار من جهة أخرى. فى هذا الإطار، تصل عمليات اتخاذ القرار إلى استهداف إستراتيجيات لا ترى غير تكبير البيزنس (تحت مظلة اعتبارات السوق)، بصرف النظر عن أية اعتبارات أخرى. هذه «الروح» فى عمليات إتخاذ القرار تكفل الاستعانة بكل الوسائل والأشكال الممكنة للتبرير، بل والتنافسية الحادة فى هذا الاتجاه، اتجاه الخروج على الأعراف واللوائح والقوانين، ويصير من الطبيعى أن يتداخل الخاص مع العام (لمصلحة الخاص)، وأن تتفاقم عمليات الفساد.

وهكذا، فى ظل الاستنتاجين السابقين، يمكن تفهم وجود علاقة وثيقة، ومن ثم انتفاء للصدفة، بشأن ازدهار معدلات وتنوعات الفساد وعملياته، فى ظل التوحد فى أنشطة رجال البيزنس مع عمليات اتخاذ القرار السياسى، وكذلك فى ظل تولى رجال الأعمال مناصب القيادات السياسية فى الحكومة (أى مناصب الوزراء).

الحقيقة أن خروج كبار رجال الأعمال (هؤلاء المديرين الكبار للشركات الكبرى) عن مراعاة الأبعاد الأخلاقية عند اتخاذهم لقراراتهم، قد وصل إلى حد وجود مناداة فى الوسط الأكاديمى لعلوم الإدارة، بأن هذا الوضع الجديد الخاص بخروج القرارات الإدارية العليا عن الشرعية، إنما يشكل تحديا جديدا أمام بحوث الإدارة. هذا التحدى، كما جاء فى رسالة دكتوراه نوقشت فى الولايات المتحدة عام ٢٠٠٥ (Roy, 2005)، يتمثل فى «وجوب إيجاد حلول شرعية Legitimate Solutions، لتوكيد الشرعية الاجتماعية للمؤسسات، فى التعامل مع ما يجرى من عدم القانونية، أو عدم الأخلاقية، أو عدم الشرعية، أو الممارسات الأكثر فظاعة للبيزنس».

هذا التحذير الذى صدر عن رسالة لدكتوراه الفلسفة منحت عام ٢٠٠٥، أى قبل الأزمة المالية العالمية الأخيرة، والذى يحذر من دور قيادات البيزنس فى الإفساد، إنما هو جدير بأقصى انتباه ممكن فى مجتمعات الدول النامية ومن بينها المجتمعات المصرية والعربية، حيث يتم إسناد أدوار قيادية حكومية على المستوى القومى لكبار رجال البيزنس، الأمر الذى ينعكس سلبا على هذه المجتمعات، من خلال امتدادات الفساد والابتعاد بقوة عن التوجهات المجتمعية القومية للتنمية.

الفساد الصامت إذن هو المدخل (أو بداية الطريقة) للفساد الزاعق. ■

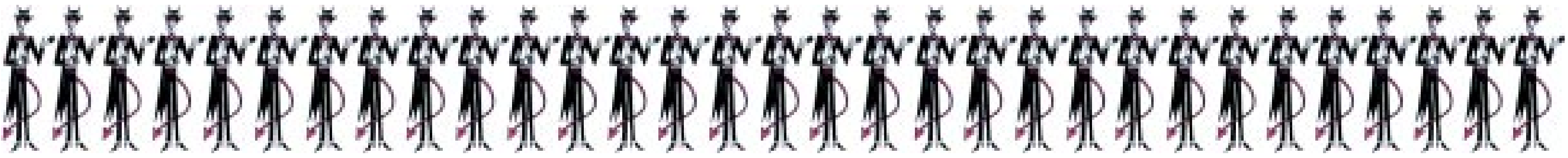

عـــولمة الفســـــاد!

■■ إن الفساد كظاهرة اقتصادية واجتماعية موجود منذ قرون ممعنة فى القدم، غير أنه قد زاد مع التوسع المتزايد فى تدخلات الدولة فى كافة أوجه الحياة العصرية. وأصبحت للفساد العديد من الأشكال والألوان لاسيما فى البيروقراطيات المركزية التى تمثل الإدارة الرئيسة للدولة فى تنظيم وتوزيع الموارد والخدمات. إن السلطات التقديرية التى يحظى بها البيروقراطيون، وسوء استعمالها من فئات منهم هى النافذة التى يدخل منها الفساد على مختلف أوجه الحياة اليومية فى معظم الدول على تعدد مستويات تقدمها ونموها.

ما عاد هناك ما يمكن تسميته بالمجتمع الفاضل الذى يخلو تماماً من كل أشكال والوان الفساد. فالاختلاف بين الدول لا يعدو أن يكون اختلافًا نسبيًا فى كم وعمق وممارسات ظاهرة الفساد المقوضة لكل القيم المجتمعية الحضارية الثقافية الفاضلة.

أما إذا تأملنا فى ظاهرة الفساد فى المجتمع العربى بشكل خاص، فسنجد أن الدكتور محمود عبد الفضيل يثير انتباهنا بقوله: (إن القضية التى تشغل بال المجتمع العربى هذه الأيام، ليست بالتحديد وجود قدر من الفساد فى معاملاتنا اليومية، بل حجم الفساد واتساع دائرته وتشابك حلقاته وترابط آلياته بدرجة لم يسبق لها مثيل من قبل، مما يهدد مسيرة التنمية ومستقبل مجتمعنا العربى المعاصر فى الصميم. ولعل ما أفصحت عنه بعض وقائع قضايا الفساد المالى والإدارى خلال السنوات الأخيرة فى العديد من الأقطار العربية يدل على مدى تغلغل قيم الفساد وممارساته فى كافة مناحى حياتنا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والإدارية)[1].

إن النظرة المتأملة فى تنامى ظاهرة الفساد قطريا تبرز حقائق أساسية. من أهمها حقيقة أن الطابع المميز للدولة فى مراحل نشأتها الأولى قد كان مبنيًا على وظائف محدودة نسبيًا، من أبرزها: كفالة الأمن الداخلى، والدفاع، وصون نظام معين للعلاقة بين طبقات المجتمع، وحماية المصالح المشتركة. وظل هذا المنظور المحدود لوظائف الدولة يتطور تدريجيا من حقبة لأخرى، تماشلاً مع تطور المجتمعات وما يتصل به من احتياجات ورغبات، الأمر الذى قاد عالمنا المعاصر إلى تدخل الدولة فى العديد من الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التى كانت سلفًا متروكة للمبادرات والجهود غير الحكومية.

لقد تعاظم دور الدولة فى مجتمعنا المعاصر بالقدر الذى جعلها فى العديد من النظم، لاسيما فى البلاد النامية، السلطة المهيمنة، والمنسقة لكافة الوظائف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، الأمر الذى قاد بعض المفكرين إلى القول أن هذا العصر هو عصر تدخل الدولة، نسبة لتدخلها المتزايد والمتنامى فى كافة شؤون المجتمع.

إن الدولة العصرية تنهض بوظائفها المتعددة والمتنوعة من خلال الإدارة الحكومية المتمثلة فى مؤسساتها السياسية والتشريعية والقضائية والتنفيذية. ومن هنا تبرز الحقيقة الجوهرية، وهى أن السمة اللازمة والمميزة للدولة الحديثة هى أنها دولة مؤسسات بالقدر الذى أصبح فيه بناء الدولة وتأصيل سبل النمو والتجديد الحضارى فيها يعتمد اعتماداً أساسيًا على كفاءة، وشفافية، ونزاهة، وعدالة، وفعالية مؤسساتها.

وعلماً بهذا الدور الأساسى المتميز للحكومة، وما ينتظمها من مؤسسات كأداة حركية للدولة العصرية فى بلورة إرادتها المجتمعية، وتنفيذ سياساتها العامة فى مختلف شؤون المجتمع، فإن قدرات وإمكانات الدولة الآنية والمستقبلية رهينة بتأصيل حالة كفاءة وشفافية ونزاهة وفعالية دائمة ومنتظمة فى كل مؤسساتها على تعددها وتنوعها. وما ذلك بالهدف اليسير التحقيق، لاسيما إذا تأملنا فى تأثير عناصر متعددة تتجاذب سلبًا وإيجابًا هذه الحالة المأمولة فى كفاءة وفعالية وشفافية الأجهزة الحكومية.

ونسبة لتنامى دور المؤسسات فى مختلف أوجه الحياة العصرية فقد تضخمت البيروقراطية من جانب، وتضاءلت كفاءة وفعالية نظم المساءلة والمحاسبة من جانب آخر. وتعددت معوقات التنمية فى معظم دول العالم الثالث. وبرزت إلى موقع الصدارة قضية الفساد كمعوق أساسى لمشروعات التنمية. تشير إلى هذه الظاهرة السلبية الدكتورة هدى متكيس بقولها: (برغم تعدد معوقات التنمية فى دول العالم الثالث، إلا أن قضية الفساد الإدارى والسياسى تشغل موقعًا من مواقع الصدارة بما يحتم ضرورة مواجهتها للحد من آثارها السلبية المحتملة على المسار التنموى، وهو ما يستوجب بطبيعة الحال ضرورة التعرف على أسباب تفشى هذه الظاهرة فى كثير من دول العالم الثالث، والنظر فى مختلف إستراتيجيات المكافحة، إلى جانب تقصى سبل العلاج ودور كل من الشفافية والمساءلة فى هذا الشأن. ونتيجة خطورة ظاهرة الفساد تعددت الدراسات التى تناولتها بالفحص والتحليل، وتوصل معظمها إلى نتيجة هامة مؤداها أن استفحال الفساد يرجع فى أحد جوانبه إلى احتكار القوة من قبل المسئولين إضافة إلى تدنى مستوى الشفافية وتراجع نطاق المساءلة. وعلى هذا النحو تتمثل معادلة الفساد على النحو التالى:

الفساد = احتكار القوة + الافتقار إلى الشفافية. المساءلة)[2].

وتظل الحقيقة قائمة إن الحكم الراشد والأداء الفعال للأجهزة الحكومية لا يتأتى إلا بتحقيق المشاركة المجتمعية، وتأكيد الشفافية والمساءلة من خلال القانون، ومتابعة تنفيذها تطبيقيًا وفعليا بحيث لا تكون ظاهرة رسمية شكلية لا تعبر عن الواقع الفعلى. ووفقًا لهذا المنظور المتكامل فإن الحكم الراشد Good Governance يعنى بالدرجة الأولى بالآليات والعلاقات والمؤسسات الفعالة التى تمكن كل المواطنين من تحقيق مصالحهم المشروعة وممارسة حقوقهم وواجباتهم. إن مؤسسات الحكم الراشد المتمثلة فى: الحكومة والقطاع الخاص، ومنظمات المجتمع المدنى، لابد لها أن تكون متفاعلة متمازجة من أجل تحقيق التنمية المستدامة، وذلك لا يتأتى إلا بتأصيلها للظروف السياسية والتشريعية والاجتماعية الملائمة لعدالة توزيع الموارد.

إن تحقيق الحكم الراشد يستوجب بالضرورة تحقيق التوازن بين واجبات الحكومة، وفعاليات المجتمع وتمكينها من أداء أدوارها دون قيود تحد من طاقاتها وإمكاناتها وفعالياتها.

[٢]

جوهر القضية إن مصطلح الحكم الراشد يعنى التفاعل الحقيقى والحى والمتجدد بين الكيانات المجتمعية داخل الدولة، ويرتبط بمفاهيم ثلاثة رئيسية وهى:

أولاً، الشرعية، وتشير إلى حق الدولة بإلزام جميع الأطراف بالتقيد بالقواعد العامة المشتركة والمثبتة فى الدستور والقوانين.

ثانيًا، المساءلة، تعنى الكفاءة والفعالية والنفوذ فى محاسبة الجميع دون استثناء، لوضع الأمور فى وضعها المطلوب.

ثالثًا، الشفافية، بما يعين على توافر القنوات والآليات والنظم التى تؤمن الفهم المشترك والتنفيذ فى الإطار الموحد.

ومن بين أوجه التعريف الكثيرة لمصطلح الفساد يبرز نمط محدد من أنماط السلوك يمكن وصفه بأنه النمط السلوكى الفاسد أو السلوك فاسد الطبع، وهى الممارسات التى لا يمكن التغاضى عنها بالرغم من اختلاف المواقف والاتجاهات والمعايير السائدة فى المجتمعات المختلفة، وتتمثل فى المحسوبية والمحاباة والرشوة والابتزاز والسرقة وانتهاك الإجراءات المتبعة لتحقيق مصالح

حســـن أبشــر الـطــيــب

شخصية، والتغاضى عن أنشطة غير قانونية، واستخدام الموارد العامة لتحقيق مكاسب شخصية، وغيرها من الأعمال التى تتعلق بسوء استخدام السلطات والاختصاصات والإمكانات.

وتظل الإدارة غير الأخلاقية هى النقيض للإدارة المسؤولة القائمة على المساءلة. وعندما يتم التغاضى والتنازل عن فكرة المسؤولية العامة والثقة، وترجح كفة استغلال المنصب الوظيفى بهدف تحقيق مكاسب خاصة تتهيأ الظروف المناسبة لظهور الفساد المؤسسى المنظم. فتأمل!

وإنه لمن المحزن حقًا أن يصبح الفساد فى عدد من البلاد العربية ظاهرة مؤسسية. إن القضية لم تعد تتمثل فى سوء الاستخدام الفردى للعمل الوظيفى، بل فى ممارسة الفساد المؤسسى الذى يشكل تدميرًا للمصلحة العامة. فى مثل هذه الحالات قد أصبحت ممارسات الفساد. كما قدم الدكتور سالم زرنوقه عبر تحليله لعدة قضايا. ليست ممارسات فردية معزولة، وإنما ممارسات تتم من خلال أطر شبكية هى أقرب إلى تكوين «مافيات منظمة». وبالتالى فقد اكتسبت تلك الممارسات الفاسدة نظامًا مؤسسيًا يتشكل فى إطار تلك المنظومات الشبكية[٣].

يضاف إلى ذلك إن الفساد عادة تصاحبه ديناميات تغذيه وتدعمه بالقدر الذى يشكل ما يمكن أن نطلق عليه ثقافة الفساد Culture of Corruption. وبالتالى فإننا نجد سلسلة متصلة الحلقات يغذى بعضها بعضًا ويكمل بعضها البعض الآخر، وبما يشمل النظام الاجتماعى الثقافى، والنظام الاقتصادى، والنظام الإدارى، والنظام السياسى.

إن تأثير ديناميات الفساد سلبيًا على قيم وممارسات النظام الاقتصادى، والنظام الاجتماعى الثقافى، وبطبيعة الحال يكون كل ذلك انعكاسًا سلبيًا على النظام السياسى والإدارى. ومن تداعيات كل هذه المؤثرات السلبية أن يصبح الفساد ظاهرة مقبولة لدى عدد ليس بالقليل، ويلبسوا أفعالها بعض المعانى التى لا تتسق مع قبحها وتأثيرها السلبى على المجتمع بصفة عامة وعلى مقومات الحكم الراشد بصفة خاصة. فى إطار هذا المناخ الفاسد تلبس الرشوة مثلاً لبوس ومعانى الإكرامية والهدية والحافز. وينظر إلى المرتشى بأنه الشخص المتفهم والمرن والمساير للعصر. فتأمل!

وتجدر الإشارة إلى أن الفساد يعيد تشكيل أوجهه وتأثيراته من حين لآخر استجابة للمتغيرات فى العوامل الاجتماعية والاقتصادية والإدارية والسياسية. وبذات القدر الذى تؤثر فيه هذه المتغيرات على تشكيل صورة الفساد فإنه يؤثر فيها أيضًا بدرجة من الدرجات، الوضع الذى تنتج منه فى بعض الحالات تعديلات ذات أثر كبير فى منظومة القيم والاتجاهات المجتمعية.

إن النظرة المتقصية فى ظاهرة الفساد فى العالم العربى تبرز شواهد عديدة ومتلاحقة تجسد أزمة فى الشفافية والنزاهة ومنها على سبيل المثال: تزايد حالات الفساد المالى التى يتم الكشف عنها من حين لآخر فى البنوك وقطاع الشركات، وتزايد حالات وحجم غسيل الأموال داخل حدود الدولة وخارجها، والغش فى مواصفات الجودة للعديد من السلع المطروحة فى الأسواق، وما تتناقله الصحف والدوريات، العربية والأجنبية، من شبهات الفساد فى خصخصة بعض المشروعات العامة ذات الإنتاجية والربحية العالية، وغيرها. يضاف إلى ذلك أن مؤشرات الفساد الاقتصادى والاجتماعى المدرك فى دول الوطن العربى، تعتبر الأعلى فى العالم وفقًا لتقارير منظمة الشفافية العالمية Transparency International، كما تعتبر من جانب آخر معدلات النموّ فيها من أدنى معدلات النموّ فى الدول النامية.

[٣]

ماعاد بالإمكان استمرارية تبنى تعريف البنك الدولى لماهية الفساد، الذى يعرفه بأنه: (استغلال أو إساءة استعمال الوظيفة العامة من أجل مصلحة شخصية)[٤] فقد تجاوز الفساد، نتيجة للآثار السلبية المتعددة والمتنوعة للعولمة، هذا المفهوم المحدود. وأصبحت أشكاله ومراميه وآثاره على الصعيد العالمى ذات أبعاد سلبية عميقة على كافة الأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. لقد كان وسيظل للعولمة وآلياتها المتعددة أثرها السلبى المباشر على تصاعد ظاهرة الفساد بمختلف أشكالها على المستويات القطرية والإقليمية والدولية. يثبت ذلك الدكتور داود خير الله بقوله: (لعل نموّ الفساد وانتشاره على صعيد عالمى من أهم الآثار السلبية للعولمة. فالاكتشافات العلمية والتسهيلات التجارية بين الدول، والتى ترافقت مع الحد من الضوابط القانونية والإجرائية قد ساعدت على إطلاق مخيلة الشبكات الإجرامية على صعيد دولى، وسهلت لها إمكانية تحقيق الثراء عن طريق أعمال غير مشروعة. فقد اخترقت ظاهرة الفساد التى كانت سائدة فى دولة أو دول معينة الحدود الدولية مستفيدة من الفرص الملائمة التى تجعل احتمالات الاحتفاظ بثمار العمل الجرمى تفوق احتمالات العقاب الرادع عليه)[٥].

إن عالم اليوم أصبح كقرية كونية، تعيش نتيجة لثورة الاتصالات والمعلومات فى تبادل وتكامل حيّ ليس على مدار اليوم أو الساعة بل على مدار الثانية. وما عاد بإمكان دولة أن تعيش كجزيرة منعزلة بمعزل عن تأثير التحولات والتغييرات العالمية. لقد تعولم كل جانب من جوانب الحياة، وأصبح الترابط والتأثير الاقتصادى ملحوظًا بدرجة أكبر وأوضح مما كان عليه فى عقود ماضية. ويتضح ذلك كما يشير باتريك جلين وآخرون، فى مقالتهم الموسومة تعولم الفساد فى ثلاثة متغيرات متصلة ببعضها اتصالاً عضويًا ولها أكبر الأثر فى تنامى ظاهرة الفساد وهى: (أولاً، يزيد توسيع التكامل الاقتصادى العالمى وتعميقه من احتمال شيوع آثار الفساد فى الاقتصاد العالمى بأكمله، وتردد أصداؤها خلاله... وتحد إمكانيات النفاذ المتزايدة من الحدود الوطنية من مجال تطبيق الولاية القضائية الوطنية، وتجعل عزل الاقتصادات أو السياسات الوطنية عما حولها، أى فصل المحلى عما هو دولى، مستحيلاً. وثانيًا، يعمل بزوغ نظام مالى دولى متشابك الكترونيا على زيادة فرص الفساد بشكل ملحوظ، وعلى صعوبة السيطرة عليه، وعلى الأضرار التى يحتمل أن يلحقها. وثالثًا، حدثت زيادة لافتة للنظر فى عدد التحالفات التعاونية الاستراتيجية، داخل البلدان وعبر الحدود على حد سواء. وفى كثير من القطاعات الاستراتيجية، يمثل الاقتصاد العالمى الناشئ شبكة عالمية معقدة من الاتفاقات المعقودة فيما بين الشركات. ويزيد الطابع الارتباطى لهذه التحالفات من صعوبة ممارسة كل المديرين وصناع السياسات العامة للسيطرة إلى حد كبير... ويؤثر التعولم على كل المشكلة وحلها: فالحقائق العالمية الجديدة تيسر الفساد، علاوة على العمل على فضحه وكبحه بطرق أخرى)[٦].

تعرض الشركات المتعددة الجنسيات فى البلدان الصناعية الرشاوى بشكل معتاد على المسؤولين فى الدول النامية كوسيلة للفوز بصفقات الأعمال

وتعضيداً لهذا الرأى الذى يوضح أثر التكامل الاقتصادى على احتمالات استشراء الفساد يقدم باتريك جلين مثالاً واقعيًا عن دور بعض الشركات المتعددة فى تنامى ظاهرة الرشاوى: (تعرض الشركات المتعددة الجنسيات فى البلدان الصناعية الرشاوى بشكل معتاد على المسؤولين فى الدول النامية كوسيلة للفوز بصفقات الأعمال. ولا يسمح الكثير من الدول المتقدمة بتلك الرشاوى من الناحية القانونية فحسب، وإنما يسمح للشركات أيضًا بخصمها باعتبارها نفقات مشروعة لتصريف الاعمال. ولا يعتبر ذلك مثالاً للفساد واسع الانتشار وشنيعًا فقط، وإنما يعتبر أيضًا ممارسة تشجع بها البلدان الصناعية، فعلياً، على الفساد فى العالم النامى وتساهم فيه)[٧].

إن تعولم الفساد قد وسع دائرة انتشاره وآثاره السلبية فى معظم الدول، فى القطاع العام وفى القطاع الخاص الذى ظل يزداد نفوذًا وأثرًا فى السياسات العامة المالية والاقتصادية نتيجة لسياسات الانفتاح الاقتصادى التى تنتهجها حاليًا معظم الدول العربية. ونتيجة للتنامى المطرد لممارسات الفساد، فقد ظل مردود

التشريعات العربية الهادفة لتحجيمه ذات مردود عملى محدود وغير مواكب لموجة العولمة المتصاعدة. ويبدو جليًا أن العقبة الأولى التى تحول دون فعالية التشريعات العربية الحالية فى مكافحة الفساد متمثلة، كما يثبت د. عادل عبد اللطيف فى: (إن آليات ضبط الفساد ليس لها كيان مادى موحد، فهى عبارة عن مجموعة من القوانين والقرارات والأنظمة المبعثرة بشكل أساسى بين القانون الإدارى، والقانون المصرفى، والقانون المالى والضريبى، والقانون الجزائى، بالإضافة إلى السياسات التى تدعمها، والمؤسسات المتعددة التى ترعى تطبيقها وتفسيرها. وبالتالى فإن النظر فى مدى فعالية هذه المنظومة المعقدة، وفى قدرتها على الإستجابة لمتطلبات الاقتصاد العالمى الجديد، يحتم علينا البحث فى مدى تواجد نصوص مكافحة الفساد فى التشريعات العربية أولاً، ومن ثم الانطلاق إلى البحث فى جدية تطبيقها وقدرتها، فى ظل إطاريها الإجرائى والمؤسسى الحاليين، على مكافحة الفساد، ولاسيما بوجهه الجديد المتعولم)[٨].

[٤]

ليس من اليسير رصد وتحديد كل أشكال والوان الفساد على الصعيد الدولى، علماً بأن مخيلة المفسدين قادرة على إبتكار أساليب جديدة بغية اقتناص الفرص للكسب المادى غير المشروع. وتجدر الإشارة إلى أن معظم ممارسات الفساد على النطاق الدولى تدخل فى إطار الجريمة المنظمة، باستثناء قطاع مشاريع الأشغال العامة والبناء التى تشترك فى تمويلها وتنفيذها الشركات متعددة الجنسيات، والشركات الأجنبية بصفة عامة، وتدعمها الوكالات الدولية المتخصصة. لقد ظلت هذه المشاريع بالرغم من أنها أكثر القطاعات إثارة وجذبًا للفساد، كما تشير تقارير منظمة الشفافية العالمية، خارج إطار ما اصطلح عليه على الصعيد العالمى بالجريمة المنظمة.

وغنى عن القول أن الجريمة المنظمة على تعدد وتنوع أشكالها قد تنامت وتفاقمت وإزدادت آثارها المدمرة عمقًا على كافة الأصعدة القطرية والإقليمية والدولية فى ظل انتشار العولمة. يثبت ذلك أدام بيلوكس بقوله: (لقد نمت الجريمة المنظمة وتفاقمت تحت مظلة التطور التقنى وانتشار العولمة. فالعديد من الدراسات الميدانية تظهر العلاقة الوثيقة بين استشراء الجريمة المنظمة على الصعيد الدولى والتقدم المتصل فى وسائط الاتصالات الإلكترونية التى أتاحت وسهلت وسائل الاتصال بين المنظمات المنسقة والداعمة للجرائم الدولية. كما أعانت من جانب آخر منظمات الجريمة الدولية فى سرعة نقل الأموال عبر الحدود بين الدول)[٩].

وبالرغم من أنه ليس من اليسير رصد وتحديد كافة أوجه الفساد على المستوى العالمى ذات العلاقة بالجريمة المنظمة عبر الحدود، علمًا بأن هذه الأوجه فى تنوع وتفاقم مستمر نتيجة لاستحداثات متجددة من قبل المفسدين، إلا أننا نستطيع أن نخلص باستقراء الوضع الدولى حاليًا إلى أربعة أوجه تمثل المنظومة ذات الثقل الأكبر فى الفساد العالمى المرتبط بالجريمة المنظمة وهى:

- التجارة غير المشروعة فى السلاح.
- تجارة المخدرات.
- الإتجار بالإنسان.
- تبييض المال.

[٥]

تمثل الأسلحة الخفيفة الأداة الرئيسية للجريمة المنظمة فى التجارة غير المشروعة فى السلاح. ويقوم عادة تجار الأسلحة بدور رئيسى فى تحريكها وعقد الصفقات بين المصدرين والمستهلكين الذين عادة ما يمثلون إما دولاً منتجة للأسلحة يبيعونها لثوار أو جماعات مناوئة أو معارضة لحكومات محددة، أو يصدرونها لجماعات مسلحة تعمل كمافيات للجريمة المنظمة العابرة لحدود الدول والمعتمدة على تجارة المخدرات، أو استغلال الفقراء والإتجار بهم، أو القائمون على عمليات تبييض المال. وعادة ما يصاحب الإتجار غير المشروع فى السلاح، فى كل حالاته، الرشاوى لضمان تواطؤ المسئولين الرسميين الذين من المفترض أن يشكلوا حرسًا وحاجزًا حائلاً دون اختراق هذه التجارة غير المشروعة لحدود الدول.

ولقد ظلت التجارة غير المشروعة فى السلاح بمثابة الملتقى والمركز لنشاطات العديد من شبكات الجريمة المنظمة، بل إن بعضها قد قام فى الأساس على إذكاء وتأجيج الفتن والنزاعات بين الاثنيات والطوائف والدول بهدف إنشاء أسواق جديدة للإتجار بالأسلحة الخفيفة. ولقد كان من نتائج إضرام نار تجارة الأسلحة أن استعصى فى كثير من الحالات إيجاد الحلول الناجعة للنزاعات داخل الدولة الواحدة أو بين الدول المتجاورة.

لاجدال أن ملحق اتفاقية الأمم المتحدة الذى يتناول الحظر على تصنيع السلاح النارى والإتجار غير المشروع به يمثل مساهمة رائدة ومفيدة ضد جريمة الإتجار بالسلاح، غير أنه يحتاج إلى قدر كبير من التدابير لتفعيله ووضعه موضع التنفيذ العملى، وماذلك بالأمر اليسير. يضاف إلى ذلك أهمية ابتداع مزيد من الاتفاقيات والنظم والإجراءآت الإقليمية والدولية التى تدعمه وتقوض وتحد من آفة التجارة غير المشروعة فى الأسلحة.

[٦]

لقد أصبح ما يعرف أحيانًا باقتصاد المخدرات فى تنام مطرد نتيجة عمليات إنتاج وتسويق المخدرات التى تنتظم فى إطارها بعض الدول، وبعض المؤسسات، وعصابات إجرامية منظمة، ينال كل منها نسبة من الثراء غير المشروع تؤثر تأثيراً عميقًا ومهدراً لإمكانات النمو الاقتصادى والاجتماعى. يضاف إلى ذلك ما يرتبط بهذه التجارة غير المشروعة من نشاطات إجرامية لإفساد البعض من: أجهزة الأمن، وأجهزة الشرطة، وضباط الجمارك، وحرس الحدود، وغيرهم من المسئولين. بل إن جرأة تجار المخدرات وطموحاتهم قد مكنتهم فى بعض الاحيان، من تبوء مراكز رسمية فى بعض الحكومات استخدموها استخداماً بشعاً فى إضفاء درجة من التجميل الاجتماعى لزيادة نفوذهم واتساع تجارتهم الفاسدة.

إن العديد من الاتفاقيات الإقليمية والدولية والمعاهدات الثنائية، تشير إلى الاهتمام المتزايد على الصعيد العالمى بالتصدى لآفة الإتجار بالمخدرات والحد من آثارها التدميرية على كافة المحاور السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ومن أهم هذه الاتفاقيات الدولية ثلاث حظيت بالمصادقة والتوقيع من عدد كبير من الدول، وهى: «الاتفاقية الرئيسية للمخدرات للعام ١٩٦١»، و«اتفاقية المؤثرات العقلية لسنة ١٩٧١» و«اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الإتجار غير المشروع بالمخدرات والمؤثرات العقلية لعام ١٩٨٨».

ويظل ميدان تجارة المخدرات محتاجًا إلى مزيد من الاهتمام ومزيد من الاتفاقيات والنظم والتدابير التى تحد من هذه التجارة ذات الآثار التدميرية ليس على الاقتصاد العالمى واقتصاديات الدول فحسب، بل على صحة وقيم المجتمعات الحالية وما تحلم به من قيم فاضلة ورفاهية للأجيال القادمة.

[٧]

إن الفقر المدقع والعوز المادى القاهر من جانب، والشره للإثراء المادى بكل آليات الفساد من جانب آخر، قد قاد إلى تجارة واسعة فى الإنسان عبر الحدود القطرية، بإرادة هؤلاء الفقراء أحيانًا وبغير إرادتهم فى أحيان أخرى. وتشمل هذه التجارة غير الإنسانية الرجال والنساء والأطفال. ويتم نقل هؤلاء الضحايا طوعًا فى بعض الاحيان، وقسرًا فى معظم الاحيان، ليعملوا كخدم للمنازل، أو عُمال مرتهنين، أو فى البغاء. كما يتم دفعهم أحيانًا لحمل السلاح فى

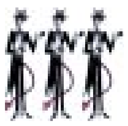

تمثل الأسلحة الخفيفة الأداة الرئيسية للجريمة المنظمة فى التجارة غير المشروعة فى السلاح

حروب لا يعرفون من أسبابها شيئًا، ليكونوا وقودها وأكثر ضحاياها. يضاف إلى ذلك إن الضائقة الاقتصادية التى تعانى منها بعض الدول قد جعلها دولاً طاردة لمواطنيها الذين يتطلعون إلى فرص مواتية وجاذبة فى دول أخرى، الوضع الذى أدى إلى زيادة شبكات الجريمة المنظمة فى تهريب المهاجرين بصورة غير قانونية.

ومما يبعث على الأسى أن الإتجار بالإنسان قد تعولم، فاتسعت شبكات المافيا التى كانت تعمل فى مناطق محدودة، وسعت لإنشاء أسواق جديدة عبر الحدود لكى يتحقق لها السيطرة وتأمين توافر كل الاحتياجات من هذه التجارة الفاسدة.

ولا يزال علاج هذه المشكلة محدوداً، الوضع الذى مكن مقترفى هذه الجريمة من توسيع تجارتهم غير الإنسانية دون الخشية من تطبيق قوانين أو إجراءآت رادعة. غير أنه من الاهمية بمكان الإشارة إلى أن هذا المجال ظل يحظى باهتمام مطرد من المجتمع الإقليمى والدولى فى العقود الأخيرة. وكان نتيجة هذا الاهتمام العديد من الاتفاقيات على الصعيد الإقليمى، واتفاقية الأمم المتحدة ضد الجريمة المنظمة عبر الحدود التى نصت على مجموعة من الإجراءآت لمواجهة ومكافحة الإتجار بالإنسان لاسيما النساء والأطفال، ومعاقبة كافة مرتكبى أنواع الإتجار بالإنسان. وغنى عن القول أن هذا المجال الذى يتسم ببشاعة تجارة غير إنسانية لايزال محفوفًا بالمخاطر وبالمخازى وبالمفاسد، ويحتاج إلى تفعيل الإتفاقيات والمزيد من التدابير والنظم الإقليمية والدولية لاجتثاث مسبباته وإنزال عقوبات رادعة على مرتكبيه.

[٨]

إن مصطلح تبييض المال يعنى إخفاء المصدر الأساسى للمال باتخاذ سلسلة من الإجراءات تكون نتيجتها أن يظهر المال كأنه آت من مصدر شرعى، وبذلك يتمكن من حصلوا عليه بطرق فاسدة وباقتراف جرائم منظمة عبر الحدود، من استعماله بحرية ومن دون التعرض لملاحقات قضائية.

ولقد كان تبييض المال فى بدايته مرتبطًا بجريمة الإتجار بالمخدرات بشكل خاص، إلا أنه الآن ونسبة لنتائج العولمة الاقتصادية قد أصبح مرتبطًا بمعظم الجرائم الاقتصادية المنطلقة من كل بؤر الفساد والجرائم المنظمة على تعددها وتنوعها. لقد استغل المفسدون فى هذا الجانب توسع السوق المالى على المستوى العالمى، واستفادوا من الفوارق بين أنظمة وأساليب الرقابة المالية المطبقة داخل الدول، واقتنصوا فرص سرعة نقل المال بالأساليب الإلكترونية، فأنشأوا وأداروا شركات تبدو فى ظاهرها قانونية لكنها تعمل فعليًا فى إطار جريمة غسل المال.

وتشير الدراسات الميدانية فى المستويات القطرية والإقليمية والدولية إلى أن الجرائم المالية الملتصقة بغسل المال هى أكثر الجرائم نموًا فى العالم لارتباطها الوثيق بكافة أشكال الفساد والجرائم المنظمة عبر الحدود.

ولا تزال النظم والتدابير لمكافحة جريمة تبييض المال محدودة، علمًا بأن التطورات الناتجة من الأنظمة المالية العالمية فى عصر العولمة قد جعلت القدرة على اكتشاف وحجز المال غير المشروع أمرًا فى غاية الصعوبة، غير أن ذلك ليس بمستحيل متى ما تضافرت الجهود فى كافة الأصعدة الإقليمية والدولية، وخلصت النوايا لتفعيل الاتفاقيات والأنظمة التى تحد من أخطار ومهالك غسيل المال الذى يدعم ويغذى ويروج لمفاسد متعددة ويحمى شبكات الجريمة المنظمة.

[٩]

يهدف هذا الجزء من الدراسة لإبراز أهمية التخطيط فى إطار الدولة لمواجهة الفساد العالمى بكل اشكاله وألوانه. ذلك جهد فى رأينا يستوجب رؤية متكاملة تعنى بالتخطيط لمواجهة ومكافحة الفساد العالمى بالاستعانة بأربعة محاور أساسية وهى:

بناء منظومة النزاهة على مستوى المجتمع.

بناء وتطوير وتجديد الأنظمة والتدابير الإدارية الداعمة للنزاهة والعدالة.

إنشاء المؤسسات المستقلة الهادفة لمكافحة الفساد الإدارى.

الانضمام إلى الاتفاقيات الدولية والإقليمية، وتبنى رؤى ومشروعات المؤسسات الدولية الهادفة لمواجهة الفساد فى كافة أشكاله ومستوياته.

فى إطار بناء منظومة النزاهة على مستوى المجتمع نرى أهمية وضع الاعتبار الواجب لهذه المكونات والمقومات الأساسية:

أولاً، التزام القيادة السياسية فى كل مستوياتها بمحاربة الفساد فى جميع الكيانات السياسية والأجهزة التشريعية والتنفيذية والقضائية، وإصدار القوانين التى تحرم الفساد وأن تحرص على تطبيقها بحزم.

ثانياً، العمل على توافر بيئة سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وإدارية تؤدى فى إطارها الخدمات دون أية تدخلات رسمية.

ثالثاً، تأمين سيادة القانون واستقلالية القضاء.

رابعًا، تأكيد حرية الصحافة بنشر الحقائق وانسياب المعلومات وعدم التعتيم على جرائم المفسدين أيًا كان مستواهم.

خامسًا، بث ثقافة مجتمعية تعظم من قيم الشفافية، والنزاهة، والإتقان، والأمانة، والصدق والعدالة.

سادسًا، تمكين مؤسسات المجتمع المدنى ذات العلاقة بالممارسات المهنية من مباشرة الرقابة والمتابعة للنظم والممارسات بالقدر الذى يؤمن استيفاءها لمقومات النزاهة والعدالة.

سابعًا، تفعيل دور التجمعات المهنية مثل الغرف التجارية والاتحادات الصناعية والجمعيات الرقابية لمباشرة دورها الرقابى، ومجابهة الفساد، وتأمين النزاهة فى كل الممارسات.

ثامنًا، العمل لتوافر القنوات الفعالة لتمكين الجمهور من عرض شكاواهم المتعلقة بالخدمات العامة غير الملائمة أو غير العادلة، وتحديد سقف زمنى للأجهزة المعنية للرد على هذه الشكاوى.

تاسعًا، العمل بإقرار الذمم المالية للممتلكات والاستثمارات فوق سقف معين للمسئولين الحكوميين، وبما فيها المبالغ بأسماء المعالين، والإقرار بالمصالح المتناقضة إن وجدت لدى موظفى القطاع العام، والتأكيد على ضرورة خضوع موظفى الخدمة العامة وكذلك المسئولين السياسيين للمساءلة عن مصادر هذه الممتلكات.

أما محور بناء وتطوير الأنظمة والتدابير الإدارية الداعمة للنزاهة والعدالة فينبغى أن يهدف إلى تأصيل المقومات والمكونات التالية:

أولاً، التركيز فى البرامج التأهيلية والتدريبية لكل المستويات الوظيفية على تأصيل وتطوير أخلاقيات ومسئوليات الوظيفة العامة.

ثانيًا، اعتماد نظام التدوير الوظيفى Job Rotation خاصة فى الوظائف ذات العلاقة المباشرة مع الجمهور، وتقتضى طبيعتها اللجوء إلى السلطة التقديرية فى بعض الأحيان.

ثالثًا، مراقبة ومتابعة عمليات اتخاذ القرارات بما يمكن من توزيع العمل وتطوير نظم المساءلة بهدف الحد من ممارسات الفساد.

رابعًا، مراجعة القوانين لإجراء التعديلات التشريعية والإدارية لتعزيز نظم المساءلة القانونية والمالية والإدارية للحد من فرص الفساد.

خامسًا، إتاحة فرصة التظلم بوسائل سريعة وحاسمة.

سادسًا، مصادرة الممتلكات التى تم الحصول عليها بطرق فاسدة وغير مشروعة.

سابعًا، التعاون المشترك على المستوى الإقليمى والدولى لمحاربة الفساد، والسعى للاستفادة فى إطار المقياس المعيارى Marking Bench من الأجهزة التى أثبتت الكفاءة والفعالية فى محاربة الفساد.

ويأتى فى طليعة المؤسسات المستقلة

يهدف هذا الجزء من الدراسة لإبراز أهمية التخطيط فى إطار الدولة لمواجهة الفساد العالمى بكل اشكاله وألوانه

الرقص مع الفساد!!

الهادفة لمواجهة ومكافحة الفساد الإدارى مؤسسة الرقيب الإدارى أو ما يعرف أحيانًا بمكتب الادعاء العام والتحقيق فى الشكاوى، وهو يمثل جهدًا إبداعيًا بادرت به السويد عام ١٨٠٩ فى محاولة للتوفيق بين جوانب المعادلة الصعبة: السياسة، والإدارة، والمساءلة. لقد رأت السويد قبل غيرها من البلاد فى عام ١٨٠٩ أن البيروقراطية تلعب دورًا أساسيًا، وأن نفوذها وسطوتها تزيد يومًا بعد آخر، وسيظل هذا الدور ينمو ويتضخم مع كل صبح جديد. ومادامت الإدارة الحكومية ضرورة لايمكن لاى بلد متحضر الإستغناء عنها يصبح الحل الوحيد استحداث نظم تواكب تطورها وتراقب سلطاتها. لهذا رؤى أن نظام الرقيب الإدارى (Justitie Ombudsman) هو النظام الأفضل الذى يحفظ حق المواطن وذلك عن طريق البحث فى الشكاوى التى تقدم اليه عن ظلم وقع فى أى جهاز حكومى. كما أن له الحق فى تفتيش المكاتب الحكومية كى يضمن الإنصاف فى جميع المسائل التى يعالجها الموظفون فى عملهم اليومى.

فى ضوء هذا التصور برهن نظام الرقيب الإدارى فعالية فى السويد، وكسب ثقة بلاد أخرى، فطبقته فنلندا فى عام ١٩١٩ ثم الدنمارك فى عام ١٩٥٥، ونيوزيلندا فى عام ١٩٦٢، ثم المملكة المتحدة، وبعدها الولايات المتحدة، وبعض الدول النامية.

والرقيب الإدارى مستقل إستقلالاً كاملاً عن الحكومة. ولايقتصر إستقلاله عن الحكومة فقط، بل حتى عن البرلمان، وهو الوحيد الذى يقرر القضايا التى يريد بحثها وليس لاحد الحق فى نصحه لإنتهاج طريقة معينة. ونجد أن السلطات التى منحت للرقيب الإدارى فى السويد لم تتغير منذ وضعها، وهى كما أشرنا تشمل الهيئة القضائية والخدمة المدنية.

ولكى يقوم الرقيب بعمله على الوجه الأفضل فقد أعطى الحق فى الاطلاع على جميع الوثائق والمكاتبات الحكومية حتى السرى منها. كما أن له الحق فى حضور أى إجتماع أو مناقشة يراها ضرورية لإستكشاف أبعاد جديدة فى أى قضية يقوم بدراستها. وللرقيب التفويض الكامل لإجراء أى تفتيش يراه مناسبًا لكى يلمس بنفسه كيفية سير الحياة اليومية فى دواوين الحكومة.

أما المحور الرابع المنادى بالإنضمام إلى الإتفاقيات الدولية والإقليمية وتبنى رؤى المؤسسات الدولية الهادفة لمواجهة ومحاربة الفساد فى كافة أشكاله تبرز حقيقة أن الفساد قد أصبح بمثابة الوباء الذى اخترق كل الدول، وأصبح بالتالى لابد من التصدى له، وتضافر كل الجهود لمواجهته وتحجيمه والعمل على إزالة كل أسبابه وآثاره التدميرية. وتتمثل الخطوة الرئيسية فى هذا الشأن فى الإنضمام والمصادقة على كافة الاتفاقيات والمعاهدات الإقليمية والدولية الهادفة لمواجهة الفساد العالمى، والعمل فى ذات الوقت لاتخاذ كل التدابير والإجراءآت التى تضع نصوص هذه الإتفاقيات والمواثيق الدولية موضع التنفيذ الفعلى.

وتأتى فى صدارة هذه الاتفاقيات إتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد التى تبنتها الجمعية العامة للأمم المتحدة، وتم التوقيع عليها فى المكسيك فى ديسمبر من عام ٢٠٠٣. وقد اعتمدت هذه الاتفاقية توصيفًا للأعمال الإجرامية المعبرة عن السلوك الفاسد.

ومن جانب آخر فإن منظمة الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة قد عنيت بإعداد وإبرام اتفاقيات خاصة للتصدى لمواجهة الفساد المتمثل فى الجرائم المنظمة العابرة للحدود، ومنها الإتفاقيات والمواثيق المعنية بمواجهة ومحاربة تجارة المخدرات، والإتجار بالإنسان، والتجارة غير المشروعة فى السلاح، وكل أوجه الاحتيال والفساد الماثلة والمتوقعة فى تبييض المال. ولا جدال، أن المصادقة والانضمام والعمل بموجب هذه الاتفاقيات لا غنى عنه لأى دولة تريد أن تقوم بدور ملتزم وجاد فى محاربة كل أشكال الفساد العالمى.

وتظل الضرورة ماثلة على مستوى الدول العربية لتفعيل كل الاتفاقيات الثنائية والإقليمية التى أبرمتها لمواجهة الفساد، ووضعها موضع التنفيذ الفعلى. كما عليها من جانب آخر النظر فى الثغرات التى يطل منها الفساد على نحو جديد وغير مسبوق. ومن هذه الثقوب التى تقوض فى معظم الأحيان جهود الدول العربية فى مواجهة الفساد عدم تكامل معايير الولاية القضائية. يثبت ذلك د. داود خير الله بقوله: (يكتسب طرح إشكالية عدم تكامل معايير الولاية القضائية فى بعض الدول العربية أهمية إضافية فى ظل العولمة الاقتصادية، وتحول الشركات الكبرى من وطنية إلى غير وطنية. فتكامل هذه المعايير من شأنه أن يُضيق الخناق على مرتكبى أفعال الفساد بحيث يمكن السلطات المختصة من ملاحقتهم بغض النظر عما قد يلجأون إليه من وسائل احتيالية للنفاذ من قبضة الاختصاص القضائى لسلطة دولة ما. فكثيراً ما نرى مرتكبى جرائم الفساد يستفيدون من ثغرات تشريعية توفر إمكانية تملصهم من ولاية القضاء، إما لنقص فى قواعد الولاية القضائية، وإما لتوزع أركان وأفعال جرائم الفساد المنظم بين أكثر من دولة)(١٠).

[١٠]

يمكننا أن نخلص إلى القول بأن العالم قد شهد منذ منتصف القرن الماضى اتساعًا لدائرة الفساد، وازدياد حلقاته، وترابط آلياته، وعمق تأثيره السلبى الخطير على كل القطاعات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإدارية، وفى مختلف الأصعدة القطرية والإقليمية والدولية. ويعود هذا الانتشار السرطانى للفساد فى المكان الأول لنتائج العولمة القائمة على زيادة وتوسيع التكامل الاقتصادى العالمى بالقدر الذى يجعل عزل الاقتصادات الوطنية عما حولها أمرًا مستحيلاً. لقد أصبح عالم اليوم بمثابة قرية كونية تعيش نتيجة لثورة الاتصالات والمعلومات فى تبادل وتكامل، وما عاد بإمكان أى دولة أن تعيش كجزيرة منعزلة بمعزل عن تأثير التحولات والتغييرات العالمية.

أزاء هذا الوضع أصبحت ظاهرة الفساد وما تستبطنه من ممارسات غير مشروعة وجرائم مخترقة للحدود بين الدول، فى موقع الصدارة وموضع الاهتمام على كافة الأصعدة القطرية والإقليمية والدولية. لهذا لابد من تضافر جهود الحكومات، والقطاع الخاص، ومنظمات المجتمع المدنى، والمؤسسات والوكالات الدولية والإقليمية بغية ابتداع ما يمكن من اتفاقيات، وتدابير ونظم وإجراءات لمواجهة وتحجيم الفساد. ■

كثيراً ما نرى مرتكبى جرائم الفساد يستفيدون من ثغرات تشريعية توفر إمكانية تملصهم من ولاية القضاء

هوامش

د. محمود عبد الفضيل: مفهوم الفساد ومعاييره، مجلة المستقبل العربى، العدد ٣٠٩، نوفمبر ٢٠٠٤، ص (٣٤).

د. هدى متكيس: الشروط السياسية للتنمية، فى كتاب الفساد والتنمية، قضايا التنمية (١٤)، مركز دراسات وبحوث الدول النامية، القاهرة ١٩٩٩، ص(٢٨).

د. صلاح سالم زرنوقة: تحليل قضايا الفساد فى مصر، فى كتاب الفساد والتنمية، قضايا التنمية (١٤)، مركز دراسات وبحوث الدول النامية، القاهرة ١٩٩٩، ص (٢٩٦ . ٣٠٠).

W. Pattii Amaah & others، Combating Corruption، (World Bank، Washington D.C. ١٩٩٩) P. (٢).

د. داود خير الله: الفساد كظاهرة عالمية وآليات ضبطها، مجلة المستقبل العربى، العدد ٣٠٩، نوفمبر ٢٠٠٤، ص (٦٦).

باتريك جلين وآخرون: تعولم الفساد، فى كتاب الفساد والاقتصاد العالمى، تحرير كيمبرلى آن اليوت، ترجمة محمد جمال إمام، القاهرة، مركز الإهرام للترجمة والنشر، عام ٢٠٠٠م، ص (٢٦).

باتريك جلين وآخرون: نفس المرجع السابق، ص (٣٢).

د. عادل عبد اللطيف: الفساد كظاهرة عربية وآليات ضبطها، مجلة المستقبل العربى، العدد ٣٠٩، نوفمبر ٢٠٠٤، ص (١٠٠).

Adam Bouloukos & others: A Transnational Organized Crime in Europe and North America: Towards a Framework for Prevention in: Report on the Sixth United Nations Survey on Crime Trends and Criminal Justice Systems، Criminal Justice، (New York Press 2003) P. 176.

د. داود خير الله: نفس المرجع السابق، ص (١٠٦).

من يقدر على إيران؟

جيفرى جولدبرج
Jeffrey Goldberg

نقطة اللاعودة

من المؤلم لإدارة أوباما تصور إيران كدولة نووية فى المستقبل ـ فإن ذلك سوف يخلق تحديات قومية ـ أمنية كبيرة وجديدة، وسوف يحطم أيضا حلم الرئيس فى إنهاء الانتشار النووى. ولكن المشهد من جانب القدس كان أكثر كآبة: إن إيران النووية تمثل إلى جانب أشياء أخرى تهديدا حقيقيا لوجود إسرائيل. وفى المسافة ما بين رؤى واشنطن والقدس لإيران يكمن السؤال التالى: من ـ إذا كان هناك بالفعل أحد ـ الذى سيمنع إيران من أن تكون دولة نووية وكيف؟ وبينما يقوم كل من واشنطن والقدس بدراسة بعضهما البعض عن كثب، نقدم لكم هنا نظرة من الداخل (داخلية) على الحسابات الإستراتيجية لكل جانب ـ وكيف ستكون الضربة الجوية الإسرائيلية إذا ما استمرت الأحداث على ماهى عليه.

■■ إن العقوبات الاقتصادية المدمرة التى فُرضت على جمهورية إيران الإسلامية قد تقنعها فى وقت ما خلال الاثنى عشر شهرا القادمة بالكف عن البحث عن أسلحة نووية. ومن الممكن أيضا أن تحل الحركة الخضراء الإيرانية التى تنادى بالإصلاح محل النظام الذى يقوده الملالى بطريقة ما أو على الأقل تكتشف وسائل تستطيع بواسطتها أن تعدل من التطرف الأيديولوجى للحكم. ويمكن أيضا تنفيذ «عمليات إحباط» بقيادة وكالات الاستخبارات الإسرائيلية والأمريكية والبريطانية والقوى الغربية الأخرى. وهى برامج صممت لتدمير الجهود النووية الإيرانية من خلال عمليات تخريب وفى بعض الأحيان تنفيذ عمليات ناجحة يختفى فيها علماء نوويين. مما يعيق تقدم إيران بدرجة كبيرة. ومن الممكن أيضا أن يقوم الرئيس أوباما، الذى أعلن فى مناسبات عدة أنه يعتبر فكرة إيران نووية «شىء غير مقبول»، بضربة عسكرية ضد المنشآت النووية ومفاعل تخصيب اليورانيوم.

ولكن كل هذه الأفكار لا تبدو ممكنة الحدوث فى الوقت الحالى، خاصة وإنه من المستبعد أن يقوم باراك أوباما بشن عملية عسكرية ضد إيران، لأن إشعال حروب جديدة فى الشرق الأوسط ليست من أهداف سياسته الخارجية. ولكن من الأرجح أن يقوم المستشار القومى والأمنى الإسرائيلى عوزى أراد ووزير الدفاع الإسرائيلى يهود باراك فى أحد أيام الربيع المقبل بالاتصال هاتفيا فى وقت متزامن مع نظرائهم فى البيت الأبيض والبنتاجون لإعلامهم بأن رئيس وزرائهم بنيامين نتنياهو قد أصدر أمرا فى التو لحوالى مائة طائرة اف ١٥E، اف ١٦I واف ١٦C وطائرات أخرى من القوات الجوية الإسرائيلية بالطيران شرقا فى اتجاه إيران. إما عبر المملكة العربية السعودية أو بمحاذاة الحدود بين سوريا وتركيا أو غالبا بالطيران مباشرة عبر المجال الجوى العراقى بالرغم من أن ذلك المجال مزدحم بالطائرات الأمريكية. (إن المجال الجوى العراقى فى الواقع مزدحم لدرجة أنه عندما سألت القيادة المركزية الأمريكية المسئولة عن الشرق الأوسط الكبير البنتاجون عما يجب عمله إذا قامت إسرائيل بغزو هذا المجال الجوى، كانت الإجابة طبقا لمصادر عديدة «لا تطلق النار عليهم»). وفى هذه الأحاديث المشحونة سوف يخبر الإسرائيليون نظراءهم الأمريكيين أنهم قد أخذوا هذه الخطوة العنيفة لأن إيران النووية تمثل أخطر تهديد لبقاء الشعب اليهودى منذ هتلر. وسوف يؤكد الإسرائيليون أنهم يعتقدون أنهم بذلك سوف يخلقون فرصة معقولة لتعطيل البرنامج النووى الإيرانى على الأقل لمدة تتراوح من ثلاث إلى خمس سنوات. سوف يقولون لزملائهم الأمريكان إنه لم يكن لدى إسرائيل أى خيار آخر.

فور انطلاق الطائرات الإسرائيلية بشكل جماعى من قواعدها عبر إسرائيل لتبدأ فى قصف أماكن تخصيب اليورانيوم فى ناتانز وموقع التخصيب السرى السابق فى قم ومركز الأبحاث النووية فى أصفهان ومن الممكن أيضا قصفها لمفاعل بوشير بالإضافة للمواقع الرئيسية الأخرى فى البرنامج النووى الإيرانى، يصبح متاحا لهم فرصة تغيير الشرق الأوسط إلى الأبد. بغض النظر عما إذا نجحوا فى تدمير أجهزة الطرد المركزى الإيرانية ومصانع الصواريخ والرؤوس النووية أو حتى إذا فشلوا تماما فى إحداث أى تأثير سلبى بسيط فى البرنامج النووى الإيرانى.

قد يسبب ذلك إشعال أعمال عنف شرسة أو حرب إقليمية واسعة النطاق ينتج عنها قتل آلاف الإسرائيليين والإيرانيين وربما عرب وأمريكان أيضا؛ قد يسبب ذلك أزمة حرجة لباراك أوباما لتقزيم حرب أفغانستان فى الأهمية والتعقيد؛ قد تمزق العلاقات بين القدس وواشنطن التى تعتبر الحليف المُجدى الوحيد؛ قد ترسخ عن غير قصد حكم الملالى الضعيف نسبيا فى طهران؛ قد يسبب ذلك ارتفاعا كارثيًا فى أسعار البترول فينطلق الاقتصاد العالمى فى فترة من الاضطرابات لم يشهدها العالم منذ خريف ٢٠٠٨ أو حتى منذ صدمة البترول فى عام ١٩٧٣؛ قد يضع مجتمعات فى جميع أنحاء الشتات اليهودى فى خطر مميت وذلك بجعلهم أهدافا للهجمات الإرهابية التى تمولها إيران بطريقة محدودة ولكنها مميتة كما كانوا فى الماضى؛ وأخيرا يكون ذلك سببا فى تعجيل تحول إسرائيل من ملاذ محترم لشعب مضطهد إلى كيان منبوذ من الشعوب الأخرى.

أما إذا نجحت الضربة فى إصابة البرنامج النووى الإيرانى بالشلل تكون إسرائيل قد نجحت. بالإضافة إلى إحداث خليط من الكوارث العديدة التى تم تحديدها سابقا. فى إزالة الشبح الملح والمسلح نوويا. المدفوع بوازع دينى ومعاداة السامية. من قائمة مخاوفها؛ وقد تحصل لنفسها على شكر سرى ـ على الرغم من الإدانة العامة من الأنظمة العربية المعتدلة فى الشرق الأوسط التى تخشى القنبلة النووية الإيرانية بالقدر الذى تخشاه إسرائيل فى بعض الحالات. وسوف تنجح إسرائيل فى التصدى لانتشار الأسلحة النووية فى الشرق الأوسط وذلك لكونه الهدف الرئيسى للشخص المتحمس الذى يسكن حاليا فى البيت الأبيض، ولاستخدامها للمقاومة المسلحة التى لها ما يبررها فى هذا السياق.

عندما أناقش معقولية والعواقب المحتملة لهجوم إسرائيلى على إيران، فأنا لا أمارس تدريبات ذهنية أو لعبة حرب الرجل الواحد، ولكن إسرائيل كانت قد قامت من قبل بهجومين ناجحين حطمت

بترتيب مع: The Atlantic Monthly

ترجمة: ميسون شعث

Jeffrey Goldberg is a national correspondent for *The Atlantic*. Author of the book Prisoners: *A Story of Friendship and Terror*, he has reported from the Middle East and Africa. He also writes the magazine's advice column.

PISANESCHI 2006

ينبغي عدم السماح لأى خصم إقليمى بتحقيق التكافؤ النووى مع الدولة اليهودية التى ولدت من جديد ولا تزال محاصرة

عندما يمسك المؤمن الجرىء بزمام السلطة وأسلحة الموت الشامل، على العالم أن يشعر بالقلق

«إذا افترضنا أنه لن يتغير شىء فى هذه التقديرات، هذا يعنى أن علينا أن نبدأ التفكير فى خطوتنا التالية ابتداء من مطلع العام القادم»

فيهما البرنامج النووى للعدو. فى عام ١٩٨١ عندما قامت الطائرات الإسرائيلية بقصف المفاعل العراقى فى أوزيراك وأنهت بذلك وللأبد كما اتضح. الطموح النووى لصدام حسين؛ وفى عام ٢٠٠٧ عندما حطمت الطائرات الإسرائيلية المفاعل النووى الذى أقامته كوريا الشمالية فى سوريا، وبالتالى فإن الجديد فى الهجوم على إيران هو فقط بعدها الجغرافى والتعقيدات التى حولها.

منذ سبع سنوات عندما قمت بزيارتى الأولى لطهران فى محاولة لفهم الرغبة الإيرانية للحصول على أسلحة نووية ورغبة النظام الناتجة عن دوافع دينية ليرى الشرق الأوسط وقد تم تطهيره من الدولة اليهودية وأنا أحاول استكشاف إمكانية حدوث مثل هذه الضربة، خصوصا منذ مارس ٢٠٠٩ عندما دخلت فى مناقشة مطولة مع بنيامين نتنياهو بخصوص البرنامج النووى الإيرانى وكان ذلك قبل أن يحلف اليمين ليكون رئيس وزراء إسرائيل ببضع ساعات. وفى الأشهر التى تلت هذا النقاش قمت بعمل لقاءات مع أكثر من أربعين إسرائيليا من صناع القرار الحاليين والسابقين وكذلك مع مسئولين عرب وأمريكان لمناقشة إمكانية حدوث ضربة عسكرية. وطرحت أثناء معظم هذه اللقاءات سؤالا بسيطا هو: ما هى النسبة المئوية فى أن تقوم إسرائيل بمهاجمة البرنامج النووى الإيرانى فى المستقبل القريب؟ لم يجب الجميع على السؤال ولكن توافقت الآراء بأن الفرصة تزيد على خمسين بالمائة بأن تقوم إسرائيل بضربتها هذه فى شهر يوليو المقبل. وبالطبع أنه فى مصلحة إسرائيل أن تجعل العالم يدرك أنها تفكر فى عملية عسكرية وإن لم يكن لسبب آخر سوى أن تحظى بتركيز اهتمام إدارة أوباما. ولكنى اختبرت توافق الآراء هذا بالحديث إلى مصادر متعددة داخل وخارج الحكومة، والأحزاب السياسية المختلفة، وبسبب الحساسية غير العادية فى هذا الموضوع، تحدث معظمهم على مضض، وطلبوا عدم نشر أسمائهم. لم يكونوا جزءا من حملة علاقات عامة، لذا كان المنطق التى تحدث به صناع القرار الإسرائيلى غير معقد: إيران تبعد من ٣.١ سنوات على الأكثر، من إمكانية الوصول إلى قدرات نووية (فهى غالبا ما ستكون القدرة على تركيب أكثر من جهاز نووى لصواريخ جاهزة فى غضون ثلاثة أشهر تقريبا بعد صدور قرار القيام بذلك). لقد جعل النظام الإيرانى نفسه العدو الأكثر تعصبا لإسرائيل من خلال تصريحاته وأفعاله،لأن أهم عنصر فى عقيدة الأمن القومى الإسرائيلى الذى يعود إلى ١٩٦٠ . عندما استطاعت إسرائيل تطوير قدراتها النووية كرد على تجربة اليهود خلال المحرقة. وهو أنه ينبغى عدم السماح لأى خصم إقليمى بتحقيق التكافؤ النووى مع الدولة اليهودية التى ولدت من جديد ولا تزال محاصرة.

فى حديثنا قبل أدائه اليمين، رفض نتنياهو أن يضع هذه القضية فى إطار التكافوء النووى حيث سياسة إسرائيل الأميموت amimut، أو الغموض، تحظر الاعتراف بوجود ترسانة نووية للبلاد، والتى تتألف من أكثر من ١٠٠ قطعة سلاح، وهى أساسا أجهزة حرارية ذات مرحلتين يمكن إرسالها بواسطة صاروخ أو قذيفة مقاتلة أو غواصة (اثنتان منها متمركزتان حاليا فى الخليج الفارسى حسب أقوال مصادر مخابراتية)، بدلا من ذلك، صرح نتنياهو أن البرنامج الإيرانى يشكل تهديدا ليس فقط لإسرائيل بل لمجمل الحضارة الغربية.

قال «لا نريد سيطرة دين رهيب messianic على قنابل ذرية،» ثم أضاف «عندما يمسك المؤمن الجرىء بزمام السلطة وأسلحة الموت الشامل، على العالم أن يشعر بالقلق، وهذا ما يحدث الآن فى إيران». ثم قال لى نتانياهو أن إسرائيل قلقة من مجموعة مشكلات معقدة، وليس فقط أن ايران، أو أحد وكلائها، قد يدمر تل أبيب، ولكنه مثل معظم القادة الإسرائيليين، قال انه يعتقد انه إذا امتلكت إيران سلاحا نوويا، فإنها ستستخدم قوتها الجديدة فى دعم عملائها الإرهابيين فى محاولاتهم لجعل الحياة صعبة وخطيرة، وأنه يخشى أن تتزعزع مكانة إسرائيل كملاذ لليهود إلى الأبد، ومعها سينتفى سبب وجود التجربة الصهيونية ذات المائة عام.

أثناء هذا اللقاء، رفض نتنياهو مناقشة جدوله الزمنى للعمل، أو ما إذا كان حتى يفكر فى عملية وقائية عسكرية ضد البرنامج النووى الإيرانى. ولكن ساعدنى آخرون من هم على دراية بطريقة تفكيره لفهم نظرته العالمية. يعتقد نتنياهو أن إيران ليست مشكلة إسرائيل وحدها، بل هى مشكلة العالم بأكمله، وبالتالى أنه من واجب العالم، بقيادة الولايات المتحدة، التعامل معها.

ولكن نتنياهو لا يضع ثقة كبيرة فى العقوبات، وخاصة العقوبات الضعيفة نسبيا التى صدرت مؤخرا من قبل مجلس الأمن للأمم المتحدة، ولا فى العقوبات الأكثر صرامة التى فرضتها الولايات المتحدة وحلفاؤها الأوربيون. والأشخاص القريبون منه يقولون أن نتنياهو يدرك أن الرئيس أوباما. الذى تربطه به علاقة صعبة شابها التوتر والبرود بشكل متقطع، وإن كان الجليد قد بدأ فى الذوبان فى الآونة الأخيرة. يعتقد أن العقوبات الصارمة، جنبا إلى جنب مع مختلف الإغراءات للتعامل مع الغرب، يمكن أن توفر لإيران ما وصفه لى أحد المسئولين فى الإدارة الأمريكية «خطوة محترمة تضطر إيران اتخاذها للهروب من المنحدر».

ولكن، استنادا إلى ما قيل لى من قبل صانعى القرار الإسرائيلى، فإن هذه الفترة من التسامح والصبر، الذى ينتظر نتنياهو خلالها لمعرفة ما إذا كانت أساليب الغرب غير العسكرية يمكن أن توقف إيران، سوف تنتهى فى ديسمبر (كانون الأول) المقبل. وكان قد قال روبرت جيتس، وزير الدفاع الأمريكى، فى حزيران / يونيو الماضى خلال اجتماع لوزراء دفاع حلف شمال الأطلسى أن معظم التقديرات الاستخباراتية تتوقع أن تنتهى إيران فى غضون ثلاث سنوات من بناء سلاح نووى. احد صانعى السياسة الإسرائيلية قال لى «لقد سمعنا فى إسرائيل أن بناء سلاح نووى فى إيران سيتم بعد تسعة أشهر بدءا من حزيران/ يونيو، وبعبارة أخرى، سيتم ذلك فى آذار/ مارس من عام ٢٠١١». «وإذا افترضنا أنه لن يتغير شىء فى هذه التقديرات، هذا يعنى أن علينا أن نبدأ التفكير فى خطوتنا التالية ابتداء من مطلع العام القادم».

بدأت حكومة نتنياهو بالفعل بتكثيف جهودها التحليلية ليس فقط بالنسبة لإيران، ولكن على موضوع آخر يجد العديد من الإسرائيليين صعوبة فى فهمه: الرئيس أوباما. يكافح الإسرائيليون لإيجاد إجابة لما هى بالنسبة لهم المسألة الأكثر إلحاحا: هل هناك أى ظرف من الظروف التى بموجبها يستطيع الرئيس أوباما أن ينشر القوات لمنع إيران من امتلاك أسلحة نووية؟ كل شىء يتوقف على الإجابة.

يقول الإسرائيليون إن إيران تطالب باهتمام عاجل من المجتمع الدولى بأسره، وخاصة من الولايات المتحدة

بقدرتها التى لا مثيل لها فى نشر قوات عسكرية. هذا هو موقف العديد من القادة العرب المعتدلين أيضا. وقبل أسابيع قليلة، فى تصريحات مباشرة غير عادية، قال لى سفير دولة الإمارات العربية المتحدة لدى الولايات المتحدة، يوسف العتيبى، فى منتدى عام فى مهرجان أسبن للأفكار أن بلاده تؤيد توجيه ضربة عسكرية لمنشآت إيران النووية. وقال أيضا انه إذا سمحت أميركا لإيران دخول المجال النووية، فلن يكون للدول الصغيرة فى الخليج العربى أى خيار أمامهم سوى مغادرة الفلك الأميركى، والتحالف مع إيران لحماية أنفسهم. قال «هناك العديد من البلدان فى المنطقة الذين، إذا كانت تفتقر إلى ضمانات بأن الولايات المتحدة مستعدة لمواجهة إيران، سوف يهرعون نحو إيران لحماية أنفسهم»، ثم أضاف قائلا: «إن البلدان الصغيرة، الغنية والضعيفة فى المنطقة لا تريد أن تكون الشخص الذى يضع أصبعه فى عين الغول الكبير، إذا لن يأتى أحد لنجدتهم».

يقترح العديد من القادة العرب أن موقف أميركا فى الشرق الأوسط يتوقف على استعدادها لمواجهة إيران. كما يناقشون من منظور ذاتى أن هجوما جويا على عدد محدود من المنشآت النووية الإيرانية لن يكون معقدا أو فوضويا مثل غزو العراق. صرح لى وزير خارجية عربى «هذا ليس نقاشا حول غزو إيران. نحن نأمل فى ضربة دقيقة ومحددة لعدد من المنشآت الخطرة. تستطيع أميركا أن تفعل ذلك بسهولة بالغة».

وقال لى ذات مرة مستشار الأمن القومى الإسرائيلى، عوزى اراد، أن رئيس الوزراء أحيانا يقول مازحا أثناء إحاطة الزوار الأجانب بأهمية اتخاذ إجراءات ضد البرنامج النووى الإيرانى «اسمحوا لى أن أقول لكم سرا. إن الجيش الأميركى اكبر من جيش إسرائيل».

لقد صرح باراك أوباما فى العديد من المناسبات أنه سيعتبر امتلاك إيران أسلحة نووية أمرا «غير مقبول». ولقد تجاهل بعض المسؤولين الإسرائيليين تصريحات أوباما القوية فى هذا الموضوع لأنه كان قد أدلى بها أثناء حملته الانتخابية للرئاسة عند زيارته لسديروت، بلدة فى جنوب إسرائيل، التى كانت هدفا متكررا للهجمات الصاروخية من جانب حماس عندما قال «على العالم أن يمنع إيران من الحصول على سلاح نووى»، ثم أضاف قائلا: «لن ألغى أى خيار مطروح على الطاولة فى التعامل مع هذا التهديد الإيرانى المحتمل. إنى أطلب منكم محاولة فهم جزء من المنطق هنا. وجود إيران نووية سوف يخلق وضعا لتغيير قواعد اللعبة، ليس فقط فى الشرق الأوسط، ولكن فى جميع أنحاء العالم، وأعتقد أن ما تبقى من إطارنا فى منع الانتشار النووى سيبدأ فى التفكك. وبالتالى سنجد أن عددا من دول الشرق الأوسط سيكون لديها الحاجة المحتملة للحصول على أسلحة نووية».

لكن الإسرائيليين يتشككون أن يستطيع الرجل الذى وضع نفسه على نقيض جورج بوش، صاحب الغزو على كل من أفغانستان والعراق، شن هجوما وقائيا على دولة إسلامية.

صرح لى مسئول إسرائيلى كبير، «لقد استمعنا لخطابه فى القاهرة» فى إشارة إلى خطاب أوباما الذى ألقاه فى حزيران / يونيو ٢٠٠٩ فى محاولة لإعادة العلاقات مع المسلمين من خلال التأكيد على روح التعاون والاحترام الأمريكى للإسلام. وأضاف قائلا «أننا لا نعتقد انه هذا الرجل الذى سيشن ضربة جريئة على إيران. ونخشى أن يتبنى سياسة لاحتواء إيران النووية بدلا من مهاجمتها».

ولاحظ هذا المسؤول أن حتى بوش قد أحجم عن مهاجمة المنشآت النووية الإيرانية، ولم يشجع الإسرائيليين على تنفيذ الهجوم من تلقاء أنفسهم. (كان بوش فى بعض الأحيان يسخر من مساعديه والمعلقين الذين دعوا لشن هجوم على إيران، وكان يشير إلى الكتاب الصحفيين المحافظين تشارلز كراوثامر ووليام كريستول باسم «الأولاد المفجرين»، وفقا لاثنين من الناس الذين تحدثت معهم وكانوا قد سمعوا هذا التعليق).

علق مسؤول إسرائيلى أن «بوش كان قبل عامين، ولكن البرنامج الإيرانى مازال هو نفسه، والقصد هو نفسه. لذلك لا أتوقع شخصيا أن يكون أوباما أكثر من بوش نفسه».

وإذا كان الإسرائيليون قد وصلوا إلى استنتاج راسخ بأن أوباما لن يقوم، تحت أى ظرف من الظروف، بشن هجوم على إيران، إذا لابد أن يبدأ العد التنازلى لهجوم إسرائيلى من جانب واحد. «إذا كان الخيار هو بين السماح لإيران امتلاك سلاح نووى، أو أن نقوم نحن فى محاولة عمل ما لن يحاول أوباما عمله، إذا على الأرجح سوف نقوم به نحن». هذا ما قاله لى المسؤول الإسرائيلى.

وهو ما يقودنا إلى السؤال الثانى الذى له علاقة بطبيعة الرجل الذى يفكر فى عمل عسكرى: هل من الممكن أن يجازف نتنياهو. رئيس الوزراء المتفهم جيدا للدور الأساسى والجوهرى الذى تلعبه أمريكا فى تأمين وجود إسرائيل. بعمل قد يقطع العلاقة الحميمة مع أمريكا إلى الأبد لكى يقوم هو بمحاولة محفوفة بالمخاطر لوقف إيران؟ (تخرج نتنياهو من مدرسة شلتنهام الثانوية، فى ضواحى مدينة فيلادلفيا، ومعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، وهو أكثر رئيس وزراء متأمرك فى تاريخ إسرائيل، وأكثر بكثير من جولدا مائير التى ترعرعت فى ميلووكى). إذا ما هجمت إيران ضد القوات الأمريكية فى العراق أو أفغانستان، فإن العواقب على العلاقة بين إسرائيل والقيادة العسكرية الأمريكية ستكون كارثية. (وبالطبع، فإن نتنياهو سيخاطر بأكثر من علاقته مع الولايات المتحدة: المسؤولون فى الاستخبارات الإسرائيلية يعتقدون أن الهجوم على إيران يمكن أن يثير ضربة انتقامية شاملة من جانب حليف إيران اللبنانى. حزب الله. الذى يمتلك الآن حسب أغلب التقديرات الاستخباراتية، عدد صواريخ يصل إلى ٤٥٠٠٠ صاروخ وهو على الأقل ثلاثة أضعاف ما كانت تمتلكه فى صيف عام ٢٠٠٦، خلال الجولة الأخيرة من القتال بينا وبين وإسرائيل).

«السبب الوحيد لبيبى (نتانياهو) الذى من شأنه أن يضع علاقة إسرائيل مع أمريكا فى خطر هو إذا كان يعتقد أن إيران تشكل تهديدا مثل المحرقة»، هذا ما قاله لى مسؤول إسرائيلى يمضى وقتا طويلا مع رئيس الوزراء. وأضاف «فى الحرب العالمية الثانية، لم يمتلك اليهود قوة لوقف هتلر من إبادتنا. وقد تم ذبح ستة ملايين يهودى. اليوم، يعيش ستة ملايين من اليهود فى إسرائيل، وهناك من يهددهم بالفناء. ولكن الآن لدينا القوة لوقف هذه المذبحة. ويعلم بيبى أن هذا هو الخيار».

وأشار العديد من المعلقين والمحللين الإسرائيليين أن نتنياهو ليس وحده من يفهم هذا التحدى، العديد من رؤساء الوزراء الذين سبقوه طرحوا تهديد إيران بنفس المصطلحات. ولكن نتنياهو مختلف. لقد أخبرنى مايكل اورين سفير إسرائيل لدى الولايات المتحدة أن نتنياهو «لديه إحساس عميق لدوره فى التاريخ اليهودى».

لكى نفهم لماذا نتنياهو يملك هذا الحس العميق، ولماذا فهمه للتاريخ اليهودى قد يقوده لمهاجمة إيران بالرغم من اعتراضات أوباما، فمن الضرورى فهم بن صهيون نتانياهو والد نتنياهو الذى يبلغ من العمر مائة عام.

بن صهيون نتنياهو. يعنى اسمه الأول «ابن صهيون»، هو أول مؤرخ فى العالم لمحاكم التفتيش الاسبانية كما كان سكرتيرا لفلاديمير جابوتنسكى، مؤسس الفرع العنيد «والمعدل» للصهيونية. وهو والد البطل الإسرائيلى المأساوى، يونتان نتنياهو، الذى توفى فى عملية الإفراج عن الرهائن اليهود فى عنتيبى عام ١٩٧٦. والأب أيضا لبنيامين، الذى يسعى لأن يكون عظيما فى عينى والده ولكنه فى بعض الأحيان يصيبه بخيبة الأمل، خاصة عندما خضع فى فترة ولايته الأولى كرئيس للوزراء فى أواخر ١٩٩٠، للضغوط الأمريكية وسحب القوات الإسرائيلية من معظم مدينة الخليل فى الضفة الغربية، وهى ثانى أقدس مدينة يهودية. والمعروف فى معظم الدوائر إن بنيامين نتنياهو لا ينظر للمسائل المتعلقة بالفلسطينيين بمرونة، بالرغم من أنه فى الآونة الأخير حاول تلبية بعض مطالب باراك أوباما فى دفع عملية السلام إلى الأمام.

قال لى احد أصدقاء رئيس الوزراء «أن بن صهيون دائما يسيطر على تفكير بيبى» وأضاف «أنه دائم الخوف من أن يعتقد والده انه ضعيف».

من أهم أعمال بن صهيون نتنياهو كتابه «أصول محاكم التفتيش فى اسبانيا فى القرن الخامس عشر»، الذى قلب مفاهيم جذور ذلك الفصل القاتم فى التاريخ اليهودى التى أجمع عليها العلماء. وقال إن كراهية الأسبان لليهود انطلقت من مبدأ sangre de limpieza، أى نقاء الدم. الذى هو أساس الفكر النازى، وبعبارة أخرى، لم يحرك محاكم التفتيش الوازع الدينى. وقال بن صهيون أيضا أن محاكم التفتيش تتوافق مع المبدأ القائل بأن الاضطهاد لمعاداة السامية يسبقه فى جميع الحالات حملات تشهير طويلة تجرد اليهود من آدميتهم كتبت بعناية لضمان القضاء عليهم فى نهاية المطاف. بالنسبة لبن صهيون الدروس المستفادة من التاريخ اليهودى واضحة وملحة.

كان أبناء بن صهيون يعبدونه فى طفولتهم بكل المقاييس، واليوم، بنيامين الذى يبلغ من العمر ستون عاما، والمعروف عنه التصرف

نحن نسمع تهديدات من الجانب الإيرانى الذى يتعهد بالقضاء على الحركة الصهيونية فى العالم قريبا

حلفاء نتنياهو فى الكنيست قال لى: إن إقامة دولة فلسطينية مستقلة لن تتحقق إلا بعد وفاة بن صهيون

أن كلمات محمود أحمدى نجاد عن المحرقة وإسرائيل لا تعبر عن رأيه الشخصى ولكنها تعبر عن رأى الحكومة

بطرق سخيفة، يتمسك بشكل واضح بالوصية الخامسة عندما يتناقش مع والده. فى حفل بمناسبة عيد ميلاد بن صهيون المائة، الذى أقيم فى شهر مارس الماضى فى مركز مناحيم بيجين للتراث فى القدس وأمام جميع الحاضرين الذى كان بينهم رئيس إسرائيل، شمعون بيريس،تحدث بنيامين عن والده الذى كان له الفضل فى التنبؤ بالمحرقة. كما أكد أن والده فى بداية عام ١٩٩٠ توقع أن «المسلمين المتطرفين سيحاولون نسف برجى مركز التجارة العالمى فى نيويورك»، لكنه ذكر أيضا بعض القصص العائلية بأسلوب أكثر دفئا واصفا والده بأنه أب محب، على الرغم من مظهره المتجهم المخيف للأغراب، فهو يستمتع بمشاهدة أفلام رعاة البقر ويلعب كرة القدم مع أبنائه.

بعد مناظرة قصيرة بين بن صهيون وأكاديمى بارز حول تفسيرات تنافسية لمحاكم التفتيش، وصف بينى، مناحيم بيجين الابن. وهو وزير بدون حقيبة فى حكومة نتنياهو. الاحتفال «أنه احتفال غير عادى بمناسبة عيد ميلاد المائة عندما يثار نقاش حول محاكم التفتيش». ثم نهض بن صهيون ليلقى خطبة الوداع، وعلى عكس كلمة ابنه، كانت الخطبة مختصرة ومجردة من أى مشاعر كما كانت شديدة الوضوح.

«إن احتفالنا هذا المساء يفرض على الحديث عن التعليقات الأخيرة التى تدور حول استمرار وجود دولة إسرائيل والتهديدات الجديدة من قبل أعدائها لتدميرها الآتى»، هكذا بدأ بن صهيون كلمته «نحن نسمع تهديدات من الجانب الإيرانى الذى يتعهد بالقضاء على الحركة الصهيونية فى العالم قريبا وفى غضون أيام، وبالتالى يفترض أن نستنتج من هذا أنه سوف يتم إبادة جميع يهود أرض إسرائيل، بينما يقال تلميحا ليهود أميركا، التى يرفض قادتها الضغط على إيران، أن إبادة اليهود لن تشملهم».

وتابع حديثه قائلا «إن الشعب اليهودى قد وضح موقفه ووضع الثقة فى قواته العسكرية. دولة إسرائيل تظهر للعالم اليوم كيف يمكن لدولة أن تتصرف عندما تقف أمام ما يهدد وجودها؛ يجب مواجهة الخطر والتفكير بهدوء فى ما ينبغى القيام به وما يمكن القيام به. كما يجب أن يكون جاهزا لدخول المعركة فى اللحظة التى تظهر فيها فرصة معقولة للنجاح».

وقال لى كثير من الناس فى أوساط حزب الليكود أن الذين يقللون من نفوذ بن صهيون على ابنه يعرضون أنفسهم للخطر. «إن هذا والد يعطى ابنه أوامر للمضى» قالها احد الحضور «لقد شاهدت بيبى أثناء حديث والده، كان مستغرقا تماما». (واحد من حلفاء نتنياهو فى الكنيست قال لى بطريقة غير مهذبة ولكن ربما بدقة شديدة، أن فرصة التحرك نحو إقامة دولة فلسطينية مستقلة لن تتحقق إلا بعد وفاة بن صهيون. «لا يمكن لبيبى أن ينسحب أكثر من ذلك من يهودا والسامرة .الأسماء التى تطلق على الضفة الغربية فى التلمود، ثم يواجه والده»).

يرى بنيامين نتنياهو أن إيران هى سبب الأزمة من نفس المنظور التاريخى لوالده. صرح لى نتانياهو بأن «إيران قد هددت بإبادة دولة». «من الناحية التاريخية، فإن هذا شىء مذهل. أنها إساءة هائلة تحدث بفاعلية دون اعتراض أو منازع من الرأى العام. من المؤكد أن هناك إدانات فاترة دون حماس، ولكن ليس هناك اتهامات ولا هناك صدمة»، واستطرد قائلا أن من دروس التاريخ البالغة الأهمية هى أن «الأشياء السيئة تزداد سوءا إذا لم يتم اعتراضها فى وقت مبكر». وأضاف «أن القادة الإيرانيين يتحدثون عن تدمير إسرائيل أو اختفائها وفى نفس الوقت يصنعون الأسلحة لضمان اختفائها».

أحد الجوانب الأكثر تعاسة فى المواجهة بين إيران وإسرائيل هى أن الحضارات الفارسية واليهودية لم تكن دائما على خصام؛ احد أبطال الكتاب المقدس كان الملك الفارسى قورش، الذى أعاد اليهود إلى أرض إسرائيل بعد أن حررها من أسر البابلى منذ ٢٥٠٠ سنة مضت. (وبعد سنوات قليلة منح هارى ترومان الاعتراف بالدولة الوليدة إسرائيل فى عام ١٩٤٨ وأعلن: «أنا قورش»).

كانت إيران موطنا لمجتمع يهودى قديم حيث عاشوا هناك منذ أن نفاهم البابليون وقبل وصول أتباع محمد بالإسلام إلى بلاد فارس بمائة عام. وفى العصر الحديث، احتفظت إيران وإسرائيل بعلاقات دبلوماسية وثيقة بين البلدين قبل سقوط الشاه فى عام ١٩٧٩. ومن الواضح أن دعم إسرائيل للشاه قد اغضب أعداءه، رجال الدين الذين تمكنوا من السلطة حديثا فى طهران، ولكن هذا لا يكفى لتفسير مدى عمق الكراهية الإيرانية الرسمية لإسرائيل واليهود ؛ لابد أن يكون هناك سبب آخر يفسر المشاعر التى أعرب عنها محسن رضائى، القائد السابق للحرس الثورى الإيرانى، الذى قال فى عام ١٩٩١. أى أربعة عشر عاما قبل ظهور محمود أحمدى نجاد، السياسى الإيرانى الذى ارتبط اسمه ونظامه فى الغرب بعدائه الصارخ للسامية. أحدهم قال «سيأتى اليوم الذى لن يجد اليهود فيه مكانا للعيش فى أى بقعة فى العالم، مثل سلمان رشدى».

قد نجد الجواب فى سطر من كتب المسلمين الشيعة الذين يرون عقائديا أن اليهود ملوثون، وهى وجهة نظر مستمدة جزئيا من تصوير القرآن الكريم لليهود كأعداء خانوا النبى محمد. كما يروى روبرت ويستريش فى كتابه الجديد عن تاريخ العداء للسامية، «الهوس القاتل»، فى القرن ١٧ و١٨ كان يرى رجال الدين الشيعة اليهود كأنهم «مرضى جذام الخلق» و«أقذر الناس فى الجنس البشرى». سألت ذات مرة على أصغر سلطانية، وهو دبلوماسى إيرانى بارز الذى يعمل حاليا سفيرا لإيران لدى الوكالة الدولية للطاقة الذرية، لماذا قيادة إيران تصر على وصف إسرائيل كنوع من الأمراض المعدية وليس كمجرد مجرم إقليمى؟ فسألنى «هل تختلف فى الرأى» ثم أضاف «ألا ترى أن هذا صحيح؟».

فى خطاب ألقاه فى حزيران / يونيو، أوضح أحمدى نجاد، الرئيس الإيرانى، تاريخ الشرق الأوسط على هذا النحو: «منذ ستين عاما قاموا بتجميع مجموعة من أكثر الناس إجراما وأقذرهم من جميع أنحاء العالم لا يمتون إلى الآدمية إلا بمظهرهم فقط وذلك عن طريق ذريعة مصطنعة وزائفة، وتلفيق معلومات واختراع قصص. تم تنظيمهم وتسليحهم، ووفرت لهم وسائل الإعلام وتم دعمهم عسكريا. وهكذا، احتلوا الأراضى الفلسطينية، وشردوا الشعب الفلسطينى وكانت القصة المختلقة بالطبع هى المحرقة». يدعم جهود أحمدى نجاد لإنكار الحقيقة التاريخية للمحرقة مسؤولون رسميون على مستوى عال: صرح وزير الخارجية الإيرانى، منوشهر متقى فى عام ٢٠٠٥، «أن كلمات محمود أحمدى نجاد عن المحرقة وإسرائيل لا تعبر عن رأيه الشخصى وليست مجرد عبارات معزولة، ولكنها تعبر عن رأى الحكومة».

وربما كان أفضل تعبير عن وجهة نظر

القيادة الإيرانية عن الأخطار النووية هو تعليق الرئيس الإيرانى السابق على اكبر هاشمى رافسنجانى فى عام ٢٠٠١، الذى أطلق فكرة أن زوال إسرائيل يمكن أن تحدث بطريقة خالية نسبيا من الألم للعالم الإسلامى. «إن استخدام قنبلة نووية ضد إسرائيل سيدمر إسرائيل بالكامل فى حين أى هجوم نووى ضد الدول الإسلامية سوف يتسبب فى أضرار فقط».

إن هذا الخط من التفكير، مما يوحى بأن نظرية الردع العقلانى، أو التهديد بالدمار المتبادل المؤكد، قد لا ينطبق فى حالة إيران، التى تضع الحكومة الإسرائيلية على حافة السكين. هذه النظرية لا تقلق فقط جناح اليمين فى إسرائيل، ولكن حتى حزب ميرتس اليسارى الذى يدين سياسات نتنياهو تجاه الفلسطينيين بكثير من الشدة، يعتبر برنامج إيران النووى تهديدا لوجود إسرائيل.

ليس بالضرورة أن يعتقد صانعو السياسة الإسرائيلية أن إيران سوف تطلق صاروخا على تل أبيب فور حصولها على أسلحة نووية. قال لى مسؤول إسرائيلى فى وزارة الدفاع «فمن ناحية، تود إيران أن يختفى اليهود من الوجود، ولكن من ناحية أخرى، هم يعلمون أن لدى إسرائيل القدرة على الانتقام غير المحدود». هذه كناية إسرائيلية لتوجيه ضربة ثانية للبلاد وترسانتها النووية. «وبالرغم مما يقوله رافسنجانى وآخرون، ولكن نحن نعتقد أنهم يعرفون أنهم يضعون الحضارة الفارسية فى خطر».

وقال نتنياهو «إن التحديات التى تشكلها إيران النووية هى أكثر مكرا من هجوم مباشر»، وأضاف «العديد من النتائج السيئة سوف تنبثق من هذا التطور الوحيد. أولا: أن وكلاء إيران المتشددين قادرون على إطلاق صواريخ والانخراط فى أنشطة إرهابية أخرى وهم يتمتعون بمظلة نووية. وهذا ما يثير المخاطر فى أى مواجهة سوف يفرضونها على إسرائيل. وبدلا من أن يكون الحدث محليا مهما كان مؤلما، فإنه يصبح مشكلة عالمية. ثانيا: أن هذا التطور سوف يشجع المتشددين الإسلاميين على نطاق واسع وفى قارات عديدة، وهم يعتقدون أن هذه هى إشارة من العناية الإلهية أن هذا التطرف فى نهاية طريقه إلى الانتصار».

ثم أضاف «أنك تخلق تغييرا هائلا فى ميزان القوى فى منطقتنا، لأن إيران بأسلحتها النووية سوف تحاول إقناع الدول العربية تجنب صنع السلام مع إسرائيل، وأن ذلك من شأنه أن يشعل سباقا إقليميا للتسلح النووى. إن منطقة الشرق الأوسط مشتعلة بما فيه الكفاية، ولكن مع سباق التسلح النووى، سوف تصبح صندوقا من البارود».

زعماء إسرائيليون آخرون يعتقدون أن مجرد التهديد بهجوم نووى من قبل إيران. إلى جانب التهديد المزمن للمدن الإسرائيلية من قبل صواريخ حماس وحزب الله. سوف يقوض تدريجيا قدرة البلاد على الاحتفاظ بمواطنيها الأكثر إبداعا وإنتاجية. وقال لى ايهود باراك وزير الدفاع أن هذا هو خوفه الكبير على مستقبل إسرائيل.

وأضاف «أن التهديد الحقيقى للصهيونية هو التخفيف من الجودة. اليهود يعلمون أنهم يستطيعون أن يقفوا على أقدامهم فى أى ركن من العالم، ولكن الاختبار الحقيقى بالنسبة لنا هو جعل إسرائيل مكانا جذابا، مكانا متطورا فى المجتمع البشرى، وفى مجال التعليم والثقافة والعلوم. يجب أن نخلق نوعية مميزة للحياة تحفز حتى الشباب الأميركى اليهودى على أن يأتى إلى هنا».

وقال باراك «أن هذه الرؤية مهددة من إيران وحلفائها. يستطيع شبابنا أن يقرروا الذهاب إلى أماكن أخرى بكامل وعيه، إذا كانوا يكرهون العيش تحت تهديد هجوم نووى، يستطيع أفضل شبابنا أن يقرروا البقاء بعيدا عن هنا بكامل اختيارهم».

وفقا لاستطلاعات الرأى العديدة إن الإحساس بالوطنية فى إسرائيل مرتفع جدا، ويبدو لى أنه ليس من المرجح أن مجرد الخوف من إيران قد يدفع يهود إسرائيل إلى البحث عن ملاذ فى مكان آخر. ولكن افرايم سنيح. وهو جنرال سابق ونائب وزير الدفاع السابق وأحد المؤيدين البارزين لهجوم إسرائيلى على المنشآت النووية الإيرانية. مقتنع انه إذا دخلت إيران فى المجال النووى، ستكون مجرد فكرة وجود إسرائيل معرضة للخطر. ويقول افريم سنيح أن «هؤلاء الناس مواطنين صالحين وشجعان، ولكن القوى المحركة للحياة هى تلك التى إذا حصل شخص ما على منحة دراسية لمدة سنتين فى الجامعة الأمريكية وقدمت له تلك الجامعة سنة ثالثة، سوف يقول الآباء له، «امض قدما فى طريقك وابق هناك». فقال لى سنيح عندما التقيت به فى مكتبه خارج تل أبيب منذ وقت ليس ببعيد، «إذا حصل شخص ما على درجة الدكتوراه وعرضوا عليه وظيفة فى أمريكا، سوف يبقى هناك. لن يكون المشهد كما لو كانوا جميعا يهرعون إلى المطار ولكن القرار على مستوى الأسرة تدريجيا سوف يكون لصالح البقاء فى الخارج. خلاصة القول أنه سيحدث استنزاف متنام للعقول فى إسرائيل، وأن إسرائيل التى لا تقوم على الالتزام، والتى لا ترتكز على التميز، لا يمكن أن تكون إسرائيل اليوم».

وأضاف سنيح قائلا بنبرة ناقدة، إذا لم يعد الستة ملايين مواطن يهودى قادرين على فهم إسرائيل بالإضافة إلى حوالى ٧ ملايين يهودى يعيشون خارجها على أنها «الملاذ الآمن الطبيعى»، إذا مبرر وجودها يكون قد انتفى. ووجه انتباهى إلى صورة معلقة على جدار مكتبه لثلاث طائرات من سلاح الجو الإسرائيلى. F15 وهى تحلق فوق معسكر أوشفيتز فى بولندا. كانت قد دعت القوات الجوية البولندية فى عام ٢٠٠٣ الإسرائيليين للقيام فى هذه الرحلة الرمزية للغاية. لم تكن الصورة جديدة بالنسبة لى، لقد كنت قد رأيتها من قبل على جدران العديد من مكاتب وزارة الدفاع الإسرائيلية فى تل أبيب. ثم سألنى سنيح: «هل ترى هذه الطائرات؟ هذه هى الصورة التى أنظر إليها طول الوقت. عندما يقول شخص ما أنهم سوف يمحون اليهود من الوجود، يجب علينا حرمانه من الأدوات. المشكلة فى الصورة هى أننا كنا هناك فى وقت متأخر جدا».

لكى نفهم لماذا الإسرائيليون من تنظيمات سياسية مختلفة يرون إيران على أنها من المحتمل جدا أن تكون أكثر وأهم تحد واجههم فى الـ ٦٢ عاما من تاريخهم، يجب علينا أن نأخذ فى الاعتبار أن الاحتكار النووى الإسرائيلى فى أذهان الجمهور يقترب من القدسية. إن الرواية الإسرائيلية الوطنية باختصار، تبدأ بالحرقة، وهى تعنى بالعبرية «الكارثة»، وتنتهى بكلمة «تكومة» أى «النهضة». وبالنسبة للإسرائيليين ترمز ترسانة إسرائيل النووية إلى نهضة وطنية، وشىء آخر أيضا: لقد خرج اليهود من الحرب العالمية الثانية بدرس واحد على الأقل، وهو ثمن العجز.

فى كتابه الجديد، «أسوأ سر لم يذع: المساومة بين إسرائيل والقنبلة»، كتب أفنير كوهين، مؤرخ بارز عن برنامج إسرائيل النووى، أن دافيد بن جوريون، رئيس وزراء إسرائيل الأول، استحوذ على تفكيره ضرورة تطوير أسلحة نووية كضامن أكيد لعدم تكرار مذبحة أخرى. وقال «إن ما قام به آينشتاين، أوبنهايمر، وتيلير. كلهم من اليهود. للولايات المتحدة، ويمكن أيضا أن يقوم به العلماء فى إسرائيل، لشعبهم»، ويضيف كوهين أن بن جوريون قد أعلن إن المظلة التى نشأت عن الاحتكار النووى الإسرائيلى قد أتاحت للدولة العبرية أن تتعافى من جروح المحرقة».

ولكن هذه الجروح لا تلتئم، كما يقول سنيح. «إن المحرقة ليست نوعا من العقد النفسية، إنها درس تاريخى. كان جدتى وجدى من بولندا، وكان والدى ضابطا فى الجيش البولندى ثم هرب فى عام ١٩٤٠. بقى أجدادى ولكنهم قتلوا على يد الفلاح البولندى الذى كان من المفترض أن يقدم لهم المأوى فى مقابل كثير من المال. لهذا السبب أنا لا أثق بالغوييم. مرة واحدة تكفى. لن أضع حياتى فى أيدى الغوييم».

ذات ليلة الاثنين فى أوائل الصيف، جلست فى مكتب رام ايمانويل الذى لم يكن بالتأكيد جوييم، وهو رئيس موظفى البيت الأبيض. واستمعت هناك إلى عدة مسئولين فى مجلس الأمن القومى، كانوا مجتمعين على طاولة المؤتمرات فى شرح مطول لماذا يجب على الدولة اليهودية أن تثق فى رئيس من غير اليهود فى الولايات المتحدة لمنع إيران من الدخول إلى المجال النووى.

«إن عبارة كل الخيارات مطروحة على الطاولة تعنى إن كل الخيارات مطروحة على الطاولة» قال لى ذلك إيمانويل قبل الاجتماع، بطريقة توحى بالتصميم والعصبية من أولئك الذين يعتقدون إن الرئيس يفتقد حلا من هذا القبيل. وكان اجتماع المجموعة الذى نظمه، نوعا من ندوة للتداول حول التحديات التى تطرحها إيران؛ ناقش ستة من المسؤولين نفس الموضوع بطرق مختلفة، وهو أن الرئيس اوباما يتحدث معظم الوقت مع الزعماء الأجانب بخصوص إيران أكثر من أى موضوع آخر.

واحد من الجالسين على طاولة، بن رودس وهو نائب مستشار للأمن القومى، وهو المؤلف الرئيسى «لأحدث إستراتيجية للأمن القومى للولايات المتحدة»، والذى كتب كذلك خطاب الرئيس التصالحى بالقاهرة، اقترح إن برنامج إيران النووى يمثل تهديدا واضحا للأمن الأميركى، وأن إدارة أوباما تستجيب

«ماذا فعلنا لكى نسمح لك بالوصول إلى أننا نعتقد أن وجود إيران نووية من شأنه أن يمثل حالة مقبولة؟»

نحن نتفق مع هذا التقييم الأميركى، ونتفق أيضا مع جيتس بأن إيران ستدخل المجال النووى فى غضون عام

ستطول هذه العقوبات جميع المجالات. سوف تبدأ هذه العقوبات من داخل سوء الإدارة الإيرانية

لتهديدات الأمن القومى على طريقة الإدارات الأخرى. «نحن ننسق إستراتيجية متعددة الجوانب لزيادة الضغط على إيران، ولكن هذا لا يعنى إننا أزلنا أى خيار من على الطاولة»، وقال رودس أيضا «لقد أظهر هذا الرئيس مرارا وتكرارا أنه عندما يعتقد أنه من الضرورى استخدام القوة لحماية مصالح الأمن القومى الأمريكى، قام بذلك بالفعل. نحن لن نناقش افتراضات حول متى وإذا كنا سنستخدم القوة العسكرية، ولكن أعتقد أننا قد أوضحنا بأننا لن نزيل خيار القوة فى أى موقف قد يؤثر على أمننا القومى».

كان هناك سمة شائكة فى هذه الجلسة بشكل متقطع، وليس فقط لأنها كانت تستضيف عمانوئيل، وهو دائما ساخط بطبيعته، ولكن لأكثر من عام، ومسؤولو البيت الأبيض يتصدون للاتهام بأن رئيسهم يرفض مواجهة العواقب المحتملة لامتلاك إيران أسلحة نووية. وإنهم محبطون بسبب ما يعتقدون أنه صورة كاريكاتورية لموقفه. (قال لى مسؤول سابق فى إدارة الرئيس جورج بوش أن رئيسه كان يواجه مشكلة معاكسة: غرق بوش مرتين فى مستنقع الحروب ولأنه كان يعتقد أن إيران لم تكن قريبة من الوصول إلى الطاقة النووية، عارض استخدام القوة ضد برنامج إيران، وشرح وجهة نظره بوضوح، «ولكن لم يصدقه»).

فى فترة ما، كنت قد طرحت رأيا يقول أنه لأسباب عديدة واضحة، أن قلة فقط من الناس يعتقدون أن باراك أوباما من شأنه أن يفتح جبهة ثالثة فى الشرق الأوسط الكبير. ورد أحد المسؤولين على بحماس: «ماذا فعلنا لكى نسمح لك بالوصول إلى استنتاج مفاده أننا نعتقد أن وجود إيران نووية من شأنه أن يمثل حالة مقبولة؟».

حقيقة لا يمكن إنكارها، أن الإدارة قد ظهرت فى بعض الأحيان على أنها غير جادة فى هذه القضية. وانتقد الرئيس الفرنسى، نيكولا ساركوزى، أوباما باعتباره بائع أمل بدون أساس. قال ساركوزى فى مجلس الأمن للأمم المتحدة فى سبتمبر الماضى: «أنا أؤيد هذه اليد الممدودة من الأميركيين، ولكن ما هى الفائدة التى عادت على المجتمع الدولى من مقترحات لفتح الحوار؟ غير المزيد من تخصيب اليورانيوم وتصريحات صدرت عن قادة إيران للقضاء على دولة عضو فى الأمم المتحدة من على الخريطة»، قال هذا فى إشارة إلى إسرائيل.

قد أشار مسؤولو إدارة أوباما، خاصة فى وزارة الدفاع الأمريكية، مرات عديدة إلى عدم رضائهم عن إمكانية ضربة عسكرية استباقية فى نيسان / ابريل، صرحت وكيل وزارة الدفاع للشؤون السياسة، ميشيل فلورنوى، للصحفيين أن القوة العسكرية ضد إيران «ليست مطروحة على الطاولة فى المدى القريب». ولكنها تراجعت عن هذا التصريح فى وقت لاحق. ولكن انتقد الأدميرال مايكل مولين، رئيس لهيئة الأركان المشتركة، فكرة مهاجمة إيران. وأضاف مايكل «إن حصول إيران على سلاح نووى من شأنه أن يزعزع الاستقرار بشكل لا يعقل. ولكن مهاجمتهم من شأنها أن تخلق أيضا النتائج فى منطقة غير مستقرة كهذه الآن، لسنا فى حاجة إلى أكثر من ذلك».

وكان الهدف من الاجتماع فى مكتب ايمانويل هو توصيل عدد من الرسائل الواضحة لى، بما فى ذلك تلك التى كانت أكثر تشددا من التى قالها الأدميرال مولين: لم يستبعد الرئيس أوباما بأى حال من الأحوال مكافحة الانتشار النووى بالقوة. كان من المفترض أيضا أن يبلغنى الاجتماع أن وراء محاولة التواصل التى بدأها أوباما تجاه الإيرانيين لم يكن يحركها دوافع ساذجة، ولكن من الرغبة فى اختبار نوايا طهران بطريقة متعمدة. وأن الرئيس يدرك أن القنبلة النووية الإيرانية ستؤدى إلى سباق تسلح فى المنطقة قد يدمر برنامجه لمنع الانتشار النووى. كما علمت أن التقييم الأمريكى والإسرائيلى للبرنامج النووى الإيرانى قد تم بأسلوب متزامن بطرق لم تستخدم من قبل. كما أخبرنى جارى سامور، مسؤول فى مجلس الأمن القومى الذى يشرف على برنامج الإدارة فى مكافحة الانتشار النووى، الذى كان فى الاجتماع، قائلا أن الإسرائيليين يتفقون مع الأمريكان فى تقييمهم لبرنامج إيران لتخصيب اليورانيوم بأنه محفوف بالمشاكل.

قال سامور «ومن أهم طرق قياس قدرة الأسلحة النووية هو مدى سرعة تمكنهم فى بناء المواد المستخدمة فى صنع الأسلحة، ومن هذا المنطلق نستطيع أن نحكم، استنادا إلى تقارير الوكالة الدولية IAEA أن الإيرانيين لا يبلون بلاء حسنا فى هذا المجال. إن أجهزة الطرد المركزى الخاصة التى تقوم بتشغيل المنشآت تستند إلى تكنولوجيا متخلفة، ويواجهون بعض الصعوبات التقنية، ويرجع ذلك جزئيا إلى العمل الذى قمنا به لمنعهم من الوصول إلى المكونات الأجنبية. وعندما يصنعون هذه الأجزاء بأنفسهم، فهم يصنعونها دون أن يكون لديهم مقياس لمراقبة الجودة».

عندما ذكرت هذا التعليق إلى مسؤول إسرائيلى رفيع المستوى، قال: «نحن نتفق مع هذا التقييم الأميركى، لكننا نتفق أيضا مع جيتس بأن إيران سوف تدخل المجال النووى فى غضون عام».

وقال دينيس روس، المفاوض السابق للسلام فى الشرق الأوسط والذى يشغل حاليا منصب أحد كبار مسؤولى مجلس الأمن القومى، خلال الاجتماع انه يعتقد إن الإسرائيليين يدركون أن الإجراءات الأمريكية التحريضية قد أخرت التقدم الإيرانى، وان الإدارة تعمل على إقناع الإسرائيليين. وغيرها من الأطراف فى المنطقة. أن إستراتيجية العقوبات «لديها فرصة للنجاح».

وقال «قال الرئيس انه لم يلغ أى من الخيارات المطروحة، ولكن دعنا نلقى نظرة على السبب الذى يجعلنا نعتقد أنه من الممكن أن تنجح هذه الإستراتيجية. لدينا بيانات مهمة على امتداد العام الماضى، حول محاولة إيران فى إزاحة الضغط عندما ظنوا أن الضغوط قادمة، مما يوحى بأن قدرتهم على حساب التكاليف والفوائد حقيقية جدا. فى حزيران / يونيو الماضى، عندما لم تستجب إيران للمناشدة الثنائية، قال الرئيس سوف نقيم الموضوع فى أيلول / سبتمبر. أسبوعين قبل انعقاد مؤتمر مجموعة العشرين. اجتماع رؤساء أكبر عشرين دولة اقتصادية فى العالم. «صرح الإيرانيون أنهم على استعداد للمحادثات، بعد أن كانوا يقاوموا الدخول فى أى محادثات حتى تلك اللحظة. ولم يفعلوا ذلك لأنهم فجأة شاهدوا الضوء، ولكنهم فعلوا ذلك لأن الضغوط كان قادما. إنهم قادرون على التفكير فى ما يهم بالنسبة لهم».

ذهب روس إلى القول إن العقوبات التى تواجه إيران الآن قد تؤثر على تفكير النظام. «ستطول هذه العقوبات جميع المجالات. سوف تبدأ هذه العقوبات من داخل سوء الإدارة الإيرانية. سيضطر الإيرانيون قطع المعونات فى مجال الغذاء والوقود، وبدأوا يعانون من عزلة شعبية. هناك انقسام فى أوساط النخبة، وبين النخبة وبقية الشعب. إنهم يبحثون فى تكاليف محاولة الحفاظ على السيطرة

على جمهور ساخط. أرادوا تجنب العقوبات لأنهم كانوا يعرفون أن العقوبات ستكون مشكلة. وهناك احتمال حقيقى أيضا أن تؤثر العقوبات على حساباتهم. أننا نتبع منهاجا الآن يؤدى إلى بعض الاحتمالات. هذا لا يعنى أننا لا نفكر فى شىء آخر، ولكننا على الطريق».

السؤال الوحيد لا يبدو أى مسؤول فى الإدارة حريص على إجابته هو: ما الذى سوف تفعله الولايات المتحدة إذا فشلت العقوبات؟ واشتكى لى العديد من المسؤولين العرب أن إدارة أوباما لم تبلغ نواياها لهم، ولا حتى بالخطوط العريضة. ولا يبدو أن أيا من المسؤولين العرب الذين تحدثت معهم يعتقد بأن الإدارة تتفهم الطموحات الإقليمية لعدوهم الفارسى. وقال أحد وزراء الخارجية العرب انه يعتقد أن إيران تستغل اعتدال موقف أوباما.

قال وزير الخارجية: «يبدو أن ناخبى اوباما يشعرون بالراحة عندما تشير الإدارة إلى أنها لا تريد محاربة إيران، ولكن هذه ليست قضية سياسية داخلية، وأضاف أن إيران سوف تستمر فى هذا المسار المتهور، ما لم تبدأ الإدارة فى الكلام غير المعقول. إن أفضل طريقة لتجنب ضرب إيران هو جعل إيران تعتقد أن الولايات المتحدة على وشك توجيه ضربة لإيران. وعلينا أن نعرف نوايا الرئيس بشأن هذه المسألة، ونحن حلفاؤه». ووفقا لمصادر اثنين من الإدارة، فإن هذه المسألة قد سببت توترا بين الرئيس أوباما ومدير الاستخبارات الوطنية الذى تم فصله مؤخرا وهو الأدميرال دنيس بلير. ووفقا لهذه المصادر، بلير، الذى كان تركيزه كبيرا على تهديد إيران قال للرئيس أوباما: إن حلفاء أمريكا العرب فى حاجة إلى مزيد من الاطمئنان. ومن الواضح أن أوباما لم يقدر هذه نصيحة»).

فى إسرائيل، بطبيعة الحال، بذل المسؤولون جهدا هائلة لفهم الرئيس أوباما، رغم الضمانات التى تلقوها من ايمانويل وروس وغيرهم. قامت وفود كثيرة من مكتب نتنياهو ومن وزارات الدفاع والخارجية، وكذلك من أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية بزيارات منتظمة إلى واشنطن مؤخرا، كما قال مسؤول إسرائيلى «نحن نحزم حقائبنا ونملؤها بموازين الحرارة ونذهب إلى واشنطن لقياس درجة حرارة الجميع».

إن زيادة وتيرة هذه الزيارات ليست سوى علامة واحدة من أجل تعميق الاتصالات بين إسرائيل وأمريكا كلما اقتربت إيران من الحصول على سلاحها النووى. ويقال أن رئيس هيئة الأركان فى الجيش الإسرائيلى الجنرال جابى اشكنازى يتحدث مع نظيره الأمريكى، الأدميرال مولين، بشكل منتظم. مؤخرا قام مولين بزيارة إسرائيل لهدف رئيسى واحد، وفقا لمصدر إسرائيلى: «للتأكد من أننا لم نفعل أى شىء فى إيران قبل أن يظنوا أننا لا يمكن أن نفعل شيئا فى إيران».

منذ وقت ليس ببعيد، قام رئيس الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية الميجور جنرال عاموس يادلين، بزيارة سرية إلى شيكاغو للقاء ليستر كراون، الملياردير الذى تملك أسرته جزءا كبيرا من «جنرال داياناميكس» شركة المقاولات العسكرية. ومن المعروف أن كراون هو واحد من مؤيدى إسرائيل البارزين فى الجالية اليهودية الأمريكية، كما كان واحدا من أوائل مؤيدى باراك أوباما وأكثرهم صمودا. ووفقا لمصادر أمريكية وإسرائيلية، طلب الجنرال يادلين من كراون توصيل مخاوف إسرائيل على وجودها مباشرة إلى الرئيس أوباما.

وعندما اتصلت هاتفيا بكراون أكد لى أنه اجتمع مع يادلين، لكنه نفى أن يكون الجنرال قد سافر إلى شيكاغو لتقديم هذه الرسالة. وقال «ربما كان لديه ابن عم فى شيكاغو أو أى شىء من هذا القبيل». ولكنه قال أن يادلين قد ناقش معه موضوع «الساعة الإيرانية». الوقت المتبقى قبل أن تتوصل إيران إلى قدراتها النووية. وقال إنه يتفق مع يادلين أنه يجب على الولايات المتحدة أن توقف إيران قبل أن تصبح نووية. «أنا مع الإسرائيليين بالشعور أن لدينا بالتأكيد القدرة العسكرية وأنه يجب أن يكون لدينا الإرادة لاستخدامها. صعود إيران ليست فى مصلحة الولايات المتحدة».

قال كراون «أنا أؤيد الرئيس» وأضاف «لكن أود لو أن مسؤولى الإدارة كانوا أكثر جراءة من ذلك بقليل فى الطريقة التى يتحدثون فيها. سأشعر بالراحة أكثر إذا علمت أن لديهم الإرادة فى استخدام القوة العسكرية، كملاذ أخير. لا يمكنك تهديد أى شخص بمجرد خدعة. يجب أن يكون هناك إرادة لتحقيق ذلك».

فى زيارتى الأخيرة لإسرائيل، سئلت ما يقرب من اثنتى عشرة مرة من قبل كبار المسؤولين والجنرالات المتقاعدين إذا كان بإمكانى شرح باراك أوباما ومشاعره نحو إسرائيل. كما سألنى العديد من المسؤولين إذا كنت أعتقد أن أوباما معاد للسامية. كنت قد أجبت على هذا السؤال من قبل مستخدما كلمات ابنير ميكفا الشهيرة. وهو عضو الكونجرس السابق والقاضى الفيدرالى، ومستشار أوباما، الذى قال فى عام ٢٠٠٨، «اعتقد أنه عندما ينتهى الموضوع بأكمله، سوف يقول الناس أن باراك أوباما هو أول رئيس يهودى»، أوضحت أن أوباما قد تشبع بأعمال الكتاب وعلماء القانون، والمفكرين، وأن عددا كبيرا من أصدقائه ومؤيديه ومساعديه من اليهود. لكن التعاطف مع السامية لا تعنى بالضرورة وجود نفس التعاطف مع حزب الليكود بزعامة نتانياهو، وبالتأكيد ليس بين اليهود الأمريكيين، الذين، كما هو حال الرئيس الذى صوتوا له بأعداد هائلة، يدعمون بشكل عام حل الدولتين، ومتشككون بشأن الاستيطان اليهودى فى الضفة الغربية.

وعندما أبديت هذه النقاط لمسؤول إسرائيلى كبير قال: «هذه هى المشكلة. إذا كان من مجموعة يهود شارع J، إذا نحن فى ورطة». جى ستريت هى منظمة ليبرالية موالية لإسرائيل أسست لمواجهة نفوذ ايباك «AIPAC» وغيرها من المنظمات. وأضاف «نحن قلقون أن يكون تفكيره مثل اليهود الأمريكيين الليبراليين الذين يقولون، إذا أزلنا بعض المستوطنات، سوف تنتهى مشكلة التطرف ومشكلة إيران».

اقترح رام ايمانويل إن الإدارة تحاول وضع الخيط فى ثم الإبرة: لتوفير دعم «لا يتزعزع» لإسرائيل ولحمايتها من تداعيات القنبلة النووية الإيرانية، ولكنها بذلك تدفع إسرائيل باتجاه التسوية مع الفلسطينيين. ناقش ايمانويل فى لقائنا وقال إن إسرائيل غير قادرة على المضى قدما فى عملية السلام طالما إيران تلوح بتهديداتها بإزالة إسرائيل. وبدأ يستعرض رؤساء الوزراء الإسرائيليين الستة الماضين، بما فى ذلك نتنياهو وكيف قام خلال فترة ولايته الأولى فى أواخر الستينيات، مثيرا استياء والده، بالدخول فى تسوية مع الفلسطينيين، لدعم قضيته. أضاف رام ايمانويل أن كلا من «رابين، بيريس، نتنياهو، باراك، شارون وأولمرت، قد سعى إلى شكل من أشكال التسوية عن طريق التفاوض، الذى كان فى مصلحة إسرائيل الإستراتيجية الخاصة، كانت هناك الكثير من التهديدات الأخرى بينما الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة اتبعت عملية السلام. ليس هناك شك فى إن إيران تشكل تهديدا كبيرا، لكنهم لم يبدءوا برنامجهم النووى سوى منذ عام فقط».

وكان لدى ايمانويل رسالة أخرى لتوصلها: من أجل أسباب عملية كثيرة، يجب على إسرائيل أن تدرس بعناية ما إذا كان توجيه ضربة عسكرية سوف تستحق المشاكل التى سوف تثيرها، فقال «لست متأكدا لو منحنا إيران مدة زمنية، بغض النظر عن ما هى هذه المدة، فإنها لن توقف برنامجها النووى. «كل ما هناك سوف يتم تأجيله».

وعندئذ أدركت أن فى بعض المواضيع، لا يزال الإسرائيليون والأميركيون لا يتحدث كل منهم للآخر. فالأميركيون يعتبرون تأجيل برنامج إيران النووى مؤقتا سيكون ذات قيمة مشكوك فيها. أما الإسرائيليون لا يرون ذلك. لقد قال لى أحد وزراء الحكومة «عندما قام مناحيم بيجن بقصف أوزيراك (فى العراق)، كان قد قيل له أن ضربته هذه سوف تعطل العراقيين سنة»، وأضاف «ولكنه قام بها على أى حال».

خلال محادثاتى مع الجنرالات السابقين فى السلاح الجوى الإسرائيلى والاستراتيجيين، كانت اللهجة السائدة حذرة. وكثير من الناس الذين قابلتهم كانوا مستعدين للحديث، بشرط عدم نشر أسمائهم، عن لماذا هجوم على المواقع النووية الإيرانية سيشكل صعوبة على إسرائيل. وبعض جنرالات إسرائيل، على غرار زملائهم الأميركيين، شككوا فى فكرة مجرد وقوع هجوم. فقال لى أحد الجنرالات «سيكون من الأفضل أن نضغط على باراك أوباما للقيام بهذا الهجوم بدلا من إهدار الوقت فى محاولة ذلك بأنفسنا». «نحن نجيد مثل هذا النوع من العمليات، ولكنها سوف تكون خطوة كبيرة بالنسبة لنا. بالمقارنة يمكن أن يقوم الأميركيون بذلك بحد أدنى من الصعوبة، هذه عملية كبيرة جدا بالنسبة لنا».

وقد أمر رؤساء الحكومة الإسرائيلية المتعاقبون وزراءهم التكتيكيين والعسكريين بوضع خطة لتوجيه ضربة لإيران، وبالطبع استجابت القوات الجوية الإسرائيلية. ولكن من المستحيل أن نعرف على وجه اليقين كيف سيقوم الإسرائيليون فى تنفيذ مثل هذه العملية، ولكن تبادل المسؤلون فى كل من واشنطن وتل أبيب أشركونى فى بعض الافتراضات.

الافتراض الأول هو أن

الاستخبارات الإسرائيلية والأمريكية تتفق على أن الإيرانيين يأملون الحفاظ على حزب الله حتى تدخل إيران المجال النووى»

لقد اقترح اثنان من المسئولين بأن تقوم إسرائيل بالتنبيه مسبقا إلى الهجوم عددا من المرات قبل أن تهجم بالفعل

لا نريد أن يعتقد جيراننا أننا بلا حول ولا قوة ضد امتلاك إيران لقنبلة نووية

إسرائيل سوف تقوم بمحاولة واحدة فقط. ستحلق الطائرات الإسرائيلية على ارتفاع منخفض فوق المملكة العربية السعودية،ثم تقوم بقصف الأهداف فى إيران ثم العودة إلى إسرائيل بالطيران مرة أخرى فوق الأراضى السعودية، وقد يهبطون فى الصحراء السعودية للتزود بالوقود، وربما يتم ذلك بالتعاون السرى مع السعودية، هذا إذا صدقت تكهنات الأوساط الاستخبارات. ويجب على هذه الطائرات العودة إلى إسرائيل على وجه السرعة، لأن المخابرات الإسرائيلية تعتقد أن إيران سوف تطب فورا من حزب الله إطلاق صواريخ على المدن الإسرائيلية كرد فعل لهذه الضربة، وبالتالى ستكون القوات الجوية الإسرائيلية مطلوبة على الفور لمطاردة فرق حزب الله الصاروخية.

عندما قمت بزيارة الميجور جنرال جادى ايزنكوت، والقائد المسؤول عن قيادة المنطقة الشمالية الإسرائيلية، فى مقره بالقرب من الحدود اللبنانية، قال لى انه فى حال توجيه ضربة إسرائيلية من جانب واحد على إيران، ستكون مهمته محاربة قوات حزب الله الصاروخية. وقال ايزنكوت أن حرب عام ٢٠٠٦ بين حزب الله وإسرائيل، والتى بدأت عندما عبر مقاتلى حزب الله الحدود وهاجموا دورية إسرائيلية، اعتبرها المول الإيرانى للحزب خطأ استراتيجيا. «إن الإيرانيين غضبوا من حزب الله لهجومهم المفاجئ هذا»، وأضاف ايزنكوت قائلا «إن المسؤولين فى الاستخبارات الإسرائيلية والأمريكية يتفقون على أن الإيرانيين يأملون الآن الحفاظ على حزب الله كقوة احتياطية حتى يمكن لإيران أن تدخل المجال النووى».

ويصر ايزنكوت على رأيه بأن حرب عام ٢٠٠٦ كانت انتكاسة لحزب الله. «حزب الله عانى الكثير خلال هذه الحرب، لقد فقد الشيخ حسن نصر الله، زعيم حزب الله، الكثير من رجاله، وهو يعرف انه ارتكب خطأ. وهذا هو أحد الأسباب التى أدت إلى أربع سنوات من الهدوء. ولكن التغير الذى حدث فى الأربع سنوات هذه هو إن حزب الله زاد من قدراته الصاروخية، ولكننا نحن قمنا أيضا بزيادة قدراتنا». وخلص إلى القول، فى إشارة إلى ضربة إسرائيلية محتملة على إيران، «إن استعدادنا يعنى أن إسرائيل تمتلك حرية التصرف».

وحتى وإن قامت القيادة الشمالية الإسرائيلية بمواجهة الهجمات الصاروخية لحزب الله بنجاح فى أعقاب غارة إسرائيلية، فإن القيود السياسية لن تسمح لإسرائيل بطلعة جوية متكررة على إيران. «سوف يسمح لنا السعوديون أن نعبر مرة واحدة» قالها احد الجنرالات. «يمكنهم غلق الرادار عندما نكون فى طريقنا إلى إيران، ونعود بسرعة. مشكلتنا ليست الدفاعات الجوية الإيرانية، لأن لدينا وسائل لتحييدها. ولكن مشكلتنا هى أن العالم سوف يعتبر السعوديين مذنبين جدا إذا ما واصلنا التحليق فوق أراضيها».

أميركا أيضا، سوف تبدو متواطئة مع الهجوم الإسرائيلى، حتى لو لم تكن على علم بهذا الهجوم. فى كثير من الأحيان، ولكن ليس دائما، يكون الافتراض، أن إسرائيل لا تقوم بأى عمل إلا بموافقة من الولايات المتحدة صحيحا. وهى سمة من سمات الحياة فى منطقة الشرق الأوسط التى يأخذها الإسرائيليون فى الاعتبار. لقد تحدثت مع عدد من المسئولين الإسرائيليين الذين يحاولون التعامل مع هذه المسألة، من بين أمور أخرى: ماذا لو تعلم المخابرات الأمريكية النوايا الإسرائيلية ساعات قبل الموعد المقرر لإطلاق هجوم؟ وقال أحدهم «انه كابوس بالنسبة لنا، ماذا سيحدث إذ قام الرئيس أوباما بالاتصال ببيبى ويقول له.. نحن نعرف ما تفعلونه. توقف على الفور! هل نتوقف؟ قد نكون مضطرين لذلك. كان قد اتخذ قرارا بأننا لا يمكن أن نكذب على الأمريكيين بخصوص خططنا. نحن لا نريد إعلامهم مسبقا. وكان ذلك من أجلهم ومن أجلنا. فماذا نفعل؟ هذه هى الأسئلة الصعبة». لقد اقترح اثنان من المسئولين بأن تقوم إسرائيل بالتنبيه مسبقا إلى الهجوم عددا من المرات قبل أن تهجم بالفعل: وبالتالى بعد المرة الخامسة أو السادسة، ربما لن يعتقد أحد أننا حقا سنقوم بالهجوم».

سؤال آخر يقلق مستشارى التخطيط فى إسرائيل: كيف يعرفون أن هجماتهم قد دمرت فعلا عددا كبيرا من أجهزة الطرد المركزى وغيرها من التى يصعب استبدال أجزائها فى البرنامج السرى الإيرانى؟ وقال اثنان من الخبراء الاستراتيجيين بأن إسرائيل سوف تضطر إلى إرسال قوات كوماندوز لإنهاء المهمة، إذا لزم الأمر، والعودة بدليل على تدميرها. قد ينطلق الكوماندوز من أراضى الحكم الذاتى الكردى فى شمال العراق ووفقا لمصادر استخباراتية، سوف يواجهون تحديا غادرا، ولكن قال مخطط عسكرى كنت قد تحدثت معه أن الجيش الإسرائيلى لن يكون له أى خيار سوى أن يرسل هؤلاء الكوماندوز.

كما قال «من المهم جدا أن نكون قادرين على إعلام الشعب الإسرائيلى بما حققناه»، كثير من الإسرائيليين يعتقدون إن الإيرانيين يقومون ببناء أوشفيتز. علينا أن نخبرهم أننا قد دمرنا أوشفيتز، أو عليهم أن يعرفوا أننا حاولنا وفشلنا».

هناك، بطبيعة الحال، قادة إسرائيليون يعتقدون أن مهاجمة إيران محفوفة بالخطر. لقد قالت مصادر عديدة أن جابى اشكنازى، رئيس أركان الجيش الإسرائيلى، متشكك من جدوى الهجوم. وهناك الجنرالات الآخرون الذين تحدثت معهم قلقون لأن الحديث عن «التهديد الوجودى» هو فى حد ذاته نوع من التهديد الوجودى للمشروع الصهيونى، التى كان من المفترض أن يمنع مثل هذه التهديدات ضد الشعب اليهودى. وأضاف «إننا لا نريد أن يضعنا السياسيون فى موقف سيئ بسبب كلمة المحرقة، ولا نريد أن يعتقد جيراننا أننا بلا حول ولا قوة ضد امتلاك إيران لقنبلة نووية، وذلك لأن إيران قد تمتلك القنبلة يوما ما. ليس هناك ما يضمن أن إسرائيل لن تفعل ذلك، أو أن أمريكا لن تفعل ذلك».

بعد التحديق فى صورة الجسر الجوى للقوات الإسرائيلية فوق أوشفيتز أكثر من عشر مرات مختلفة فى أكثر من اثنى عشر مكتبا مختلفا، استطعت أن أرى جوهر التناقض. ماذا لو أن علماء الفيزياء اليهود، الذين أنشأوا ترسانة إسرائيل النووية، استطاعوا عمل ثقب فى الفضاء للتواصل مع الزمن لإرسال سرب من المقاتلات إلى عام ١٩٤٢ لكانت مشكلة أوشفيتز قد حلت فى عام ١٩٤٢. وبعبارة أخرى، فإن إنشاء قدرة عسكرية يهودية خطيرة. لنقل قنبلة نووية، أو السلاح الجوى الإسرائيلى. خلال الحرب العالمية الثانية استطاع أن يضع نهاية أسرع للمحرقة. ومن الإنصاف القول، إذن، أن وجود سلاح الجو الإسرائيلى، وترسانة إسرائيل النووية، تعنى بصورة بديهية أن البرنامج النووى الإيرانى لا يتساوى مع أوشفيتز.

وضعت هذه الصيغة أمام افرايم سنيح، الجنرال السابق والمؤيد القوى لهجوم إسرائيلى. «لقد خلقنا توازنا استراتيجيا لصالحنا، لكن إيران قد تطلق صاروخا ذاتى الدفع بقنبلة نووية،

ولن تمنع ذلك هذه الطائرة إف ١٥ الموجودة فى الصورة».

هذه مشكلة شيطانية. وقد تسببت هذه المشاكل الشيطانية فى بعض الأحيان إلى تجاوز إسرائيل.

ويشعر بنيامين نتنياهو، لأسباب تتعلق بالأمن القومى، انه إذا فشلت العقوبات، سوف يضطر إلى اتخاذ الإجراءات اللازمة. ولكن هجوما إسرائيليا على المنشآت النووية الإيرانية، سواء كانت ناجحة أم لا قد تدفع إيران إلى مضاعفة جهودها. وهذه المرة مع قدر من التعاطف الدولى. لإنشاء ترسانة نووية. وقد يسبب ذلك حالة من الفوضى للولايات المتحدة فى الشرق الأوسط.

واحد من القلائل الذين تحدثت معهم فى إسرائيل كان يبدو هادئا إلى حد ما ورابط الجأش تجاه التهديد النووى الإيرانى، وهو رئيس البلاد شيمون بيريز وهو آخر عضو من جيل مؤسسى إسرائيل الذى لا يزال فى الحكومة. بيريس يرى البرنامج النووى الإيرانى كارثة متوقعة بلا شك. لكنه يدعو إلى فرض «عقوبات معنوية» يعقبها عقوبات اقتصادية، ثم إنشاء «مغلف حول إيران من أنظمة مضادة للصواريخ لكى لا تكون صواريخ إيران قادرة على الطيران». وعندما سألته إذا كان يؤمن بالخيار العسكرى، أجاب: «لماذا ينبغى لى أن أعلن شيئا من هذا القبيل؟» وأشار إلى انه غير مرتاح من فكرة العمل الإسرائيلى من جانب واحد، واقترح أن إسرائيل تستطيع أن تعترف بقصورها، لأنه يعتقد، على عكس كثير من الإسرائيليين، أن الرئيس أوباما، سوف يكافح بطريقة أو بأخرى التهديد الإيرانى، ولكن ليس لحساب إسرائيل (رغم انه قال انه يعتقد أن اوباما سيأتى للدفاع عن إسرائيل إذا لزم الأمر)، ولكن لأنه يدرك أنه بالنسبة للتحدى الإيرانى، فان مصالح أميركا وإسرائيل (والغرب، والدول العربية المتحالفة مع الغرب) تسير فى خط متواى وبشكل طبيعى.

واستنادا إلى مقابلات عديدة استمرت عدة أشهر، ولقد وصلت إلى الاعتقاد بأن الإدارة تدرك أنه من شبه المؤكد إن إسرائيل ستتعامل قريبا مع إيران إذا لم يقم أحد أو شىء بإيقاف البرنامج النووى الإيرانى. بعلم أوباما ومساعديه. وغيرهم فى وزارتى الخارجية والدفاع. أوضحا لى أن إيران المسلحة نوويا تمثل تهديدا خطيرا لمصالح الولايات المتحدة، والتى تشمل أيضا حلمه فى عالم خال من الأسلحة النووية. اتفقت فى وقت سابق من هذا العام، مع كثيرين، بمن فيهم العديد من الإسرائيليين والعرب والإيرانيين الذين يعتقدون أنه لا يوجد أى احتمال أن يلجأ أوباما فى أى وقت إلى القوة لمنع إيران. وما زلت لا أعتقد أن هناك فرصة كبيرة ليتخذ أى إجراء عسكرى فى المستقبل القريب لأنه من المعروف أن وزارة الدفاع غير متحمسة لهذه الفكرة. لأنه من الواضح أن أوباما غير متحمس لهذه القضية. متفهمة أن أفضل طريقة لتفادى توجيه ضربة عسكرية لإيران هو جعل التهديد بالضربة من قبل الأميركيين يبدو حقيقيا، قامت إدارة أوباما عن عمد بتصعيد الموقف. منذ أسابيع قليلة،قال لى دنيس ماكدونو، رئيس هيئة الأركان فى مجلس الأمن القومى، «ما ترى فى إيران الآن هو تقاطع عدد من الأولويات الرئيسية للرئيس، الذى يرى تهديدا خطيرا لنظام منع الانتشار النووى العالمى، تهديدا من الأنشطة النووية المتتالية فى منطقة مضطربة، وتهديدا لإسرائيل الصديق الوثيق للولايات المتحدة. أعتقد أنك ترى كيف تتجمع هذه التيارات العديدة معا، بما يفسر السبب الذى يجعل هذا الموضوع مهما جدا بالنسبة لنا».

عندما سألت بيريز عن رأيه فى الجهد الذى يبذله نتنياهو ليجعل إسرائيل قضية مميزة فى إدارة أوباما، أجابنى كعادته بسرد قصة رمزية، قصة تقترح أن بلاده يجب أن تعرف مكانتها، والأمر متروك بعد ذلك للرئيس الأميركى، وللرئيس الأميركى فقط، أن يقرر فى النهاية أفضل طريقة للحفاظ على مستقبل الغرب. وكانت القصة عن أستاذه، ديفيد بن جوريون.

وقال بيريز «بعد فترة وجيزة من انتخاب جون كينيدى رئيسا، التقى به بن جوريون فى فندق والدورف استوريا فى نيويورك، وبعد اللقاء، رافق كينيدى بن جوريون إلى المصعد، وقال له السيد رئيس الوزراء، أريد أن أقول لك أننى انتخبت بسبب شعبك، لذلك ماذا يمكننى أن افعل لك فى المقابل؟» شعر بن جوريون بالاهانة لهذا السؤال. وأجاب قائلا: «ما يمكنك القيام به هو أن تكون رئيسا عظيما للولايات المتحدة. يجب أن تفهم أن وجود رئيس عظيم للولايات المتحدة هو حدث كبير».

واستمر بيريز فى شرح ما يراه فى مصلحة إسرائيل الحقيقية قائلا: «إننا لا نريد الفوز على الرئيس، بل نريد من الرئيس أن يفوز». ■

كتاب الزاوية

محمد عفيفى مطر

(٣)

هذا الليل

هذا الليل يبدأ
دهر من الظلمات أم هى ليلة جمعت سواد
الكحل والقطران من رهج الفواجع فى الدهور!
عيناك تحت عصابة عقدت وساخت فى
عظام الرأس عقدتها،
وأنت مجندل يا آخر الأسرى...
ولست بمفتدى..
فبلادك انعصفت وسيق هواؤها وترابها سبياً
وهذا الليل يبدأ،
تحت جفنيك البلاد تكومت كرتين من ملح الصديد
الليل يبدأ
والشموس شظية البرق الذى يهوى إلى
عينيك من ملكوته العالى،
فتصرخ، لا تغاث بغير أن ينحل وجهك جيفة
تعلو روائحها فتعرف أن هذا الليل يبدأ،
لست تحصى من دقائقه سوى عشر استغاثات
لفجر ضائع تعلو بهن الريح جلجلة
لدمع الله فى الآفاق..
هذا الليل يبدأ
فابتدئ موتا لحلمك وابتدع حلما لموتك
أيها الجسد الصبور
الخوف أقسى ما تخاف.. ألم تقل؟!
فابدأ مقام الكشف للرهبوت
وانخل من رمادك، وانكشف عنك،
اصطف الآفاق مما يبدع الرخ الجسور..

معتقل طرة ١٩٩١

كيــــــــــــف أفلتــــــــــوا بفعلتهـــــــــم

قـــــوة القنبلة

’الكامنــــة‘

تــــومـــــاس بـــــاورز

Thomas Powers

■■ لا يخبرنا «جارى ويلز» ما الذى جاء أولا فى تصوره لكتابه الجديد - الحيرة الشديدة لأن الرؤساء الأمريكيين أفلتوا بقراراتهم الخاصة بشن الحروب فى كوريا وفيتنام والخليج الفارسى والعراق؟ أم هى اللحظة فى أواخر عام ٢٠٠٨ عندما ذكر «ديك تشينى» - نائب الرئيس فى ذلك الوقت - مشاهدى قناة فوكس للأخبار بالسلطة الهائلة الممنوحة للرؤساء الأمريكيين منذ اختراع القنبلة؟

لقد أصاب «تشينى» كبد الحقيقة فيما يتعلق بمؤسسة الرئاسة الحديثة. فالرئيس وحده يستطيع أن يأمر باستخدام سلاح نووى ضد عدو يحدده هو، وفى لحظة يختارها هو، ولأسباب يراها هو ملائمة. ليست تلك السلطة نظرية فقط؛ ففى سبيل منحها تأثيرا عمليا يرافق الرئيس دائما مساعد يحمل حقيبة تحتوى على شفرات التفويض التى لا يمكن بدونها تجهيز أى سلاح نووى أمريكى للاستخدام.

لـ «تشينى» تاريخ طويل كبطل لقوة الرئاسة. وليس هناك الكثير - فى اعتقاده - مما لا يستطيع رئيس فعله، ويشاركه فى هذا الموقف على نطاق واسع الجمهوريون الجدد الذين منحوه منزلة نظرية تحمل اسمى - التنفيذى الوحدوى. ولكن دعك من المزاح - كما يقول الديمقراطيون. فقد رأينا التنفيذى الوحدوى سابقا. فهو يمنح كل رئيس ما اعتقد «ريتشارد نيكسون» أنه بحوزته - يد طليقة تماما. وقد فسر «نيكسون» لمساعديه إبان أزمة «ووترجيت»: «عندما يفعلها الرئيس فإنها ليست بجريمة».

لم يدع الديمقراطيون «نيكسون» يفلت فى ذلك الوقت، وهم لا يريدون أن يدعوا الجمهوريين الجدد يفلتون الآن. ولكن ليس هناك خلاف كثير حول النقطة الجوهرية التى طرحها «تشينى» على قناة فوكس للأخبار. فقد منح الرئيس سلطة الحياة والموت فى استخدام القنبلة. قال «تشينى»: ليس عليه أن يرجع إلى أى شخص.

«ويلز» هو الذى ينبهنا إلى كلمات «تشينى». فبالنسبة له، تلك هى المعضلة. من الممكن تأليف كتاب طويل حول سلطة الاستخدام النووى يستعرض العديد من القيود والمؤهلات، ولكن مثل هذا الكتاب سوف يتوافق مع «تشينى» فى النهاية. لقد حصل الرؤساء الأمريكيون - وزعماء الأمم الأخرى بدورهم - على سلطة هائلة فورية من اختراع القنبلة، وقاموا لاحقا بزيادة سلطتهم لتطوير أنظمة حمل خاصة بها أكثر سرعة ودقة.

لا ينتهى الأمر هنا. يجادل «ويلز» بأن «عالم الطوارئ المستمرة» الذى صنعته قوة القنبلة يفرض سلطات أخرى عديدة على مؤسسة الرئاسة، أهمها السيطرة على المعلومات. كانت القاعدة الأولى للرجل الذى أدار مشروع اختراع القنبلة. الجنرال «ليزلى جروفز» - هى الحد من معرفة تطوير القنبلة. لقد أراد من العلماء أن «يقوموا بعملهم المعتاد» ويجعلوا الأداة تعمل، ولكن

Thomas Powers is the author of Secrets:The Man Who Kept the Richard Helms and the CIA (1979), and Intelligence Wars: American Secret History from Hitler to al-Qaeda (2002; revised and expanded edition, 2004). He won a Pulitzer Prize for National Reporting in 1971 and has contributed to The New York Review of Books, The New York Times Book Review, Harper>s, The Nation, The Atlantic, and Rolling Stone.

Bomb Power: The Modern Presidency and the National Security State
by Garry Wills
Penguin, 278 pp., $27.95

Why Intelligence Fails: Lessons from the Iranian Revolution and the Iraq War
by Robert Jervis
Cornell University Press, 238 pp., $27.95

بترتيب خاص مع:
The New York Review of Books

ترجمة: عادل فتحى

ليس رعب «هيرماجيدون» المألوف كله تماما هو ما يقلق «ويلز»، وإنما تأثير جانبى جرى إغفاله عموما، ألا وهو إعادة كتابة دستور الولايات المتحدة بصورة استبدادية تحت وطأة إلحاح التسليح النووى

لم تكن تسمية رد فعله بـ «حرب على الإرهاب» مجرد تلاعب للرئيس بالألفاظ للإشارة إلى اتخاذ قراره. فالحرب مصطلح قانونى. وباستخدامه فقد استولى «بوش» على النطاق الكامل للسلطات الهائلة التى كانت للرؤساء السابقين فى حروب الماضى

يدعوا الآخرين يقررون ماذا يفعلون بها. كان الرئيس «روزفلت» يعلم القليل عن «مشروع مانهاتن»، ولم يكن «ترومان» نائب الرئيس يعلم عنه شيئا حتى تمت إحاطته علما بعد وقت ليس بالقصير من وفاة «روزفلت». فى نهاية الحرب، علق «دين أتشيسون»: لقد أفرخ الحفاظ على السر الأصلى «دولة منفصلة بها الآلاف من الأسرار».

استغرق الأمر عقدا من الزمن لتتطور الدولة المنفصلة إلى دولة الأمن القومى، جهاز هائل لـ «دفاع» يهدد بتحويل الأمر إلى الشأن الأول لأمريكا. يحدد «ويلز» خمسا وعشرين علامة فارقة منفصلة طوال الطريق، بداية من إعادة تنظيم منظمات استخبارات الحرب العالمية الثانية. ويحدد تاريخه الحافل نصف دستة خطب ومقالات محورية وتمرير العديد من القوانين وتشكيل مكاتب حكومية جديدة لإدارة شئون الحرب والسلام وصياغة المعاهدات والغزوات الأولى لأنشطة الاستخبارات السرية - وكل ذلك يشكله تنافس سياسى عالمى مع الاتحاد السوفيتى يحمل فى طياته إمكانية الهلاك بسبب حقيقة القنبلة وعواقبها. إن علامات التاريخ الموجز لـ «ويلز» عن الحرب الباردة مألوفة جميعا، ولكن حجته جديدة وهامة.

كان هناك العديد من الكتب حول القنبلة. الذى يميز كتاب «قوة القنبلة» هو مصدر مخاوف «ويلز». ليس رعب «هيرماجيدون» المألوف كله تماما هو ما يقلق «ويلز»، وإنما تأثير جانبى جرى إغفاله عموما، ألا وهو إعادة كتابة دستور الولايات المتحدة بصورة استبدادية تحت وطأة إلحاح التسليح النووى. وهو يعلق: «إن دولة الأمن القومى فى أزمة دستورية دائمة». ما يعنيه هو أن الرؤساء - باسم الأمن القومى - قد منحوا أنفسهم نطاقا يزداد اتساعا من سلطات غير مخولة، وفى بعض الأحيان محظورة بوضوح بواسطة الدستور. بداية من الأعلى، نجد السلطة الحقيقية لـ «إعلان» أو شن الحرب، والتى يمنحها الدستور للكونجرس؛ وتقرير أى المعلومات تكون سرية، ومن الذين يجب أن يعلموا بشأنها، وما القدر الذى يجب أن يعلموه؛ والدخول فى تحالفات واتفاقيات أجنبية بقليل أو بلا تبصر؛ وتعليق الحقوق الدستورية بالأمر التنفيذى (كما فعل «روزفلت» عندما اعتقل الأمريكيين من أصول يابانية فى زمن الحرب العالمية الثانية)؛ وتجاهل القوانين التى سنها الكونجرس كليا أو جزئيا بإعلان عقد النية على ذلك من خلال «توقيع بيانات»، وإنفاق النقود بدون - أو ضد - تفويض من الكونجرس.

لا يجادل «ويلز» بأن الحصول على تلك الحقوق أو السلطات المختلفة تحقق كله عقب صعود القنبلة إلى المسرح السياسى الأمريكى. فالسلطة الرئاسية كانت مثار الكثير من الجدل أثناء المؤتمر الدستورى، عندما أدى الخوف الحذر من الطغيان إلى تبنى العديد من الضوابط على حرية الرئيس فى العمل. ليست هناك بنود فى الدستور أكثر وضوحا من ذلك الذى يحتفظ للكونجرس بحق إعلان الحرب، ولم يتعرض بند للتلاعب والتحريف والانتهاك أكثر من هذا البند نفسه، بداية من قرار الرئيس «جيفرسون» عام ١٨٠١ بـ «إبلاغ» الكونجرس أنه بصدد إرسال قوة بحرية لمهاجمة قراصنة البربر على سواحل طرابلس. ربما كان النقض الأشهر - والأكثر تداولا - للدستور بواسطة أمر تنفيذى قد جاء مبكرا إبان الحرب الأهلية، عندما علق الرئيس «لينكولن» حق الإفراج القضائى. يبدو أن التعليق كان محتما بالنظر إلى ما مضى؛ هل كان يجب منح السجناء الانفصاليين حق الحصول على محامين والوصول إلى القضاء لمعارضة احتجازهم؟ لقد تمسك الرؤساء اللاحقون بتلك السابقة واستخدموها، مؤكدين على حقهم - من وجهة نظر «ويلز» - فى «إصدار الأوامر لأى شىء يريدونه».

عبر السنين، أراد الرؤساء العديد من الأشياء. ففى مواجهة مطالب الإيرانيين بفدية للرهائن الأمريكيين، منح «جيمى كارتر» نفسه حق الوصول إلى موارد مالية اقتصادية خاصة بالطوارئ لدفع الفدية. وبصورة مشابهة، شكل «نيكسون» وكالة حماية البيئة وأنشأ «كينيدى» فيلق السلام، وكلاهما بالأمر التنفيذى. وقد تم منع رؤساء آخرين، مثلما حدث مع «هارى ترومان» عندما أراد فض إضراب للسكة الحديد بالتجنيد الإجبارى للعاملين فى الجيش عام ١٩٤٦، وعندما أراد تأميم مصانع الصلب لإنهاء إضراب آخر عام ١٩٥٢.

ولكن «ويلز» لم يخض كل تلك الصعاب كى يضرب على يد «نيكسون» و«ترومان». إن ما يقلقه هو النطاق الهائل للسلطات التى احتفظ بها «جورج دبليو بوش». فقد بدا أن «بوش» و«تشينى» يعلمان فورا كيف يستخلصان مكسبا من الفشل. كان الغبار ما زال يخيم على الجزء الأدنى من «مانهاتن» عندما أعلن «بوش» أن الولايات المتحدة «فى حالة حرب» مع إرهابيى القاعدة الذين دمروا مركز التجارة العالمى عام ٢٠٠١. ولم تكن تسمية رد فعله بـ «حرب على الإرهاب» مجرد تلاعب للرئيس بالألفاظ للإشارة إلى اتخاذ قراره. فالحرب مصطلح قانونى. وباستخدامه فقد استولى «بوش» على النطاق الكامل للسلطات الهائلة التى كانت للرؤساء السابقين فى حروب الماضى. فى الوقت نفسه، فإنه جعل من نفسه «رئيس حرب» ملقيا بذلك عبئا ثقيلا على المعارضة السياسية للالتفاف حوله والتخلى عن الحزبية لمصلحة البلاد.

استخدم «بوش» سلطاته «فى زمن الحرب» للقيام بالعديد من المبادرات الجريئة، كما أنه استخدم سلطته لتصنيف المعلومات لإخفاء ما فعله. لقد تمت الإطاحة بالقانونين الأمريكى والدولى والتلاعب بهما من خلال اختطاف أشخاص مطلوبين من أراض أجنبية («أداء خارق للعادة»)، ومراقبة مواطنين أمريكيين بدون إذن قضائى حسبما يتطلب القانون، وسجن مواطنين أمريكيين دون اتهام قانونى، وإقامة سجون سرية فى دول أجنبية بموجب اتفاقيات سرية مقابل وعود لا يعرفها أحد بعد، واعتقال السجناء فى سجن بخليج «جوانتانامو»، والتنصل من اتفاقيات جنيف، وانتهاك التقاليد والقانون الأمريكيين بإجازة تعذيب السجناء.

ولكن أهم مبادرات «بوش» كانت غزو أفغانستان والعراق، وهى أعمال تندرج تماما تحت تصنيف الحرب التى ينص الدستور على أنه يمكن إعلانها فقط بواسطة الكونجرس. لا يحتاج الأمر إلى التلاعب بالقانون أو العدالة لتبرير غزو أفغانستان لمطاردة المجرمين الذين هاجموا الولايات المتحدة، ولكن ما الذى برر غزو العراق؟ إن صدام حسين لم يهدد (نح البلاغة جانبا) أو يهاجم الولايات المتحدة أو حلفاءها، ولم تخول هيئة دولية اللجوء للحرب، ولم يعلن الكونجرس الحرب.

ما فعله الكونجرس استجابة للطلب العاجل المقدم من الرئيس «بوش» كان تمرير قرار مشترك فى أكتوبر عام ٢٠٠٢ يستند أساسا إلى سلسلة من احتمالات «إذا» المفزعة - «إذا» كان العراق فى الواقع «يسعى بجدية للحصول على قدرات أسلحة نووية»، و«إذا» نجح العراق فى تلك الجهود، و«إذا» هاجم العراق الولايات المتحدة بأسلحة نووية، أو «إذا» سلمها العراق إلى منظمات إرهابية، و«إذا» استخدمها الإرهابيون، عندئذ فإن «مقدار الضرر الهائل الذى قد ينتج» قد يبرر اللجوء الوقائى للهجوم العسكرى. كان ينقص الكونجرس الحضور الذهنى لمناقشة سلسلة «إذا» تلك، وقام بالتصويت - ليس بالإجماع ولكن بغالبية ساحقة - على منح الرئيس «بوش» سلطة «استخدام القوات المسلحة للولايات المتحدة حسبما يقرر هو الضرورة الملائمة لكى... يدافع عن الأمن القومى للولايات المتحدة».

كان قرع الإدارة الأمريكية المتواصل لطبول الحرب أحد أسباب انصياع الكونجرس. كما أن الخوف من مظنة الضعف، والاعتقاد بأن الرئيس يعلم شيئا ما بالتأكيد، والفزع القائم بسبب احتمالات «إذا» المخيفة، والرغبة فى الاقتصاص من شخص ما مقابل آلام الحادى عشر من سبتمبر، وهياج الجماهير - كل ذلك بلا شك لعب دورا فى لا مبالاة الكونجرس فى تسليم ما طلب منه. إن «ويلز» يرفض التفسيرات العديدة عدا واحدا فقط. كتب يقول: «السبب الرئيسى هو القنبلة». ويعتقد «ويلز» أنه فى اللحظة الحاسمة فإن الكونجرس سوف يستنتج دائما أن القنبلة هى أخطر مما يمكن العبث بها، وسوف يحيل الأمر إلى المسئول الوحيد الذى ربما «يعلم شيئا» لا تعلمه بقيتنا.

حسبما يرى «ويلز»، فإن «القنبلة» - عموما - هى التى

قـــــوة الـقـنـبـــلـة

كان من العسير فى السنوات الأخيرة من الحرب الباردة جعل أى شخص يبذل مزيدا من الجهد

تمنح الرؤساء حرية التصرف، ولكن فى حالة العراق، كان الخوف من قنبلة معينة يجرى تصنيعها فى الورشة النووية لصدام حسين هو الذى أخمد الشكوك فى الكونجرس. ما من رئيس أمريكى على الإطلاق صرح بأنه «يعلم شيئا» بوضوح وثقة أكثر مما فعل «بوش» و«تشينى». أما المدهش فهو قدر النجاح الذى تحقق. كان تاريخ الحرب الباردة تطورا مرعبا بعد الآخر. «فجوة القاذفات» فى بداية الخمسينيات، و«فجوة الصواريخ» فى أواخر الخمسينيات، والقدرة على توجيه الضربة الأولى المتوقعة من الصواريخ السوفيتية ذات الرؤوس المتعددة، ومنظومات الرادار السوفيتية غير الشرعية التى يمكنها توجيه نظام صاروخى مضاد للقذائف البالستية، كل ذلك هدد بـ «انفلات إستراتيجى». تحول مفاجئ فى التوازن العسكرى للرعب وتعريض الولايات المتحدة للخطر بين يوم وآخر. لقد تم تطوير الكثير من المعدات الجديدة طوال عقود، ولكن لم يتبع ذلك انفلات. وكان من المحتم أن يؤدى تضخيم التهديد إلى استنزافه التهديد؛ كان من العسير فى السنوات الأخيرة من الحرب الباردة جعل أى شخص يبذل مزيدا من الجهد.

تغير ذلك عام ٢٠٠٢. لم يشك أحد أن أسامة بن لادن سوف يستخدم سلاحا نوويا لو كان يملك واحدا. وقد أثبت صدام حسين أنه رجل ذو حقد دفين وعناد لا يهدأ. وفى مزاعمهما العديدة أن صدام حسين كان «يسعى بجدية» إلى الحصول على أسلحة نووية، فإن «بوش» و«تشينى» لم يبد عليهما الشك، بل صرحا بلا تحفظ أنهما يعلمان شيئا. وفى أواخر عام ٢٠٠٢ كشفت وكالة الاستخبارات المركزية ما تعرفه فى تقييم استخباراتى قومى خاص. ولكن كل ذلك كان مجرد خدعة كبيرة. فكما هو معروف تماما الآن، لم تكن هناك أسلحة دمار شامل عراقية أو برامج جادة لبنائها.

إن توضيح تلك الحقيقة المجردة يجابه المؤرخين بخيار مؤلم، بل ربما كان خطيرا للغاية: هل سيرفعون القبعة للبيت الأبيض ويصفون تلك الأخطاء الفادحة باعتبارها هفوات غير مقصودة، تاركين بذلك «بوش» و«تشينى» يفلتان؟ أم سيقول المؤرخون صراحة ما تعلنه الحقائق ـ أن البيت الأبيض أراد الحرب وكان يحتاج إلى تبرير معقول ظاهريا للحرب، وقرر أن برامج أسلحة الدمار الشامل العراقية هى ذلك المبرر، وانتزع «التقديرات» اللازمة عنوة من وكالة الاستخبارات المركزية واستخدمها للضغط على الكونجرس للانصياع؟

فى كتابه الجديد «لماذا تخفق الاستخبارات»، يطرح «روبرت جيرفيس» سؤالين يكشفان حيرة المؤرخين. الأول هو لماذا أخفقت وكالة الاستخبارات المركزية فى

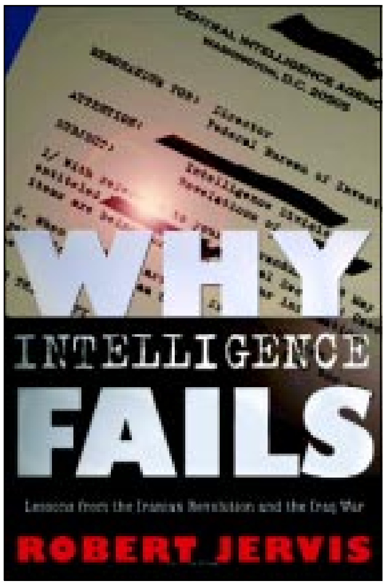

التنبؤ بالغليان المتزايد للأحداث عام ١٩٧٩ والذى أطاح بشاه إيران. الفرص وفيرة هنا لإلقاء اللوم على مجهولية عملية إجراء التقييمات. ويقدم السؤال الثانى مجالا أقل تأرجحا: لماذا قامت وكالة الاستخبارات المركزية ببناء كل تلك المزاعم الكاذبة على مثل هذا الدليل الواهى؟

«جيرفيس» أستاذ للسياسة الدولية فى جامعة كولومبيا، وخبير متمرس فى الاستخبارات، مع معرفة عميقة بالمنظمات التى تشكل مجتمع الاستخبارات الأمريكى. جميع تلك الوكالات على درجة احترافية من الكفاءة وممولة جيدا، ولكنها تتعثر باستمرار فى الحقائق التى تعقد حياة المحللين ـ قدرة الخصوم على إخفاء ما يفعلون؛ ومقاومة أصحاب المناصب العليا للأنباء السيئة؛ والصعوبة الضمنية فى الإجابة عن أى سؤال يبدأ بكلمة «متى»؛ والأنظمة الصديقة التى لا ترغب فى أى تطفل على باحتها الخلفية؛ وأعطال المعدات فى اللحظات العصيبة؛ والطقس المتقلب؛ والمشاكل الصاخبة فى أحد أرجاء العالم والتى تصرف الانتباه عن المشاكل الهادئة فى مكان آخر. القائمة طويلة. فمنذ أواخر الأربعينيات، ومن وقت لآخر، كانت وكالة الاستخبارات المركزية على وجه الخصوص على خطأ فيما يتعلق بكل شىء عمليا، مرسخة بذلك نوعا من التاريخ الطبيعى للأساليب الخطأ التى أخفق محللو الاستخبارات تماما من خلالها فى قراءة الأحداث.

فى عام ١٩٧٩، كان «جيرفيس» خبيرا مقيما فى مكتب التقييمات التابع لوكالة الاستخبارات المركزية فى ذلك الوقت، وهو المركز القومى لتقييم الاستخبارات الأجنبية، عندما طلب منه دراسة فشل المركز فيما بين صيف ١٩٧٧ وأواخر عام ١٩٧٨ فى ملاحظة أن شاه إيران كان يترنح على عرشه. فالقراءات شديدة التفاؤل للتأييد الشعبى للنظام لم تتوقف سوى قبل أشهر قليلة من طرد الشاه إلى المنفى، مما أنهى عقدين كانت إيران خلالهما سدا منيعا للسياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط. لم تكن وكالة الاستخبارات المركزية هى التى قضت على نظام الشاه أو جاءت بآية الله خومينى إلى السلطة أو قصرت فترة «جيمى كارتر» على مدة واحدة فى البيت الأبيض، ولكن الخطأ المستمر للوكالة فى قراءة الأحداث ساعد البيت الأبيض فى إرجاء اللجوء إلى خيارات مؤلمة حتى فات الأوان.

لم يكن الهدف من دراسة «جيرفيس» تفسير لماذا اندلعت الثورة الإيرانية، وإنما لماذا أخفق المركز القومى لتقييم الاستخبارات الأجنبية فى التنبؤ بها. وكانت مصادر الخطأ التى أوردها مألوفة جميعا لدارسى الاستخبارات الأمريكية. ومن بينها: عدم وجود متحدثين تقريبا باللغة الفارسية، وعدد قليل جدا من العملاء على الساحة، وعدم وجود اتصال مع معارضى الشاه، وقلة التواصل مع خبراء الشأن الإيرانى خارج الوكالة، والجهل بالحقائق الأساسية بما فى ذلك خسارة الشاه لمعركته ضد مرض السرطان، وتاريخ من الأخطاء بشأن قدرة الشاه على البقاء. وعلى نفس القدر من الأهمية. كما وجد «جيرفيس». كانت التصورات المسبقة للمركز القومى لتقييم الاستخبارات الأجنبية. فقد كان لدى المركز ميل علمانى لاستبعاد الدين باعتباره عاملا غير هام، مفترضا أن الأنظمة المدعومة أمريكيا مهددة فقط من جهة اليسار، وكان المركز واثقا من قدرة الشاه على اتخاذ «إجراءات صارمة» عندما تتأزم الأمور. وكان توجيه كافة الأحكام إلى الاتجاهات الخطأ هو نتيجة للخبرة الشاملة لواضعى التقييمات بأن من الأسلم دائما التنبؤ بأن شيئا لن يتغير.

بالكاد ذكر «جيرفيس» حقيقتين جليتين ـ العزوف البيروقراطى الشديد للإدارة عن التخلى عن الشاه، و«الجهد الجماعى» الفاتر لوكالة الاستخبارات المركزية لمعرفة ما يحدث. لا متحدثين بالفارسية؟ لا عملاء فى الميدان؟ لا مساعى لتقصى ما كان الخومينى يقوله فعلا فى خطبه المسجلة المتداولة فى الأسواق؟ لا جهد يبذل لفهم أسباب استمرار التجار فى إغلاق حوانيتهم لدعم المقاومة؟ هل يمكن الإقرار بفضل وكالة الاستخبارات المركزية فى البحث عن الحقيقة بينما هى لم تبذل جهدا يذكر للكشف عنها؟

لا يحتاج المرء للنظر بعيدا فى حالتنا هذه بحثا عن الكلب الذى لم ينبح. إنه البيت الأبيض الذى لم تصدر عنه طلبات غاضبة لمعلومات أفضل حتى فات الأوان. يسلم «جيرفيس» بأن التقييمات المتفائلة كانت «عموما... متسقة مع سياسة الولايات المتحدة»، ولكنه يستنتج أن المحللين «لم يكونوا على وعى» بالضغوط لكتابة تقييمات حسب الطلب. كان من الصعب التفكير فى أسلوب أكثر لطفا للإفصاح عن عدم وجود محلل على استعداد لذكر ما قد يعتبره أى بيروقراط أمرا مسلما به ـ فالترقيات لا تأتى إلى صغار المحللين الجالسين فى مكاتب بلا نوافذ والذين يخبرون الرؤساء بما يعرف الجميع أن الرئيس لا يود سماعه.

لا تزال بصمات البيت الأبيض دليلا أكثر وضوحا على الاستنتاجات «شديدة الثقة» لوكالة الاستخبارات المركزية بشأن عدم وجود أسلحة دمار شامل عراقية أثناء الأشهر الستة التى مهدت لاندلاع الحرب فى مارس عام ٢٠٠٣. لقد دار جدل شديد حول ذلك الأمر، ولكن يبدو أن «جيرفيس» لم يلحظ أو يقر بالكم المتزايد باستمرار من الدلائل على ممارسة البيت الأبيض للضغط. على سبيل المثال كحقيقة أن نائبة مدير الوكالة للاستخبارات، «جامى ميسيك»، هددت بالاستقالة إذا لم يتوقف البيت الأبيض عن محاولة إكراه وكالة

لم يكن الهدف من دراسة «جيرفيس» تفسير لماذا اندلعت الثورة الإيرانية، وإنما لماذا أخفق المركز القومى لتقييم الاستخبارات الأجنبية فى التنبؤ بها

إن حالات الطوارئ القومية مثل الحرب الأهلية والكساد قد أضفت سمة حمائية على أى شىء

الاستخبارات المركزية للإبلاغ عن وجود «صلة» بين العراق وهجمات الحادى عشر من سبتمبر. لقد قام نائب الرئيس «تشينى» بثمانى رحلات على الأقل لمقر الوكالة لمناقشة ذلك وشئون أخرى خاصة بالعراق. ولم يتخل مساعد «تشينى»، «سكوتر ليبى» و«بول وولفويتز» من مكتب وزير الدفاع، عن الأمر. فـ«ستيفين هادلى»، مستشار الأمن القومى، كان لا يزال يحاول إجبار «ميسيك» لتغيير صيغة وثيقة عن «الصلة» قبل شهرين فقط من اندلاع الحرب.

لكن من الغريب أن «جيرفيس» يطالب بدليل دامغ على تدخل البيت الأبيض. فمن الواضح أن تهديد «ميسيك» بالاستقالة لا يصلح دليلا لأنها لم تقم فعلا بتسليم الصيغة التى طلبها «هادلى»، كما أنها لم تتهم البيت الأبيض رسميا بمحاولة الضغط عليها. كما جرى أيضا استبعاد أو الإقلال من أهمية المعالجة الغريبة للتقارير الواردة من «الكرة المنحرفة» (الاسم الرمزى لـ «رافد أحمد علوان» الذى فر من العراق عام ١٩٩٩، المترجم)، المصدر غير الجدير بالثقة للمزاعم بأن العراق كان يبنى معامل متنقلة للأسلحة البيولوجية؛ وكذلك الإصرار الخاطئ لواضعى التقييمات على أنه لا يوجد سوى تفسير واحد لشراء العراق لأنابيب الألمونيوم ـ ألا وهو استخدامها فى أجهزة الطرد المركزية لجمع مواد تصلح للقنبلة من اليورانيوم الطبيعى.

يتجاهل «جيرفيس» أيضا إشارة إدارة «بوش» الواضحة إلى ما كانت تريده من التقييم الاستخباراتى القومى. ألا وهو تقارير مرعبة تصلح أساسا للحرب. عند النظر بترو وفى لحظة هدوء. كما كان يجب على «روبرت جيرفيس» أن يفعل. فمن الواضح أن الدليل على برامج أسلحة الدمار الشامل العراقية المذكور فى التقييم الاستخباراتى القومى ليست له طبيعة محددة، ويأتى من مصادر مشكوك فيها، ويشير. على الأكثر. إلى أن صدام حسين كان «يسعى» إلى القنبلة، وليس أنه حصل أو كان على وشك الحصول على واحدة. بل إنه من المبالغة مجرد القول بأنه كان «يسعى بجدية» وراء القنبلة. ولكن فى أغسطس عام ٢٠٠٢. وقبل كتابة التقييم الاستخباراتى القومى، طرح «تشينى» الشكوك جانبا وصرح فى خطبة أمام الفيلق الأمريكى: «من المؤكد ببساطة أنه ليس هناك شك فى أن لدى صدام حسين الآن أسلحة دمار شامل». لم يكن البيت الأبيض بحاجة إلى أدلة دامغة، وقامت الوكالة «بثقة عالية» بتسليم أكثر ما فى جعبتها رعبا.

من الواضح أن «جيرفيس» يعشق عملية التحليل الاستخبارى بكاملها. فهو يعيد تكرار قصة أسلحة الدمار الشامل بأسلوب هادئ ومعقول، معددا الطرق الرائعة العديدة التى يمكن من خلالها أن يخطئ رجال شرفاء، ولكنه يتخلى عن الأشياء التى تطيح باللعبة. يبرز ثلاث من تلك للعيان.

الأول هو عدم وجود سبب للهاجس المفاجئ بشأن العراق. وهو اكتشاف هام له دلالات خطيرة. من المفترض أن يأتى السبب أولا. وهو مبرر لأن نهتم بشىء «الآن»، مثل اكتشاف أن السفن السوفيتية كانت تقوم بتسليم أشياء ضخمة وطويلة إلى كوبا عام ١٩٦٢. لقد استدعى ذلك تفسيرا. لم يظهر أى جديد عام ٢٠٠٢ بشأن برامج الأسلحة العراقية؛ كان الحادى عشر من سبتمبر وصياح البيت الأبيض هما ما جعلا القضية ملحة. ثانيا، هناك حقيقة أن الدليل الذى روجت له الإدارة كان موحيا تماما ولم يكن مؤكدا. وإذا ذكرنا الآن مثالا مشينا، فإن الخليط الخام من أكاسيد اليورانيوم من النيجر يشير إلى اهتمام باليورانيوم؛ أما المادة القابلة للانشطار والصالحة للاستخدام فكانت لا تزال على بعد سنوات عديدة، والذى كان سيكون صحيحا أيضا حتى لو كانت أنابيب الألمونيوم مطلوبة لأجهزة الطرد المركزى.

ثالثا. والأكثر أهمية. إخفاق وكالة الاستخبارات المركزية فى إبلاغ مفتشى الأمم المتحدة فى العراق أين يجدون ما بحوزة صدام من أسلحة الدمار الشامل أو المعامل أو المصانع اللازمة لتصنيعها. وقد خاطب «كولين باول». وزير الخارجية فى ذلك الوقت. الأمم المتحدة فى فبراير عام ٢٠٠٣، وكان من الواضح لأى شخص منتبه أن وكالة الاستخبارات المركزية لم تكن تعلم أين تجد أى شىء له علاقة بأسلحة الدمار الشامل فى العراق، وكانت تعلم أنها لا تعلم (وتلك حقيقة أكدها حوالى سبعمائة تفتيش للأمم المتحدة لحوالى خمسمائة موقع، بما فى ذلك أكثر من ثلاثين موقعا أبلغت بها وكالات الاستخبارات المفتشين، قبل أن تطلب الولايات المتحدة منهم الرحيل). منذ تلك اللحظة، لا يمكن وصف أى زعم بوجود خطر وشيك بأنه أمين من الناحية المنطقية. ربما يتجاهل

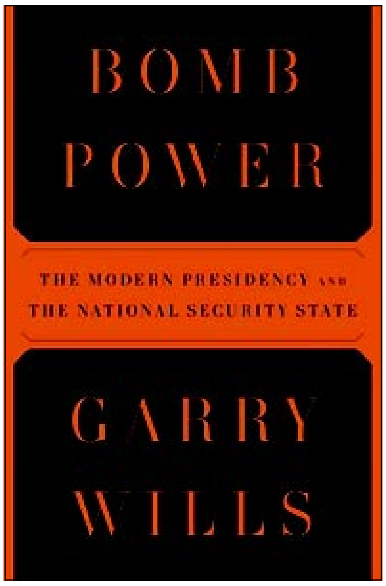

«جيرفيس» تلك الحقيقة لأن الفشل أصبح لا يمكن إنكاره فقط بعد نشر التقييم الاستخباراتى القومى فى أكتوبر عام ٢٠٠٢، ولكنه كان واضحا قبل أشهر من بدء الحرب. لماذا لم يتكلم أحد فى ذلك الوقت ولماذا لا يقول «جيرفيس» شيئا الآن، تلك شهادة صامتة على سلطة البيت الأبيض فى المضى فى طريقه.

السلطة الرئاسية هى أحد أسرار النظام السياسى الأمريكى. إن حالات الطوارئ القومية مثل الحرب الأهلية والكساد الكبير قد أضفت سمة حمائية على أى شىء يكون الرئيس جريئا بما فيه الكفاية ليصر على ضرورة عمله. إن الشخص الذى يقتحم طريقه إلى مقدمة طابور التذاكر يحصل عادة على ما يريد، والرئيس المدعوم من قبل حزب سياسى مع جيش من المتحدثين الرسميين ووسائل إعلام مدربة على إبراز حجته فى مقدمة كل رواية إخبارية يظهر فيها، يمكن أن يشق طريقه طويلا فى أى اتجاه يريد المضى فيه قبل أن يستجمع الخصوم قواهم لإبطائه. وحتى بدون المخاطر النووية، فإن الرؤساء تكون لديهم الأفضلية لصالحهم منذ البداية. أضف القنبلة. كما يجادل «جارى ويلز» فى كتابه النشيط المزعج. ولن تجد بالكاد شيئا يوقفهم.

يبدو أن «روبرت جيرفيس» يدرك ما حدث لتقييمات وكالة الاستخبارات المركزية عن أسلحة الدمار الشامل، ولكنه لن يوصل النقاط ببعضها. وهو يستشهد بـ «جنيفر جلودمانز». وهى محللة بوكالة الاستخبارات المركزية قدمت وصفا حيا للتسييس فى جلسة استماع عام ١٩٩١: «التسييس مثل الضباب. فعلى الرغم من أنك لا تستطيع الإمساك به فى يديك أو تثبيته على حائط فإنه موجود وحقيقى ويؤثر على سلوك الناس». فى بعض الأحيان، كتب «جيرفيس» أن «بوش» كان مذنبا بـ «إرهاب الاستخبارات وتجاهلها» وبـ «تحريف الأدلة» وبـ «انتقاء ما يحلو له» وبـ «تجميع» أجزاء من المعلومات لدعم «الرسائل التى يريد للعامة أن يصدقوها». الرؤساء «يحتاجون» الاستخبارات التى «تتوافق تماما» مع سياستهم. وعندما امتنعت وكالة الاستخبارات المركزية عن تأكيد الصلة بين العراق والقاعدة «مارست الإدارة ضغوطا هائلة على الاستخبارات كى تخرج برؤية مختلفة». فالرؤساء لديهم «متطلبات ووجهات نظر تختلف عن محللى الاستخبارات»، وسوف يؤدى ذلك إلى «ممارسة الضغوط على الاستخبارات وتحريفها».

قد تبدو تلك الملاحظات تمهيدا للاستنتاج بأن وكالة الاستخبارات المركزية قد «خضعت للضغوط لإبلاغ صناع السياسة ما أرادوا أن يسمعوه». كيف بغير ذلك يمكننا أن نفسر لماذا انحازت «جميع» استنتاجات المحللين إلى الاتجاه الذى تريده الإدارة، وكانت «جميعها» على خطأ؟ إن التوصل إلى رؤية مختلفة سليمة وأمينة من الناحية المنطقية قد يتطلب نقضا شديدا من قبل «جيرفيس»، ولكنه فقط يهمس بما توصل إليه. يقول «جيرفيس» أن التقارير الرسمية بشأن الفشل الذريع لقصة أسلحة الدمار الشامل «ترفض» إلقاء التبعة على الضغط السياسى، ويضيف: «أعتقد أن التقارير الرسمية صحيحة إلى حد بعيد».

إن الدخول فى معركة مع رئيس هو أمر خطير، ولا يقل خطورة بالنسبة للأكاديميين عندما يحين الوقت لكتابة التاريخ عما كان بالنسبة لبيروقراطيى الاستخبارات أثناء وطيس الأحداث. وبناء على استنتاجه المعتدل، يرفع «جيرفيس» القبعة للبيت الأبيض، ملقيا باللوم على وكالة الاستخبارات المركزية لأخطائها، مثلما فعل «بوش» و«تشينى» تماما، مؤكدا بذلك ما يمكن أن نطلق عليه قاعدة «جارى ويلز»: يفسح الناس العاديون الطريق عندما يستدعى رئيس القنبلة لما ينوى عمله. ■

عندما امتنعت وكالة الاستخبارات المركزية عن تأكيد الصلة بين العراق والقاعدة «مارست الإدارة ضغوطا هائلة على الاستخبارات كى تخرج برؤية مختلفة»

فى بدايات هذا العام، شكلت النساء - للمرة الأولى فى تاريخ الولايات المتحدة ـ الغالبية العظمى من القوى العاملة. الآن معظم المديرين من النساء. فى هذا العام مقابل حصول كل رجلين على شهادة جامعية سوف تقوم ثلاث نساء بنفس الشىء. لسنوات عديدة كان تقدم المرأة يمثل نضالاً من أجل المساواة ولكن ماذا عن الوضع الآن. يبدو أن المساواة لم تكن هى نقطة النهاية؟ هذا حول انعكاس الأدوار وعواقبه الثقافية الواسعة

هانا روزين

Hanna Rosin

نهـاية الرجال

The End of Men

■■ فى السبعينيات أتى عالم الأحياء رونالد إريكسون Ronald Ericsson بطريقة لفصل الحيوانات المنوية الحاملة للكروموسوم واى Y المنتج للذكور عن الحيوانات المنوية الحاملة للكروموسوم إكس X . لقد أطلق إريكسون نوعى الحيوانات المنوية للسباحة فى أسفل أنبوبة زجاجية بها حواجز زلالية سميكة. كان الحيوان المنوى ذو الكروموسوم X يتميز برأس كبير وذيل طويل وما كان واضحاً عليه هو تعثره وغوصه فى السائل اللزج. أما الحيوانات المنوية ذات الكروموسوم Y فقد كانت أصغر حجماً وأسرع وكانت قادرة على السباحة إلى أسفل الأنبوبة بكفاءة أكثر. كانت نشأة إريكسون فى مزرعة بولاية ساوث داكوتاSouth Dakota حيث ترعرع متشرباً زهو وخيلاء رعاة البقر فى الغرب القديم. كانت العملية كما ذكر أشبه بعملية فصل الماشية عند البوابة حيث كانت الماشية المحتجزة خلف البوابة ممثلة فى الحيوانات المنوية ذات الكروموسوم X وكان ذلك مبعث رضا لديه، وكان فى بعض الأحيان يبرهن على صحة هذه العملية باستخدام غضروف من عضو ثور كمؤشر.

فى أواخر السبعينيات قام إريكسون بتأجير «فكرته» إلى العيادات فى جميع أنحاء الولايات المتحدة واصفاً إياها بأنها أول طريقة مثبتة علمياً لاختيار جنس الطفل. بدلاً من معطف المختبر، ارتدى إريكسون حذاء وقبعة رعاة البقر وبدأ فى نظم الشعر الخاص بهم. وقد اقترحت عليه مجلة بيبول People Magazine ذات مرة عمل مسلسل قصير حول نشأته أطلقت عليه اسم (راعى بقر فى المختبر Cowboy in the Lab).

إن الوصفة الحقيقية للحياة كما يقول إريكسون هى «الفطور فى الساعة الخامسة والنصف صباحاً ثم اعتلاء السرج فى السادسة ولا مكان للسيد ذى المعصم الرخو». فى عام ١٩٧٩ استخدمت مزرعته فى إعلانات مارلبورو كخلفية لأيقونة إعلان ريف مارلبورو Marlboro Country بعد أن أعارها إريكسون لمنظمى الحملة الإعلانية إيماناً منه بأهمية تمركز الصورة الذهنية للحملة حول». رجل يمتطى جواده بحرية بموازاة النهر، لا وجود للروتين والجمود، لا وجود للقوانين» وقد أشار عندما تحدثت إليه فى هذا الربيع إلى أنه «المهيمن» وصاحب هذا العمل «The Boss» فقد التقط المصورون ما يزيد على ٦٥٠٠ صورة وهو عدد يتجاوز الحدود مما يجعل إريكسون يحمل اعتزازاً عظيماً لها.

لم تشعر نساء هذا العصر بارتياح ولا استلطاف لإريكسون ولا لأيقونته «رجل مارلبورو Marlboro Man» ذو المظهر المخادع. بالنسبة لهن فإن راعى بقر المختبر وأداته فى فصل الحيوانات المنوية ينبئان عن واقع مرير من الإنتاج الضخم للبنين. فى ملف الشعب لإريكسون لعام ١٩٨٤«People Profile of Ericsson» أدلت الراهبة روبرتا شتاينباتشر Roberta Steinbacher – وهى أخصائية اجتماعية تحولت إلى طبيبة نفسية بدلوها قائلة «عليكم أن تشعروا بالقلق إزاء مستقبل جميع النساء». «ما من شك فى وجود تفضيل عالمى للأبناء الذكور» هذا ما أضافته شتاينباتشر فى سياق شكواها حول حصر النساء كمواطنات من الدرجة الثانية فى حين ما زال الرجال يسيطرون على مناصب الهيمنة والنفوذ، وقالت أيضا (أعتقد أن النساء لابد أن يسألن أنفسهن «أين سيتوقف هذا؟» ما كانت للكثيرات منا كينونة فى الوقت الراهن إذا تم تنفيذ هذه الممارسات منذ سنين مضت).

من هو الرجل الآن؟..
يتصاعد اللغط...
«فى الحقيقة أنها هى الرجل»

يبلغ إريكسون Ericsson من العمر الآن ٧٤ عاماً وهو يضحك عندما أقرأ له بعض مقتطفات من أقوال خصومه القدامى «نادراً ما يكون سهلاً إثبات خطأ التنبؤات المؤلمة». فى التسعينيات عندما كان إريكسون يتفحص الحالات التى ترد إلى ما يقرب من ٢٤ من العيادات التى استخدمت طريقته اكتشف وكان هذا مثيراً لدهشته أن الأزواج يطلبون المزيد من الفتيات عن الأولاد وقد زادت الفجوة حتى بعد أن أعلن إريكسون أن هذه الطريقة فعالة أكثر لإنتاج الأولاد. ذكر إريكسون أن نسبة الطلب على الفتيات تتراوح من ٢-١ فى بعض العيادات ولكن مازالت بيانات الاقتراع على تفضيل جنس معين فى أمريكا متناثرة ولا تدل على تفضيل واضح للبنات. ولكن الصورة من مكتب الطبيب أكثر وضوحاً وتؤكد بدون لبس تفضيل البنات. يجرى الآن إتمام التجارب السريرية من حيث إدارة الغذاء والدواء وذلك من أجل إقرار طريقة جديدة لفصل الحيوانات المنوية إنها طريقة الميكروسورت أو التزاوج المجهرى Microsort يتراوح الطلب على الفتيات وفقاً لهذه الطريقة حول ٧٥٪.

أكثر الأشياء التى سببت إرباكاً لإريكسون هى أنه قد أصبح من الواضح أن اختيار جنس الجيل القادم قد أفلت من بين يديه وأنه لم يعد المهيمنThe Boss كما كان يقول. خاصة بعد أن زاد المتحدثون عن التغيير الذى أحدثته عملية الميكروسورت. يقول إريكسون «إن النساء هن من يقدن كل القرارات» ويضيف أن النساء اللائى ارتدن عيادته فى البداية كن يعتذرن بحياء عن رغبتهن فى فتاة مفسرات الأمر بمبرر أن لديهن بالفعل ولدين والآن يرين أن لهن الحق فى فتاة «أنا أتمنى

بترتيب مع:
The Atlantic

ترجمة: إيمان عبدالهادى الكيلانى

J. Howard Miller's "We Can Do It!" 1942, The picture later became associated with Rosie the Riveter[1]

نهاية الرجال

فتاة». إن هؤلاء الأمهات ينظرن إلى حيواتهن ويعتقدن بأن بناتهن سوف يجدن مستقبلاً باهراً لم يتوافر لأمهاتهن ولا لجداتهن إنه حتى مستقبل أكثر إبهاراً من مستقبل أبنائهن. ولذلك فلماذا لا تختار فتاة؟

لماذا لا تختار فتاة؟ Why Wouldn"t You Choose a Girl سؤال مثل هذا عندما يتم التلفظ به بشكل عرضى سواء من قبل إريكسون أو غيره حول ذلك الشأن فإن هذا يعد أمراً هائلاً. فتقريباً منذ تواجد الحضارة كان نظام المجتمع الأبوى بما يفرضه من حقوق للابن البكر هو النظام المبدئى السائد مع استثناءات قليلة. كان الرجال فى اليونان القديمة يقومون بربط الخصية اليسرى فى محاولة لإنجاب الورثة من الذكور وكانت النساء تنتحر أو تُقتل فى حالة فشلها فى إنجاب الذكور. فى كتابها الشهير «الجنس الثانى The Second Sex» ١٩٤٩ قالت الفرنسية سيمون دى بوفوار Simone de Beauvir «Feminine Condition» ولذلك ينظرن إلى بناتهن الوليدات نظرة توتر واشمئزاز. الآن بدأت النظرة التفضيلية للأبناء والتى امتدت لقرون فى الانحسار أو حتى الانعكاس. تقول إحدى النساء مبتهجة لمجلة كوكى Cookie Magazine «النساء من جيلنا يتمنين البنات على وجه التحديد لأننا نحب ما نحن عليه». حتى إريكسون العجوز الماجن العنيد يستطيع أن يتنفس الصعداء ويوقع على انتهاء حقبة من الزمن فيقول مجيبا «هل ما زالت هيمنة الذكور موجودة؟ بالطبع هى كانت موجودة ولكن يبدو أنها انتهت الآن وقد ولت تماماً مرحلة الابن البكر».

تعد الأسرة الممتدة لإريكسون مثالاً جيداً للتحولات السريعة واسعة المدى مثله مثل الآخرين. فحفيدته ذات الستة وعشرين ربيعاً وهى فارعة القامة، رشيقة، أكثر توهجاً من الجحيم، ولها شخصية منطلقة متخصصة فى الكيمياء الحيوية وتعمل فى التسلسل الجينى. لديه ابنة أخ درست الهندسة المدنية فى جامعة جنوب كاليفورنيا University of Southern California. يقول عن أحفاده الذكور إنهم يتميزون بالإشراق والوسامة ولكن كثيرا ما تزوغ أعينهم فى المدرسة. ويضيف قائلاً : يجب على أن أقول لهم «فقط لا تتصرف بحماقة وتهور فتحطم سيارتك البيك أب وتتسبب فى حمل فتاة وتخرب حياتك». كان إريكسون مؤخرا- يمزح مع الطلبة الكبار فى إحدى المدارس الابتدائية قائلاً إنه ينوى إجراء عملية تغيير للجنس». فالنساء يعشن أكثر من الرجال. وأداؤهن أفضل فى الاقتصاد. الكثير منهن جامعيات. يذهبن إلى الفضاء. ويفعلن كل ما يفعله الرجال بنفس الكفاءة بل أحياناً أفضل - ما أقصده بالجحيم هو الخروج عن الطريق- فهؤلاء النساء سوف يدفننا نحن الذكور تحت التراب».

منذ بزوغ فجر البشرية كانت السيادة لجنس الرجال. ولكن وللمرة الأولى فى تاريخ البشرية يحدث التغيير وبسرعة مذهلة. عادة ما تدعم التغيرات الثقافية والاقتصادية كل منهما الأخرى. يتطور الاقتصاد العالمى بطريقة تؤدى إلى تآكل التفضيل التاريخى للأطفال الذكور على مستوى العالم. على مدى قرون عديدة كانت كوريا الجنوبية South Korea على سبيل المثال تشكل واحداً من أكثر المجتمعات الأبوية صرامة على مستوى العالم. تعرضت الكثير من الزوجات اللائى فشلن فى إنجاب الورثة الذكور للتعذيب وتمت معاملتهن كخادمات فى المنازل. بعض العائلات كانت تصلى للأرواح من أجل قتل الأطفال البنات. تبنت الحكومة بعد ذلك فى السبعينيات والثمانينيات ثورة صناعية وشجعت النساء على الدخول فى سوق العمل. انتقلت المرأة إلى المدينة والتحقت بالجامعات. لقد تقدمن بسرعة من الوظائف المهنية إلى الوظائف الكتابية ثم إلى العمل الاحترافى. بعد فترة وجيزة بدأ النظام التقليدى فى الانهيار. فى عام ١٩٩٠ تم تنقيح قوانين الدولة مما أعطى للمرأة الحق فى الاحتفاظ بحضانتها للأطفال بعد الطلاق فضلاً عن حقها فى الإرث. فى عام ٢٠٠٥ صدر حكم المحكمة بإمكانية قيام المرأة بتسجيل الأطفال باسمها. بينما أعربت - مؤخراً فى ١٩٨٥ نصف النساء فى دراسة استقصائية وطنية عن رغبتهن فى إنجاب « ابن» فقد تناقصت هذه النسبة ببطء حتى عام ١٩٩١ ثم انخفضت بعد ذلك إلى ما يزيد قليلا على ١٥٪ بحلول عام ٢٠٠٣. لقد «انتهى» تفضيل الذكور فى كوريا الجنوبية تذكر ذلك مونيكا داس جوبتا Monica Das Gupta وهى خبير ديموجرافى مختصة بآسيا فى البنك الدولى World Bank. «لقد حدث ذلك بسرعة فائقة. من الصعب تصديق ذلك، ولكنه حدث». لقد بدأ نفس التحول يحدث فى الدول ذات التطور الصناعى السريع كالهند والصين.

إلى حد ما فإن الأسباب الكامنة وراء هذا التحول تعتبر واضحة وتتبلور حول تفوق التفكير والقدرة على التواصل على القوة البدنية والقدرة على التحمل كمفاتيح للنجاح الاقتصادى، فقد استطاعت تلك المجتمعات أن تحظى بميزة الاستفادة من مواهب كل البالغين لديها وليس نصفهم فقط كان لها السبق فى ذلك. وبسبب الجغرافيا السياسية وبسبب أن الثقافة العالمية معظمها- داروينية Darwinian «نسبة إلى تشالرز داروين صاحب المذهب الداروينى وهو مذهب يؤمن بأصل الأنواع/ المترجمة» - فقد حذت باقى المجتمعات حذو كوريا الجنوبية حين قضت على تهميش المرأة. فى عام ٢٠٠٦ طورت منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية The Organization for Economic Cooperation and Development قاعدة بيانات الجنس والمؤسسات والتنمية Gender" Institutions and Development Database والتى تقوم بقياس القوة الاقتصادية والسياسية للمرأة فى ١٦٢ دولة. باستثناءات قليلة تبين أنه « كلما زادت قوة المرأة زاد النجاح الاقتصادى للدولة». بدأت وكالات المعونة الاعتراف بهذه العلاقة ودفعت إلى وضع نظام الحصص السياسية فى مائة دولة مستهدفة فى الأساس الإجبار على إدخال النساء فى السلطة فى محاولة لتحسين وإنجاح هذه الدول. فى الدول التى مزقتها الحروب تقف النساء ويؤدين المهام كفريق من الأمهات المنقذات. منذ خمس سنوات مضت صورت إلين جونسون سيرليف Ellen Johnson Sirleaf رئيسة ليبيريا Liberia بلدها فى حملتها الانتخابية كطفل مريض يحتاج إلى رعايتها. فى رواندا ما بعد الإبادة الجماعية Postgenocide Rwanda كانت الانتخابات لصالح المرأة بهدف مداواة الدولة وأصبحت رواندا أول دولة ذات أغلبية نسائية فى البرلمان.

تشكل هذه التغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى الأوساط النسائية شكلاً بطيئاً وشاقاً من محاولات اللحاق بالركب فى خضم النضال من أجل المساواة للمرأة.

أما النساء فهن مبرمجات على إيجاد ممول لحياتهن وعلى حسن رعاية أطفالهن ويتجلى ذلك فى التغذية الأفضل والسلوك الأكثر مرونة، إنهن مائلات إلى الحياة العائلية بشكل قدرى غريزى وهذا التفكير يشكل إطار إحساسنا بالنظام الطبيعى للحياة. ولكن ماذا لو لم يلزم الرجال والنساء أنفسهم بالضرورات البيولوجية واستبدلوها بأدوار اجتماعية تستند إلى ما كان أكثر كفاءة خلال حقبة طويلة من التاريخ البشرى؟ وماذا لو وصلت تلك الحقبة إلى النهاية الآن؟ إلى حد أكثر دقة. ماذا لو كانت اقتصادات الحقبة الجديدة أكثر ملاءمة للمرأة؟

بمجرد أن تفتح عينيك على هذا الاحتمال سوف تجد الأدلة حولك. من الممكن أن تعثر عليها فى الحال داخل حطام الكساد الكبير حيث فقدت ثمانية ملايين وظيفة كان ثلاثة أرباعها عبارة عن وظائف مفقودة من قبل الرجال. كانت الصناعات الأكثر تضرراً هى الرجالية والتى كانت تتسم بكونها

هل ما زالت هيمنة الذكور موجودة؟ بالطبع هى كانت موجودة ولكن يبدو أنها انتهت الآن وقد ولت تماما

من بين ١٥ فئة وظيفية مخطط لها
أن تكون الأكثر نمواً فى الولايات المتحدة فى العقد القادم
سوف تشغل النساء ١٣ من هذه الوظائف

معتمدة على القوة العضلية مثل التشييد والبناء والتصنيع والتمويل عالى المستوى. سوف تعود بعض من هذه الوظائف ولكن النمط العام للاضطراب الذى حدث لا يعد مؤقتا ولا عشوائيا. ما قام به الكساد هو مجرد كشف للتحول الاقتصادى العميق الذى يحدث منذ ثلاثين عاماً على الأقل وقد يكون أكثر فى بعض النواحى إنه لم يكشفه فقط بل أدى إلى تسارعه.

لقد رجح الميزان- فى بدايات هذا العام وللمرة الأولى فى التاريخ الأمريكى- لصالح النساء اللائى يشغلن الآن معظم وظائف الدولة. النساء فى هذه الأيام يهيمن على الكليات والمدارس المهنية. فى مقابل حصول كل رجلين على درجة البكالوريوس هذا العام سوف تحصل ثلاث من النساء على نفس الدرجة. من بين ١٥ فئة وظيفية مخطط لها أن تكون الأكثر نمواً فى الولايات المتحدة فى العقد القادم سوف تشغل النساء ١٣ من هذه الوظائف بشكل مبدئى. فى حقيقة الأمر إن الاقتصاد الأمريكى بطريقة أو بأخرى سوف يكون داخل إطار حركة نسائية فقد غادرت نساء الطبقة العليا المنازل والتحقن بسوق العمل ليخلقن فرص عمل محلية أخرى لغيرها من النساء.

ما يبدو على اقتصاد ما بعد التصنيع أنه لا يكترث بحجم ولا قوة الرجال. فالسمات الأعلى قيمة اليوم هى الذكاء الاجتماعى والتواصل بحرية والقدرة على الجلوس بتركيز وانتباه ، هذه السمات ليست سائدة رجالياً ولكن العكس هو الصحيح. تتعلم النساء فى المناطق الفقيرة فى الهند اللغة الانجليزية بشكل أسرع من الرجال لمقابلة احتياجات مراكز الاتصال العالمية. تمتلك النساء أكثر من ٤٠٪ من حجم الأعمال الخاصة فى الصين، حيث أصبحت السيارة الفيرارى الحمراءRed Ferrari رمزا يشير إلى المكانة الجديدة لسيدات الأعمال. فى العام الماضى انتخبت ايسلنداIceland رئيسة الوزراء جوهاناJohanna Sigurdardottir كأول رئيسة مثلية معلنة على مستوى العالم، وهى التى قامت بحملة صريحة ضد النخبة من الذكور الذين زعمت أنهم قد دمروا النظام المصرفى للبلاد وقد أعلنت نهاية عصر التستوستيرون» The Age of Testosterone» التستوستيرون هو هرمون الذكورة/ المترجمة.

نعم ما تزال هناك فجوة فى الأجور فى الولايات المتحدة، فجوة يمكن تفسيرها ولو جزئيا وعلى الأقل- بالتمييز. نعم ما تزال المرأة تقوم بمعظم الرعاية للأطفال. نعم ما يزال الرجال يهيمنون على المراكز العليا فى المجتمع. ولكن قيامهم بمنح النساء القوة والأدوات الدافعة للاقتصاد يعطى شعورا بلحظات الاحتضار بدلاً من الإحساس بديمومة الحياة والاستمرار. العشرات من النساء اللائى أجريت معهن حوارا بشأن هذا المقال ذكرن أنه من الممكن جداً أن يذهبن إلى أعمالهن بينما يبقى الأزواج فى المنزل انتظارا لفرصة عمل أو لرعاية الأطفال. لقد أبدى لى أحد الرجال ملاحظته قائلاً: «إن الرجال هم كرة السلة الجديدة» قد يحدث هذا ببطء وبشكل غير متكافئ ولكنه يحدث- بدون أى مجال للخطأ- على المدى البعيد سيصبح الاقتصاد الحديث هو المكان الذى تمسك فيه المرأة بكل الكروت.

فى كتابه الأخير كتلة العزاب The Bachelors¨ Ball الصادر فى عام ٢٠٠٧ يصف عالم الاجتماع بيير بورديو Pierre Bourdieu ديناميكيات التغيرات بين الجنسين فى منطقة بيرن Bearn بالجنوب الغربى لفرنسا France حيث نشأته. فى بيرن كان الأبناء الأكبر سناً يتمتعون بمزايا الولاء الوراثى وميراث الأبناء وعلى مر العقود أدى تغيير القوى الاقتصادية إلى تحويل هذه المزايا إلى لعنات. فبالرغم من أن الأرض لم تعد تدر الدخل الذى كانت تدره من قبل إلا أن الرجال كانوا مجبرين على رعايتها. فى غضون ذلك تجنبت النساء العصريات حياة الريف وانجذبن بعيدا إلى حيث فرص العمل والمغامرة فى المدينة. ومن حين لآخر كانت النساء تعود إلى الحياة التقليدية فى الريف ولكن كان الرجال الذين ينتظرونهن قد فقدوا هيبتهم وأصبحوا غير صالحين للزواج منهن. الصورة التى طالما جالت بخاطرى طبقا لوصف بورديو فى كتابه كتلة العزاب هى رجال على وعى بتراجع وضعهم يقفون مكتوفى الأيدى بينما تتحرك النساء فى حرية وانطلاق.

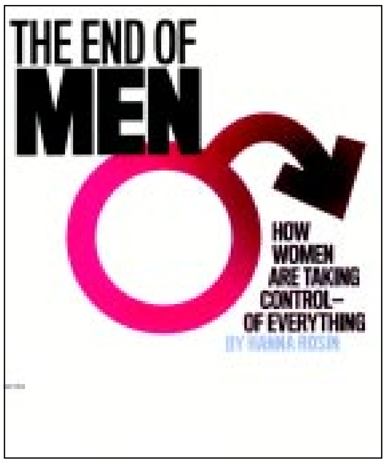

إن انعكاس الأدوار الجارى بين الرجال والنساء الأمريكيين يظهر بوضوح وبشكل أكثر إيلاما فى الطبقة العاملة. فى السنوات الأخيرة ظهرت مجموعات دعم الذكور فى جميع أنحاء منطقة «حزام الصدأ[٢] Rust Belt » والمناطق الأخرى حيث قام اقتصاد ما بعد التصنيع بقلب الأدوار العائلية رأساً على عقب. بعض المجموعات قدمت دعما للرجال لمواجهة البطالة، مجموعات أخرى ساعدتهم على معاودة التواصل مع أسرهم بعد حالة الانعزال عنهم. قاد مصطفى الصقرىMustafaa El-Scari وهو مدرس وعامل اجتماعى بعضا من هذه المجموعات فى مدينة كانساس Kansas City . قام الصقرى بدراسة اجتماعية للرجال والأولاد الذين يعيشون بلا هدف واعتبر أن هديته الخاصة لهم هى حملهم على الانفتاح والتفكير فى وضعهم الجديد. فى بدايات هذا العام وفى اليوم الذى قمت فيه بزيارته فى أحد فصوله كان يواجه مقاومة خاصة من الجماهير.

قليل من الرجال- نحو ثلاثين- يجلسون فى أحد فصول مدرسة بوسط مدينة كانساس جاءوا من أجل تبرعات خيرية لصالح الكبار. كانوا قد فشلوا فى دفع تأمينات أطفالهم وخيرهم القاضى بين السجن وبين حضور محاضرات أسبوعية حول «الأبوية» فاختاروا حضور المحاضرات كصفقة أفضل لهم. كان الدرس المقرر فى دفتر عمل هذا الأسبوع عنوانه «إطفاء ظمأ الأبQuenching the Father Thirst) كان مضمون هذا الدرس هو كتابة خطاب لابنة افتراضية مبعدة تبلغ من العمر أربعة عشر عاما وتدعى كريستال والتى تركها والدها عندما كانت طفلة رضيعة. كان للصقرى فكرته الخاصة حول الكيفية التى من خلالها يتم اقتحام هذه المجموعة المتشككة من الرجال الذين يفيقون بالكاد ولا تستطيع خطابات كريستال أن تفعل حيالهم أى شىء.

لقد نشأ مثلهم تماما- يذكر الصقرى موضحا كيف أنه نشأ وهو يشاهد رمزا مجازيا يدعى بيل كوسبىBill Cosby» رجل وامرأة وحفنة من الأطفال السعداء يقفون فى حمى سياج أبيضWhite Picket Fence»- «حسناً لقد انقرضت وتلاشت هذه الصورة تماما » هذا ما قاله الصقرى ثم استمر فى قراءته لورقة العمل » دعونا نرى ما هى الأنواع الأربعة للسلطة الأبوية؟ إنها الأخلاقية والعاطفية والاجتماعية والمادية. ولكنكم لم تعد لكم أى من هذه السلطات فى منازلكم. إن كل ما كنتم تمثلونه هو أنكم مجرد شيكات للدفع والآن فحتى هذا لم تعودوا تمثلونه. إذا حاول أى منكم ممارسة سلطاته فسوف تتصل «هى» بنمرة الإنقاذ «٩١١» . بماذا تشعر حيال هذا الوضع؟ من المفترض أنك صاحب السلطة ولكنها سوف تقول لك» اذهب خارج المنزل أيها «الساقطة» سوف تدعوك بالساقطة!

هؤلاء الرجال كانوا من البيض والسود وكانت أعمارهم تتراوح ما بين ٢٠- ٤٠ عاماً. كان يبدو على اثنين منهم أنهم قد قضوا

كان الرجال فى اليونان القديمة يربطون
الخصية اليسرى فى محاولة لإنجاب الذكور وكانت
النساء ينتحرن أو يُقتلن إذا فشلن فى ذلك

نهـــــــايةالـرجــــــال

ليلة أو اثنتين فى الشوارع والباقى كان يبدو عليهم أنهم يعملون أو معتادون العمل. الآن يضعون مشروباتهم بعد أن جذب الصقرى انتباههم بما يملكه من القليل من الفلسفة» من يفعل ماذا؟ «سألهم ثم أضاف» ما هو دورنا؟ الجميع يقولون لنا أنه من المفترض لنا أننا أرباب الأسر النووية، ولذلك فأنت تشعر بأنك قد تمت سرقتك. إنه وضع يجهزنا للفشل. كتب الصقرى على السبورة ٨٥٫٠٠٠ دولار وقال «هذا هو راتبها» بعد ذلك كتب ١٢٫٠٠٠ دولار وقال « هذا هو راتبك» من هذا الرجل التافه الحقير؟ من هو الرجل الآن؟.. يتصاعد اللغط «فى الحقيقة أنها هى الرجل».

استناداً إلى الرجال الذين تحدثت معهم بعد ذلك على ما يبدو أن الصقرى قد عزف على وتر حساس تماما لدى جمهوره. دارين هندرسون Darren Hendrson كان يعمل فى إحدى الصناعات المعدنية نظير ٣٣ دولارا فى الساعة حتى حدوث الأزمة العقارية حينئذ كانت خسارته فى فقد وظيفته. ثم فقد بيته ذى الطابقين- وهو يمثل جزءا من الحلم الأمريكى ثم فقد سيارته وأخيراً فقد عجز تماماً عن تأمين نفقات ابنته. فى الواقع، هو لم يتكاسل، بل بذل كل محاولة ممكنة. وكدليل على مجهوده فقد تقدم لبرنامج التشغيل الجديد للحصول على رخصة قيادة تجارية الا أن ذلك لم يفده فى ايجاد فرصة عمل. تحصل والدة طفلته على ٥٠٫٠٠٠ دولارا سنوياً نظير وظيفتها وتعد للحصول على درجة الماجستير فى العمل الاجتماعى. أما هو فقد وقع للتو للحصول على طوابع الغذاء والتى تعد تقريبا البرنامج الوحيد من برامج الرعاية الاجتماعية التى يستطيع الفرد الحصول عليها بسهولة. لقد رآته والدة طفلته مؤخرا منتظراً على محطة الأوتوبيس ونظرت إليه فى عينيه ثم أكملت القيادة ومضت.

كان الرجال فى هذه الغرفة بدون استثناء هم ضحايا نهاية مرحلة التصنيع. معظمهم واصلوا العمل بأيديهم بالرغم حتى من تناقص الطلب على العمل اليدوى. منذ عام ٢٠٠٠ فقد التصنيع حوالى ستة ملايين وظيفة أى ما يقرب من ثلثى القوى العاملة الإجمالية لديه. وأصبح يعتمد على قليل من العاملين الصغار. استطاعت مشروعات الإسكان الوهمية أن توارى هذا الواقع لفترة من الزمن حيث خلقت فرصا للعمل فى التشييد والصناعات المرتبطة به، العديد من الرجال الذين تحاورت معهم عملوا كهربائيين أو بنائين أحدهم أصبح وكيلا عقاريا ناجحا. الآن حتى هذه الوظائف ذهبت. أمضى هندرسون أيامه فى رحلات مكوكية بين مكاتب البطالة ومقابلات التوظيف متسائلا فى كل لحظة عما يمكن أن يفعله مع ابنته. فى عام ١٩٥٠ تقريبا كان هناك رجل من بين عشرين فى سن العمل مثل هندرسون لا يعمل. الآن زادت النسبة إلى ما يقرب من واحد من بين كل خمسة رجال وهو يعد أعلى معدل.

هناك خمس عشرة فئة من الوظائف المتوقع لها أن تكون الأكثر نموا فى العقد القادم. يسيطر الرجال على اثنين منها فقط. هما وظيفتا البواب ومهندس الكومبيوتر. تتمتع النساء بباقى الوظائف الأخرى كالتمريض والمساعدة الصحية المنزلية ورعاية الأطفال وإعداد الطعام. تقول هيزر باوشى Heather Boushy من مركز التقدم الأمريكى Center of American Progress «إن استبدال الأشياء التى اعتادت المرأة القيام بها مجانا بنوع من العمالة لا يعد عالى التكلفة قد أدى إلى تراكم أنواع من الوظائف تمثل إضافة إلى اقتصاد أكثر ملاءمة للنساء من الرجال.

إن قوائم الوظائف المتنامية قد تزايد فيها الثقل على نوعية الوظائف المرتبطة بالرعاية والتربية والتى استفادت منها المرأة للمفارقة بسبب الصور النمطية والعادات. نظريا لا يوجد أى سبب يجعل الرجال غير مؤهلين لهذه الوظائف ولكنهم أثبتوا بشكل ملحوظ عدم قدرتهم على التكيف. على مدى القرن الماضى دفعت الحركة النسوية المرأة للقيام بأعمال ضد طبيعتها فى البداية دخلت المرأة سوق العمل فى فترة ما قبل الزواج ثم واصلت العمل بعد الزواج ثم استمرت فى العمل حتى مع وجود أطفال صغار فى المنزل. إن العديد من المهن التى بدأت خاصة بالرجال أصبحت مليئة الآن فى معظمها بالنساء، يتبادر إلى الذهن الآن مهنة السكرتيرة والمدرسة. لقد حاولت كليات التمريض بشكل جاد إلحاق الرجال فى السنوات القليلة الماضية وحققت الحد الأدنى من النجاح. وكانت الكليات التربوية حريصة على إلحاق الذكور وإيجاد دور لهم للحصول على المدرس القدوة ولكنها مرت بوقت عصيب. لقد حدث تغير قليل نسبيا فى الأدوار الذكورية المقبولة لقد ضاق مدى هذه الأدوار بسبب خجل الرجال من بعض الوظائف التى احتلتها النساء مما جعلهم ينأون عنها. كما كتبت جيسيكا جروس Jessica Grose فى «الصخر Slate» يبدو على الرجال أنهم مقيدون بقيود ثقافية وبمرور كل يوم فإنهم يتراجعون خطوة إلى الوراء.

سوف تعود بعض الوظائف الذكورية التقليدية عندما نتعافى من الركود الكبير Great Recession – فى حالات الانكماش الاقتصادى يكون الرجال فى العادة أكثر تضررا من النساء لأن وظائف التشييد والتصنيع تعد أكثر انكماشا من الوظائف الخدمية ولكن ذلك لن يغير الاتجاه على المدى البعيد. يقول جيمى لادج Jamie Ladge أستاذ إدارة الأعمال بجامعة نورث إيسترن Northeastern University «عندما ننظر إلى الوراء إلى تلك الفترة سوف نرى أنها نقطة تحول للمرأة فى القوة العاملة».

إن تحول القوة الاقتصادية والثقافية من الرجال إلى النساء سوف يكون ملحوظا إلى حد كبير حتى لو لم يتجاوز حدود الطبقة العاملة فى أمريكا America. ولكن المرأة بدأت أيضا فى السيطرة على الإدارة الوسطى وعلى عدد مذهل من الوظائف المهنية فضلا عن ذلك. طبقا لإحصاءات مكتب العمل فى بيرو Bureau of Labor Statistics تشغل المرأة الآن ٥١٫٤ ٪ من الوظائف الإدارية والفنية لقد ارتفعت تلك النسبة التى كانت ٢٦٫١ ٪ فى عام ١٩٨٠ تشكل النساء ٥٤٪ من المحاسبين ويشغلن ما يقرب من نصف وظائف البنوك والتأمينات. حوالى ثلث الأطباء الأمريكيين الآن من النساء وكذلك ٤٥٪ من الأعضاء المنتسبين للشركات القانونية من النساء وكل من هاتين النسبتين فى ارتفاع سريع. إن اقتصاد الياقات البيضاء A White-Collar Economy يقيم القدرات الفكرية والتى يمتلكها الرجال والنساء بشكل متساو، إنه يتطلب أيضا مهارات الاتصال والذكاء الاجتماعى وهى مساحات قد أحرزت فيها المرأة – طبقا للعديد من الدراسات تفوقا طفيفا .ربما يكون الأكثر أهمية الآن هو حصول المرأة على شهادات التعليم المعتمدة رسميا والتى أصبحت النساء حريصات على اكتسابها فى سن البلوغ لفتح المزيد من الفرص. المهنة الوحيدة التى ما زالت تمثل فيها النساء أقلية صغيرة هى الهندسة وحتى فى هذا المجال فقد حققت المرأة مكاسب قوية منذ السبعينيات.

لقد تكيفت النساء مع العمل المكتبى بشكل متزايد ومطرد لفترة ثلاثين عاما أو أكثر مما نجم عنه إعادة تشكيله من قبلهن. يلتقط جويل جارو Joel Garreau هذه الظاهرة فى كتابه الصادر عام ١٩٩١ المدينة النائية Edge City والذى يستكشف فيه صعود الضواحى كموطن لمكاتب الأعمال فقد بدأت الشركات فى التحرك إلى خارج المدينة ليس فقط بحثا عن إيجار أقل ولكن أيضا بحثا عن عاملين أفضل تعليما وأكثر وعيا واستقرارا فى العمل. لقد عثروا على أفضل الكفاءات من بين الإناث غير العاملات من الطبقة المتوسطة التى تعيش على هامش المجتمعات الحضرية القديمة. عندما يعرض جارو الأحداث بتسلسلها الزمنى فإنه يؤكد على عام ١٩٧٨ باعتباره العام الذى انطلقت فيه شرارة مكاتب العمل فى الضواحى وباعتباره عام الذروة لاقتحام المرأة لسوق العمل. عندما أعد جارو قوائم متطلبات العمل كانت النساء لها الأفضلية على

يتطـــور الاقتصـــاد العــــالمى
بطريقـة تـؤدى إلـى تـآكل الـتـفـضيل الـتـاريخى
للأطفال الذكور على مستوى العالم

الأسباب الكامنة وراء هذا التحول تعتبر واضحة وتتبلور حول تفوق التفكير والقدرة على التواصل على القوة البدنية والقدرة على التحمل كمفاتيح للنجاح الاقتصادى

الرجال لما يتمتعن به من الذكاء والطاعة التى تجعل أصحاب الأعمال يثقون فيهن ويعتمدون عليهن. فى عام ١٩٩٩ صور فيلم فراغ فى المكتب Office Space حجم مشاعر الإحباط والغربة التى يمكن أن تسيطر على الرجال داخل العمل مما يجعلهم يشمئزون من وظائفهم ورؤسائهم. كان بيترPeterوزميلاه فى الفيلم يختلسون المال وينامون فى أوقات العمل. فى نهاية الفيلم قام زملاء العمل من الذكور بإحراق المكاتب وتخلى بيتر عن عمله المكتبى من أجل وظيفة كعامل بناء.

بالقرب من قمة الهرم الوظيفى تتمركز المسيرة التصاعدية للمرأة ومن أبرز الرؤساء التنفيذيين فى الماضى والحاضر- وهن قليلات إلى حد إمكانية إحصائهن ومعرفة أسمائهن بمجرد الاطلاع على صفحات الأعمال- هن ميج وايتمانMeg Whiteman فى eBay ، كارلى فيورينا Carly Fiorina فى Hewlett-Packard، آن ملكاهىAnne Mulkahy وأروسولا بيرنزUrsula Burns فى زيروكسXerox ، إيندراIndra Nooyi فى شركة Pepsi. الإنجاز غير العادى الذى يجب أن يؤخذ فى الاعتبار هو أن كلا من Whiteman ËFiorina تستخدمان وظائفهما كأساس للحملات السياسية. تقريبا ٣٪ فقط من مديرى شركة Fortune ٥٠٠ من النساء ولم يزد الرقم عن ذلك.

الآن وحتى مع تشكيل إطار هذه القضية فإنه من الواضح أن إمساك الرجال بالسلطة فى دوائر النخبة قد يتم التقليل منه. فى دوائر الأعمال يوصف النقص فى عدد النساء على القمة بنزيف العقولBrain Drain وأزمة الاحتفاظ بالمواهب Talent Retention وبالرغم من ندرة النساء كرؤساء تنفيذيين فى كبرى الشركات الأمريكية إلا أنهن يحققن أرباحا تفوق فى قيمتها ما يربحه نظراؤهن من الرجال.

وحتى حول المسائل الحساسة المتعلقة بالأمهات العاملات فإن طريقة الحوار قد تغيرت. ففى العام الماضى فى الحديث حول الرضاعة الطبيعية كنت أشكو من مسألة أن السنوات الأولى من تربية الطفل تعوق المرأة عن الاحتفاظ بمواقع السلطة. ولكن مفهوم كلمة الأمومة أخذ فى التحول البطىء إلى مفهوم آخر أكثر مرونة يرتبط بالحيادية بين الجنسين ويعكس التغيرات فى القوى العاملة. فبالنسبة لخريجى الجامعات من الجنسين فإن ترتيبات العمل المرنة توجد على رأس قائمة مطالب القوى العاملة وذلك طبقا لدراسة نشرت العام الماضى فى مجلة هارفارد بيزنس ريفيوHarvard Business Review وكانت الرغبات الأساسية للشركات هى اجتذاب العاملين الموهوبين والاحتفاظ بهم. بدأت شركة ديلويت Deloitte للاستشارات على سبيل المثال برنامجا يعتبر الآن من البرامج النموذجية يسمى التعديل المهنى للجماهيرMass Career Customization والذى يسمح للموظفين بتعديل ساعات عملهم طبقا للمرحلة الحياتية لهم. يقدم البرنامج شرحا للكيفية التى يتم بها حل تلك القضية المعقدة والتى قد لايمكن تصنيفها كقضية للمرأة فقط.

«تطرق النساء على باب القيادة فى اللحظة المناسبة عندما تتوافق مواهبهن بشكل جيد مع متطلبات اليوم» هذا هو ما كتبه دافيد جيرجنDavid Gergen فى مقدمة كتابه «القوة المستنيرة كيف يمكن للمرأة تغيير ممارسة القيادةEnlightened Power: How Women Are Transforming The Practice of Leadership» ولكن ما هى هذه المواهب؟ كان من المعتقد أن القادة يجب أن يكونوا عدوانيين وتنافسيين والحقيقة أن الرجال يمتلكون هاتين الصفتين بقوة وبشكل طبيعى. ولكن الأبحاث النفسية قد عقدت هذه الصورة. ففى الدراسات المعملية القائمة على محاكاة المواقف التفاوضية يقف الرجال والنساء على قدم المساواة فى المنافسة وان اختلفت الأسباب. فالرجال يميلون إلى إثبات أنفسهم عن طريق السيطرة على الأمور، ولهذا فائدته التفاوضية. ولكن فى الوقت ذاته تميل النساء إلى أخذ حقوق الآخرين فى الحسبان، ولهذا أيضا فائدته. كلا الأسلوبين له فعاليته. هذا ما كتبه عالما النفس أليس إيجلىAlice Eagly وليندا كارلىLinda Carli فى كتابهما «عبر المتاهة Through the Labyrinth» الصادر عام ٢٠٠٧.

على مر السنين كان الباحثون يبالغون أحيانا فى عرض الاختلافات بين الجنسين وكانوا يصفون المواهب المميزة للمرأة كمجرد صور نمطية مرتبطة بالنوع أو الجنس مثل أن النساء أكثر تعاطفا أو إنهن أفضل من يسعى إلى الاتفاق فى الآراء أو إنهن يتمتعن بتفكير جانبى أفضل وأن لديهن حساسية معنوية فائقة وقدرة تحمل فى عالم الأعمال الذى لا يرحم. فى التسعينيات كان ما يبدو فى هذا المجال الخاص بنظرية العمل النسائية أنه يقوى هذه الفكرة ولكن بعد الأزمة المالية الأخيرة أصبح لهذه الأفكار صدى أكبر.

إننا إلى الآن لا نعرف على التحديد ما إذا كان التستوستيرون يؤثر بشدة على صناعة القرارات فى مجال العمل. ولكن مفهوم قائد العمل المثالى قد بدأ فى التغير. أصبح النموذج القديم للقيادة والسيطرة- قائد واحد يمسك بيده كل سلطات صناعة القرار- يعد نموذجا ضيقا ومحدود التفكير. أما النموذج الجديد فهو ما يطلق عليه النموذج «ما بعد الملحمىPost heroic» أو «التحولى Transformational» . وفقا لما يقوله جيمس ماك جريجور بيرنزJames Mac Gregor Burns المؤرخ وخبير القيادة إن الهدف هو أن تتصرف وكأنك مدرب جيد، وأن توجه الكاريزما التى لديك لتحفز الآخرين على العمل الدؤوب الخلاق. لا يمثل هذا النموذج تعريفا واضحا للقيادة النسوية ولكن يعكس صدى أدبيا للاختلافات بين الذكور والإناث. على سبيل المثال يقوم أحد البرامج بكلية كولومبيا للأعمال بتدريس القيادة الحساسة والذكاء الاجتماعى متضمنا ذلك قراءة أفضل لتعبيرات الوجه ولغة الجسد. (حاولى تطوير أدائك الأنثوى نحن لا نقول ذلك صراحة ولكن فى الحقيقة إن هذا هو ما نحثهن عليه) هذا هو ما ذكره جيمى لادجJamie Ladge

فى عام ٢٠٠٨ حاولت إحدى الدراسات قياس تأثير هذا الأسلوب الإدارى الأكثر أنثوية. قام الباحثون فى كلية كولومبيا للأعمالColumbia Business School وجامعة مارى لاندUniversity of Maryland بتحليل بيانات عن أكبر ١٥٠٠ شركة أمريكية فى الفترة ما بين ١٩٩٢- ٢٠٠٦ لتحديد العلاقة بين أداء الشركات ومشاركة المرأة فى الإدارة العليا. كان أداء الشركات التى احتلت فيها النساء مناصب عليا أفضل. وكان هذا فى الشركات التى اتبعت نظاما أطلق عليه الباحثون «تكثيف الابتكار» والذى من خلاله يقولون أن «الإبداع والتعاون قد يكون لهما أهمية خاصة» وهذا يعد وصفا ملائما لاقتصاد المستقبل.

قد يكون الوضع هو أن النساء يعززن أداء الشركات وقد يكون الوضع أن الشركات ذات الأداء العالى لديها رفاهية وإمكانات تعيين النساء ذوات الكفاءة العالية والإبقاء عليهن. ولكن الاستنتاج الواضح هو أن الشركات الناجحة والمبدعة هى من تشجع المرأة. صنفت نفس دراسة كولومبيا مارى لاند الصناعات الأمريكية من خلال نسبة الشركات التى تعين النساء كمديرين تنفيذيين وكانت شركات بناء السفن والعقارات والفحم ومصانع الصلب والآلات فى آخر القائمة.

إذا كنت تريد أن تعرف إلى أين يتجه العالم فإن النظر إلى القوى العاملة حاليا يمكن أن يتيح لك ذلك. لكى تعرف مستقبل القوى العاملة اقتصاديا وثقافيا عليك أن تمضى بعض الوقت فى الكليات والمدارس المهنية الأمريكية حيث تجرى هناك ثورة هادئة. أصبحت الكليات- أكثر من أى وقت مضى- هى طريق النجاح الاقتصادى وشرط ضرورى للانتقال للطبقة فوق المتوسطة أو حتى إلى الطبقة المتوسطة. إنها الطبقة الوسطى الواسعة التى تميز مجتمعنا. إننا نستطيع أن نرى بوضوح شديد أن المرأة سوف تحتل السيادة تماما على تلك الطبقة

من الرائع أن نرى الفتيات يحققن النجاح مستقبلا ولكن أن نسمح للذكور بالنمو وهم يشعرون باللامبالاة فإن هذا لا يعد وصفة لمستقبل سلمى

نهاية الرجال

المتوسطة من حيث الجانب الديموجرافى.

لقد سمعنا جميعا عن الفجوة الجماعية بين الجنسين ولكن لم يتم بعد استيعاب تأثيرات تلك الفجوة. الآن حصلت النساء على ٦٠٪ من درجات الماجستير، ٤٢٪ من الدرجات العلمية فى الطب والقانون، و٦٠٪ من درجات البكالوريوس وهى الحد الأدنى الذى يتيح حياة رغدة أصبحت من نصيب النساء وفى تراجع صارخ منذ السبعينيات أصبحت احتمالات حصول الرجال على شهادة لا تزيد عن دبلوم المدارس الثانوية أكثر من النساء. يقول توم مورتينسونTom Mortenson وهو باحث متميز فى معهد بيل لدراسة فرص التعليم العالىPell Institute for Study of Opportunity in Higher Education قد يعتقد المرء أن الرجال يتحتم عليهم أن يتصرفوا بطريقة عقلانية ويحصلوا على التعليم الذى يحتاجونه للمضى قدما فى حياتهم ولكنهم فى الغالب يفشلون فى التكيف.

فى ربيع هذا العام قمت بزيارة إلى بعض المدارس فى جميع أنحاء مدينة كانساسKansas City لكى أتحسس الشعور حول ديناميكيات كلا الجنسين فيما يتعلق بالتعليم الأعلى. كانت بدايتى فى الحرم الجامعى لكلية ميتروبوليتان للمجتمع بوسط المدينةMetropolitan Community Collage. تعد ميتروبوليتان مكانا يذهب إليه الناس لكى يتعلموا مهارات العمل وليكونوا مجارين للتغيرات الحادثة فى الاقتصاد. وكما هو الحال فى معظم كليات المجتمع هذه الأيام كان غياب الرجال هو الأمر الواضح. فى فترة ما بعد الظهر فى أحد الأيام كنت فى الدور السفلى لأحد المقاهى وكانت هناك العديد من النساء المنهمكات فى الدراسة فى مادة الأحياء وفى نفس الوقت كانت معظمهن تتجاهلن رسائل المحمول القادمة من مربيات أطفالهن. امرأة واحدة فقط كانت فى رداء مساعد طبيب كان يبدو عليها الشعور بالإعياء للدرجة التى توحى بأنها على وشك الانهيار فى المصعد من جراء ضغط العمل.

عندما تولى برنارد فرانكلينBernard Franklin منصب رئيس الجامعة فى عام ٢٠٠٥ تأمل الوضع ثم أخبر موظفيه بأن أولوياتهم الجديدة هى توظيف «المزيد من الأولاد»، قام بتأسيس برامج توجيه للرجال ومجموعات للدراسة وجمعيات طلابية من الرجال فقط. لقد بذل مجهودا خاصا لكى يدعم الطلاب الذين أطلقوا عليه لقب «الملاذ» وهو يذكر أن هذا الأمر قد سبب إزعاجا لمعارفه من النساء. الآن وبعد سنوات قليلة فإن موجات المد النسائية ما زالت تكتسح المدارس فالفتيات يشكلن ٧٠٪ من الطلاب إنهن يأتين لكى يتدربن على مهن التمريض والتدريس. فالنساء الأمريكيات من أصل أفريقى يتعلمن برغم تجاوزهن للسن التقليدية لطلبة الكليات والطبقة العاملة من النساء البيض تأتى من الضواحى بهدف البحث عن وسائل لكسب الرزق فى حين يتخلف الكثير من الرجال عن التعليم ويأتون بالكثير من الأعذار والمبررات.

ربما يكون هناك انطباع بأن النساء يتجهن إلى الكليات المجتمعية بنسبة أكبر من الرجال- فى الواقع فإن هذا يشمل كل الكليات. تحصل النساء اللائى يتراوح أعمارهن بين ٢٥-٣٤ ولديهن شهادة دبلوم المدارس الثانوية فقط على متوسط دخل ٢٥,٤٧٤ دولارا بينما يحصل الرجال الذين يحملون نفس المؤهلات على ٣٢,٤٦٩دولارا. لقد اختفت تقريبا الوظائف التى توفر الكسب الجيد مدى الحياة فعلى سبيل المثال فى مدينة كانساس تحولت الصناعات من الحديد الصلب إلى الصناعات الصيدلانية وتكنولوجيا المعلومات. تقول جاكلين كينجJacqueline King من المجلس الأمريكى للتعليمAmerican Council on Education «إن الاقتصاد لم يعد بجانب الرجال كما كان من قبل». «قد تعتقدون أن الرجال والنساء يذهبون إلى هذه الكليات بنفس المعدلات ولكن هذا لا يحدث فى حقيقة الأمر».

فى عام ٢٠٠٥ أجرى فريق كينج دراسة على البالغين من ذوى الدخل المنخفض فى الكليات. يمر الرجال بوقت عصيب لكى يتمكنوا من الالتزام بالحياة الدراسية. إنهم يتمنون الانتظام فى الحياة الأكاديمية ولكنهم يشعرون بالضجر أو الخوف أحيانا من العمل الدراسى. لقد كانوا يشعرون بالعزلة والفشل فى اكتساب زملاء دراسة أو الانضمام إلى مجموعات دراسية أو حتى التعامل مع المستشارين لمساعدتهم على التكيف. تذهب الأمهات إلى المدرسة ويعتبرن أنفسهن قدوة لأطفالهن بينما يقلق الآباء من القيام بذلك لخوفهم أن يؤثر ذلك على مسئولياتهم عن اكتساب الرزق.

بدأت الفجوة بين الطلاب من الجنسين تشكل أزمة لبعض الناس فى أوساط التعليم العالى فى منتصف عام ٢٠٠٠ عندما بدأت تظهر آثارها ليس فقط فى الكليات المجتمعية أو كليات الفنون الليبرالية ولكن فى الجامعات العامة والرئيسية مثل UC" SUNY" UNC. تتجه جامعة ميسورى Missouri فى مدينة كانساس مثل الكثير من الجامعات إلى استحواذ النساء على الدراسة فيها، هى جامعة بحثية يزيد عدد الطلبة فيها عن ١٣ألف طالب تقريبا ٦٠٪ منهم من النساء وهذا من شأنه أن يغير الجو العام للدراسة وخاصة عند احتلال النساء لمناصب قيادية فى الجامعة. فى فبراير/ شباط قمت بزيارة لأشلى بيريز Ashley Burress رئيسة الهيئة الطلابية فىUMKC – مع ملاحظة أن رؤساء الهيئات الطلابية الحكومية الآخرين كانوا أيضا من النساء- كانت بيريز ذات الأربعة وعشرين ربيعا فتاة لطيفة أمريكية من أصل أفريقى تعد للدكتوراة فى الصيدلة وكانت لها نفس الشكوى التى استمعتها من الكثير من الفتيات وهى أن الفتيان يشعرون بالفخر ويحيون بعضهم البعض عندما يحصلون على تقدير «مقبول C» بينما تشعر الفتيات بخيبة أمل ويواسين أنفسهن عندما يحصلن على تقدير «جيدB» يلعب الأولاد ألعاب الفيديو فى غرفهم الخاصة بينما تتزاحم البنات فى قاعات الدراسة. تقول بيريز «فى عام ٢٠١٢ سوف أكون الدكتورة بيريز هل يمكن حينذاك أن أتعامل مع رجال لا يحملون حتى البكالوريوس، إننى أتمنى أن تكون لى علاقات ولكنى فى الواقع أضع نفسى داخل دائرة صغيرة حقا».

تعد مدرسة UMKC خاصة بالطبقة المتوسطة العاملة حيث لا تعد الأدوار التقليدية بين الجنسين شيئا بغيضا. ومع ذلك فقد أدركت- عندما تحدثت فى هذا الربيع مع الطلاب كم وكيف التحولات التى حدثت فى التوقعات بين الرجال والنساء. لقد قامت أمهات العديد من الطالبات بتكوين كيانهن الوظيفى فى وقت لاحق فى الحياة - أحيانا فيما بعد الطلاق- وبالطبع قدمن النصيحة لبناتهن بتكوين كيان وظيفى مبكرا.

فيكتوريا Victoria، ميتشيل Michelle، إيرين Erin ثلاث صديقات فى أحد الأندية النسائية. تعمل والدة فيكتوريا نادلة- نصف الوقت- فى أحد الفنادق. تدرس فيكتوريا علم الأحياء وتتمنى أن تكون طبيبة جراحة ولذلك تخطط للالتحاق بكلية الطب. لا ترغب فى الأطفال لفترة ما فى عمرها لأنها تعرف أنها ستكون مرتبطة بالعمل فى المستشفى بما لا يقل عن مائة ساعة أسبوعيا وحتى عندما يكون لديها أطفال فسوف تكون «هى» الطبيبة البارعة فى العمل وسوف يكون «هو» - أيا كان اسمه- فى المنزل يلاعب الأطفال.

ميتشيل تصف نفسها بالكمال ولديها خطة مرسومة بدقة لحياتها تتخصص فى علم النفس وتتمنى أن تكون معالجة أسرة بعد الدراسة فى الكلية سوف تتقدم إلى الدراسات العليا وتبدأ فى تدريب عملى إنها على دراية كاملة بمصادر الاستشارات المهنية فى الجامعة ولكن ماذا عن خطيبها؟

ميتشيل: لقد قام بتغيير تخصصه ما يقرب من ١٦ مرة.الأسبوع الماضى كان

تزايد عدد النساء غير القادرات
على العثور على رجال بنفس الدخل والتعليم
جعلهن يتخلين تماما عن فكرة الزواج

أصبحت صورة رجل مارلبورو للقوة غير معقولة حتى فى الإعلانات وأصبحت الصورة البديلة لها هى صورة الرجال المتقزمين فى إعلان Dodge Charger

يرغب فى تخصص طب الأسنان هذا الأسبوع غير تخصصه إلى العلوم البيئية.

إيرين: هل قام بالتغيير هذا الأسبوع مرة أخرى؟ عندما يكون لديكم أطفال بالتأكيد سوف يمكث فى المنزل. ماذا يريد أن يفعل بشكل جاد؟

ميتشيل: هذا يتوقف على أى يوم نحن فيه من أيام الأسبوع! إن الأمر بالفعل مضحك.

تختفى إلى حد كبير الفجوة بين الجنسين بين الطلاب الذين ينتمون إلى عائلات ذات دخل كبير. ولكن القصة ليست بهذه البساطة، يميل الطلاب الأغنياء إلى الالتحاق بمدارس النخبة الخاصة، هذه المدارس لها قواعدها الخاصة لقد قاموا بهدوء بفتح جبهة جديدة من العمل الإيجابى. فى عام ٢٠٠٣ أظهرت دراسة قام بها الاقتصاديانSandy Baum وEban Goodstein أنه من بين الكليات الانتقائية للفنون الليبرالية تزداد فرص قبول المتقدمين بنسبة تتراوح من ٥,٦٪- ٩٪ فى حال كونهم ذكورا. والآن فقد صوتت لجنة الولايات المتحدة للحقوق المدنية Commision on.S.U Civil Rights للتحقيق بشأن ما وصفه بعض الأكاديميين «بالسر المكشوف» حيث تقوم بعض المدارس الخاصة بالتمييز فى القبول من أجل الحفاظ على ما يعتبرونه توازنا ملائما بين الجنسين.

تقول Jennifer Delahunty المسئولة عن القبول والمنح المالية فى كلية كينيون فى ولاية أوهايو فى مقال لها بالنيويورك تايمز إن مشكلة التوازن بين الجنسين مازالت موجودة- كالفيل المحبوس فى غرفة ولم تذهب هذه المشكلة بعيدا. فالطالبات المتقدمات ينجحن فى إدارة شئونهن بأنفسهن ويتخطين المقابلات الشخصية ويقمن بزيارات ناجحة لأعضاء هيئة التدريس. ولكن لاحظت الكلية على العديد من الذكور جلوسهم فى المدرجات الخلفية مغمضى العيون منتظرين أوامر الأمهات بماذا يفعلون وأين يذهبون. أحيانا نقول « يا له من مقال جميل كتبته ماما» إنها تذكر ذلك بسخرية لا تخلو من مسحة حزن.

من أجل تفادى تجاوز- نسبة ٦٠٪ - البغيضة بدأ المسئولون عن الالتحاق بالجامعات يبتكرون لغة لتفسير عجز الذكور منها « عدم نضوج المخ واكتماله»، «عدم الوصول إلى ذروة النمو» وما إلى ذلك. وفى الوقت نفسه أصبحت Delahunty قلقة بشأن الإناث ذوات التعليم الفائق والذكور ذوى التعليم الناقص لقد تحول الوضع من نكتة إلى وضع خطر أشبه بالمؤامرة. لقد طلبت من أختها طبيبة الأطفال أن تساعدها فى تفسير الوضع» ربما يكون هؤلاء الأولاد مثل عصافير الكناريا المحبوسين داخل منجم فحم مما تسبب فى استنشاقهم للسموم والأشياء الضارة من البيئة مما تسبب فى تغيير الحمض النووىDNA لهم ربما يكونون مثل الضفادع الأكثر عرضة للتشويه من غيرهم».

من الواضح أن هناك نسبة من الأولاد يكونون غير متكيفين مع الالتحاق بالكليات خاصة فيما بين ١٨-٢٠ عاما، يمر الأولاد بوقت عصيب ليجدوا لأنفسهم مكانا هذه الأيام. «منذ أربعين أو ثلاثين سنة مضت إذا كنت واحدا من هؤلاء الذين لا يروق لهم التعليم فى المدارس الثانوية حينئذ كانت لديك قنوات من خلالها تستطيع الدخول إلى تيار الاقتصاد الرئيسى» يذكر ذلكHenry Farber الخبير الاقتصادى فى Princeton ويضيف « عندما تستيقظ كنت تجد حولك وظائف، كانت هناك العديد من الوظائف الصناعية الجيدة، كنت تستطيع أن تكون من ذوى الياقات الزرقاء وتصنع لنفسك كيانا وظيفيا جيدا الآن ولت تلك الوظائف».

منذ بدايات الثمانينيات اكتسحت النساء الكليات بينما كان التحاق الذكور يتم ببطء شديد. كانت الفوارق موجودة قبل مرحلة الكليات وانطلق الكتاب والباحثون فى تفسيراتهم لفشل الذكور فى التعليم بمراحله المختلفة وقاموا بتحديد الجناة فى هذه الواقعة. كان أولهم هو المفاهيم النسوية الخاطئة التى تتعامل مع الأولاد الطبيعيين مبدئيا على أنهم متحرشون Christina Hoff Sommers، الثانى هو اختلاف كيمياء المخ Michael Gurian، الثالث المناهج الشفهية التى تركز على أشياء لا تتطابق مع اهتمامات الذكورRichard Whitemire ولكن مرة أخرى فإنه ليس من الواضح حدوث أى نوع من التغيير بالنسبة للذكور الشىء الوحيد الواضح هو أن المدارس الآن مثلها مثل الاقتصاد أصبحت تعطى قيمة لضبط النفس والتركيز واللباقة فى الحديث والتى فى معظمها تكتسب بسهولة لدى الفتيات الشابات.

اقترح الباحثون العديد من الحلول. تتنامى الحركة لكى تغطى كل مدارس البنين وكذلك تحترم كل أنواع التعليم الفردى للأولاد. يعتقد البعض أن الأولاد لابد أن تكون لهم الحرية فى التحرك داخل الفصول أو أن يحصلوا على المزيد من الوقت فى الاختبارات أو أن يدرسوا فى كتب تتوافق مع اهتماماتهم. فى محاولة للتواصل مع الأولاد شكلت بعض الكليات فرقا لكرة القدم وتزامن ذلك مع البدء فى تدريس برامج هندسية. إن وضع الأولاد بالفعل يعد نذيرا بالخطر.

سواء تغير الأولاد أم لا، فقد تجاوزنا الوقت لبدء المحاولات والتجارب. من الرائع أن نرى الفتيات والشابات يحققن النجاح فى السنوات المقبلة ولكن أن نسمح لأجيال من الأولاد بالنمو وهم حاملين هذا الشعور باللامبالاة فإن هذا لا يعد بأية حال وصفة لمستقبل سلمى. لدى الرجال جماعات دعم طبيعية تفيدهم بقليل من الرعاية الاجتماعية، ولكن جماعات حقوق الرجال المتواجدة فى الولايات المتحدة تقف على شفا موجة من الغضب والمشاعر المعادية للمرأة. نظام الزواج على وشك الانهيار أو أن الزواج لا يحدث أصلا، الأطفال ينشأون بدون آباء. إن تعالى قوة المرأة يعد تهديدا أكثر من كونه أمرا يحتفى به.

لقد قفزت نسبة الأطفال المولودين خارج إطار الزواج إلى ٤٠٪ فى خلال السنوات القليلة الماضية

كيف يكون شكل المجتمع الذى تعتلى فيه المرأة القمة؟ نحن لدينا ملامح طفيفة. فلأول مرة يضم المجتمع الأمريكى فى الفئة العمرية من ٣٠-٤٤ سنة نساء جامعيات أكثر من عدد الرجال الجامعيين وقد تسببت آثار ذلك فى قلب ديناميكيات الحياة الأسرية رأسا على عقب. فى عام ١٩٧٠ كانت المرأة تساهم بما قيمته ٢٪-٦٪ من دخل الأسرة. الآن يبلغ الدخل الذى تأتى به الزوجة ٤٢,٢ ٪ وحوالى ٦ من بين كل ١٠ سيدات- معظمهن عازبات هن المعيل الأساسى لأسرهن. تقول هيزر بوشىHeather Boushy من مركز التقدم الأمريكى» إن السؤال حول مسئولية المرأة عن العمل لم يعد له موقع لأن النساء أصبحن بالفعل يعملن لقد تلاشت تماما فكرة أن يعمل الرجل وتبقى المرأة فى المنزل».

لقد تغير مفهوم الزواج بشكل جذرى منذ عام ١٩٧٠. أصبح دخل النساء هو المحدد الرئيسى الذى يحدد إمكانية صعود الأسرة على سلم الطبقات أم ركودها. كما أن تزايد عدد النساء- غير القادرات على العثور على رجال بنفس الدخل والتعليم جعلهن يتخلين تماما عن فكرة الزواج. فى عام ١٩٧٠ كانت ٨٤٪ من النساء فى الأعمار من ٣٠-٤٤ متزوجات. الآن ٦٠٪ فقط. فى عام ٢٠٠٧ كانت ٤٣٪ من النساء دون دبلوم المدارس الثانوية متزوجات. إن الخاسر الوحيد فى المجتمع الآن هو الرجل الذى حقق مكاسب اقتصادية طفيفة منذ السبعينيات وحتى الآن سواء كان هذا الرجل غنيا أم فقيرا ذا تعليم جامعى أم دون ذلك.

أمضت عالمة الاجتماع كاثرين إيدينKathreyn Edin خمس سنوات فى الحديث مع أمهات ذوات دخل منخفض فى الضواحى الداخلية لمدينة فيلادلفيا. ووجدت أن هذه الأحياء قد تحولت إلى النظام الأمومى الذى تكون فيه السلطة الكاملة للمرأة التى تملى على الرجال ما يجب أو لا يجب أن يفعلوه. إن ما كان غائبا عن نصيرات الحركة النسائية هو مدى القوة التى تكتسبها المرأة عندما لا تكون مرتبطة برباط الزواج.

تقول إيدين إن المرأة تصنع

نهاية الرجال

كل القرارات بدءا من إنجاب طفل وكيفية تربيته ومعيشته هو والأسرة إن المبدأ السائد لدى النساء هو «إما طريقى وإما الرحيل My Way or The High Way » (والمقصود هو فرض المرأة رأيها قسرا/ المترجمة). تقول إيدين منذ ثلاثين سنة مضت وطبقا للمعايير الثقافية حينذاك كان يستطيع الزوج أن يقول «حسنا.. اتبعينى إن استطعت» الآن فقد تغير الحال فالنساء بالرغم من احتياجهن الشديد لأب لأطفالهن فإنهن متشائمات حول إمكانية أن يحقق لهن الرجال توقعاتهن الأخرى. النساء لا يرغبن فيهم كأزواج وهم ليس لهم دخل ليقدموه لذلك فمافائدتهم إذن؟؟

تقول إيدين «لا شىء.. إنهم لا يملكون أى شىء. لقد تمت إبادة الرجال فى فترة ركود التسعينيات ولن تتحسن الأوضاع أبدا إن الوضع بغيض جدا». وتضيف أن هذا الوضع لا يشكل أبدا السعادة النسائية القصوى. كما أن ظاهرة الأطفال الذين يولدون لآباء غير متزوجين قد انتشرت فى الأحياء والضواحى الصغيرة والأرياف وما زالت فى التزايد والانتشار بعد أن مرت بفترة من الركود. لقد قفزت نسبة الأطفال المولودين خارج إطار الزواج إلى ٤٠٪ فى خلال السنوات القليلة الماضية. ومعظم الأمهات يكافحن من أجل المال وأكثرهن نجاحا من تعمل وتدرس وتفنى نفسها من أجل إطعام الأطفال وأخيرا تسقط فى نعاس فى مصعد الكلية التى تدرس بها. ومع ذلك فهى المسئولة. يقول W Bradford Wilox رئيس مشروع جامعة فيرجينيا الوطنى للزواج « إن التغيرات الأسرية فى العقود الأربعة الماضية كانت سيئة بالنسبة للرجال والأطفال ولكن ليس من الواضح أنها كانت كذلك بالنسبة للنساء».

اقترح الباحثون- على مر السنين نظريات مختلفة لتفسير تآكل الزواج فى الطبقات الدنيا منها ارتفاع تكاليف الحياة أو اختفاء فرص العمل وكذلك اختفاء الرجال القادرين على الزواج. ولكن تعتقد إيدين أن النظرية الأكثر إلحاحا هنا هى أن الزواج اختفى لأن النساء بدأن فى وضع الشروط وكانت هذه الشروط أعلى بكثير مما يستطيع الرجال حولهن تحقيقه. « كنت أتمنى فارس الاحلام الوسيم المغوار ذا الحصان الأبيض ولكنى لم أجد فيمن عرفتهم من الرجال من يرقى إلى هذا الفارس ولذلك فقد صنعت من نفسى المرأة والأم والأب والراعى والممول» هذا هو ما قالته إحدى النساء لإيدين. ما يبدو على مستقبل الدولة كلها إنه يتشابه مع حاضر الطبقات الدنيا من الأمريكان الأفريقيين حيث بدأت النساء يشببن عن الطوق ولكن لا يتبعهن الرجال. سوف تتبع النساء البيض من الجامعيات نظيراتهن من السود فى شكل جديد من الطبقة المتوسطة حيث تتزايد ندرة الزواج.

مثل الانقلاب الذى حدث فى النظام التقليدى فإن بوادر اضطراب عميق ظهرت فى أماكن أخرى غريبة. فاليابان تواجه حالة من الذعر الوطنى من جراء ظهور جماعة «العشبيين Herbivores» وهم مجموعة من الشباب المعارضين للصورة النمطية للرجل السكير المعتمد فى حياته على مرتب ثابت تلك الصورة الخاصة بآبائهم وبدلا من ذلك فإنهم يزرعون الحدائق وينظمون حفلات الشاى ويقلدون النساء بشكل تهكمى ساخر ويرفضون الجنس. إنهم يطلقون على الفتيات من نفس جيلهم فى اليابان اسم «آكلات اللحوم Carnivors» وأحيانا «الصائدات».

لقد أنتجت ثقافة البوب POP الأمريكية اختلافات لا نهاية لها حول الذكور، فنموذج الرجل العاطل الذى يواجه تحديات برغم رومانسيته ويكون دائما خاسرا أحيانا يتم تصويره فى شكل مراهق كبير كما فى فيلمى «عذراء فى الأربعين» و«Knocked Up» لجود أباتوس Judd Apatow، وقد يتم تصويره فى شكل قبيح معاد للإنسانية كما فى «جرينبرج» لنوح باومباخ Noah Baumbach» إن شخصية الرجل يمكن تصويرها بمذاقات مختلفة كالحلو والمر والحنون والساخر ولكن الشكل الوحيد الذى لا تجسده هو كيف يكون رجلا. يقول Ben Stiller أحد الشخصيات فى جرينبرج : نحن ننادى بعضنا البعض «يا رجل» ولكن هذا النداء لا يزيد عن كونه مزحة كتقليد للآخرين. فى الوقت نفسه فقد الروائى الأمريكى الذكورى الروح المعتادة التى تستخدم الجنس كوسيلة لإثبات الهيمنة الذكورية لشخصياته. تقول كاتى روفى Katie Roiphe فى مقالها «العارية والمصارع» إن النمط الجنسى الحالى يعد أكثر اقترابا من الطفولة فالبراءة تعد صيحة أحدث من الرجولة ومجرد العناق يعد أفضل من الجنس.

فى الوقت نفسه ظهر نوع جديد من النساء المسيطرات. نوع مثير للقلق وأحيانا للمخاوف كان ظهور الأسد الأفريقى Cougar كرمز مجازى للنساء العجائز اليائسات مجرد مزحة والآن فقد تحول إلى اتجاه سائد حتى فى هوليوود التى تعد موطنا لما يزيد عن خمسين منتجا من صانعى النجوم. تتخذ كل من سوزان ساراندون Susan Sarandon وديمى مور Demi Moore رفقاء من الشباب الصغار بهدف الترفيه ويطلقون عليهم لقب الولد اللعبة Boy Toy النجم آرون جونسون Aaron Johnson بطل فيلم «Kick- Ass» البالغ من العمر تسعة عشر عاما فخور بكونه الولد اللعبة للمرأة التى اكتشفته وهى تبلغ أربعة وعشرين عاما. مؤخرا كتب جيل كولينز Gail Collins الصحفى بالنيويورك تايمز عن ظاهرة الكوجار «الأسد الأفريقى» قائلا يبدو أن هذه الظاهرة لم تعد خاصة بالنساء اليائسات فقط بل هى أيضا للرجال الأمريكيين الشباب الذين يعتمدون على نساء أكبر منهم سنا وبالطبع يحصلن على المقابل.

الزواج اختفى لأن النساء بدأن فى وضع الشروط وكانت هذه الشروط أعلى بكثير مما يستطيع الرجال حولهن تحقيقه

يتضمن فيلم «عاليا فى الجو Up in the Air» خلفية من عهد الركود الاقتصادى وتسريح العمال والنقطة المحورية التى يركز عليها الفيلم هى تحطيم غرور الرجل الأمريكى. الشخصية الأساسية فى الفيلم يقوم بأدائها النجم جورج كلونى George Clooney هى شخصية رجل يعانى من فقدان جاذبيته فى عيون رفيقته الشابة بسبب فرق العمر وبعد ذلك يتم رفضه من قبل امرأة أكبر منه سنا بعد أن تبادلا الحب وكان السبب كونها متزوجة. جورج كلونى ! أكثر الرجال جاذبية فى الحياة يتم رفضه مرتين فى فيلم يؤدى فيه مشاهد حميمية ، إذا حدث هذا مع جورج كلونى فماذا يتبقى من أمل لغيره من الرجال؟

فى الحقيقة أنه كلما زادت هيمنة النساء زادت أنماطهن السلوكية فى التصرف كجنس مسيطر. لقد ارتفعت معدلات العنف التى ترتكبها النساء فى منتصف العمر منذ الثمانينيات ولا أحد يعرف السبب. نساء قتلة على مستوى عال من الاحتراف تظهر أخبارهن بشكل منتظم فى نشرات الأخبار. Amy Bishop أستاذة القتل فى الألاباما، Jihad Jane وصديقتها Jihad Jamie أحدث جيل من الأرامل السود Black Widows ومسئوليتهما عن التفجيرات الانتحارية فى روسيا. فى رواية Roman Polanski الكاتب الشبح The Ghost Writer تمت كتابة شخصية زوجة السياسى بشكل يصورها كقاتلة بدم بارد فى مؤامرة الشر. لقد أعادت الليدى جاجا Lady Gaga كتابة Thelma and Louise كقصة تدور ليس حول فكرة تمكين المرأة كموضوع بعيد المنال ولكن حول سلطة امرأة لا ترحم فبدلا من قتل أنفسهما فقد قامت هى وصديقتها بقتل صديقها Beyonce وغيره بشكل عشوائى فى موجة قتل ثم قامتا بالفرار فى شاحنة صغيرة هى سيارتهما البيك أب الصفراء ثم صاحت مفاخرة « لقد فعلناها يا نحلة العسل».

فى الوقت نفسه فقد أصبحت فيما يبدو صورة رجل مارلبورو الممثلة للرجل المتوحش أسد البرية بعيدة المنال وغير معقولة حتى فى الإعلانات وأصبحت الصورة البديلة لها هى صورة الرجال المتقزمين فى إعلان Dodge Charger التى تم بثها فى فبراير/ شباط هذا العام

في إطار المسابقات الرياضية. قد يعتقد المرء أن يوم الأحد الرياضي هو اليوم الأنسب لإقامة الاحتفالات السينمائية بالرجل مفتول العضلات، فالرجال في إعلانات المسابقات الرياضية يستطيعون رمى الكرات والدخول في سباق الدراجات النارية والقيام بكل ما يتخيلون إمكانية القيام به في حالة غياب النساء عن كبح جماحهم.

بدلا من رجل مارلبورو كانت الصورة لأربعة من الرجال يحدقون في الكاميرا متجهمين لا يتحركون فيما عدا قليل من الترنح الذى يعطى انطباعا بتعاطيهم للمهدئات، أو كما لو كانوا بالكاد يمنعون أنفسهم من الشجار. لا تتحرك شفاههم ولكن الأصوات الصادرة تكاد تعبر عن حالة الغضب والاحتقان المسيطرة عليهم. لقد تم إخراسهم من قبل أصحاب الأعمال والفاشيين والنساء. على وجه الخصوص النساء» سوف أضع مقعدى وأهدأ، سوف أكف عن الغضب وقد أحمل ملمع الشفاه الخاص بك» كل ما سبق يتم التعبير عنه بتعبيرات مكتومة باردة. يلمح الإعلان إلى حجم المشاعر المكبوتة والمحتقنة ضد المرأة وينتهى بصورة خيالية غير مقنعة للرجال وهم يقفون في جرأة مشيرين إلـ Dodge Charger وهو يتجه نحو الكاميرا معلنين شعارMan¨s Last Stand فمن أين جاءت هذه الجرأة لرجال يتسمون بالصمت والسلبية طوال العرض. إن الأمر المتوقع حقا هو أن نرى امرأة ذات شفاه لامعة وهى تقود هذا الوحش. ■

هوامش

(1) Rosie the Riveter is a cultural icon of the United States representing the six million women who worked in manufacturing plants which produced munitions and material during World War II while the men (who traditionally performed this work) were fighting in the pacific and European Theaters. This "character" is now considered a feminist and a herald of women's،icon in the US economic power to come.

(٢) حزام الصدأRust Belt هى منطقة في أجزاء من شمال وشرق الولايات المتحدة جاءت هذه التسمية عندما انخفض حجم الصناعة في السبعينيات في هذه المنطقة وعندما أغلقت المصانع، كانت محاطة ببوابات أصبح يعلوها الصدأ وزادت معدلات البطالة في هذه المنطقة./ المترجمة

هل من ضرورة للآباء

Are Fathers Necessary?

باميلا باول

Pamela Paul

■■ كيفما كان عنف وشدة وإيلام الصفعة التى تلقاها وغيره الكثيرون من جراء الركود الاقتصادى تلك الصفعة التى تسببت في تعثره وتضاؤل فعاليته فسيظل الرجل هو روح الأسرة وصاحب الدور الحاسم فيها وسيبقى مفاخرا بهذا الدور. هذا هو ما ألمح إليه باراك أوباماBarak Obama في سياق خطابه في عيد الأبFather,s Day في عام ٢٠٠٨ عندما أكد على حيوية دور الأب كأساس لكل أسرة. ما قاله أوباما عن الرجال أنهم هم المعلمون والمدربون والموجهون والقدوة وهم أمثلة النجاح كما أنهم يدفعوننا باستمرار إليه.

لا يعد أيا من هذه الأدوار مثار جدل خاص حتى في ظل الإحصاءات المتشائمة. أسهب أوباما في الحديث عن الأطفال الذين ينشأون بدون آباء فهؤلاء لديهم خمسة أضعاف من احتمالات ارتكابهم للجرائم ولديهم تسعة أضعاف من احتمالات التسرب من المدرسة ولديهم عشرون ضعفا من احتمالات الزج بهم في السجون. يعد أوباما- شديد التأثر بفقدان الوالد حالة استثنائية مبهرة في وسط فاقدى الأب ولكنه شديد الإحساس بهم. يستشهد أوباما بدراسة من أحدث الدراسات التى نالت قبولاً بشكل عام في حديثه عن الأطفال فاقدى الأب وما يتعرضون له من مشاكل متمثلة في عدم حصولهم على فترة كافية من الرضاعة الطبيعية وقابليتهم في أثناء نموهم لحدوث مشاكل نقص الانتباه أو فرط النشاط وعدم قدرتهم على تكوين علاقات مترابطة وافتقارهم إلى احترام الذات وتعرضهم للحوادث و أزمات الربو والسمنة المفرطة.

تتوق الأمهات من الحركة النسائية التحررية إلى عودة الأمور إلى نصابها ويتمنين مشاركة الرجال في عملية تربية وتنشئة الأطفال ويؤمن بصعوبة هذه العملية التى يسهلها الدور الثنائى المتبادل بين الأم والأب فالآباء لهم مزاياهم الفريدة.

إن المشكلة الوحيدة الموجودة في هذه الدراسة هى أن نتائجها ليست مثبتة. في عدد فبراير/ شباط من مجلة الزواج والأسرةJournal of Marriage and Family أكد كل من جوديث ستاسىJudith Stacey أستاذ الاجتماع في جامعة نيويورك New York University وتيموثى بيبلارزTimothy Biblarz وهو ديموجرافى من جامعة جنوب كاليفورنيا University of Southern California على أهمية دور الجنسين معا في تربية الأطفال. يشير كل من ستاسى و بيبلارز إلى أن أفكارنا حول الوالدين وما يقدمانه للأبناء تستند مبدئيا على الاختلافات الموجودة بين الوالدين المتزوجين أو النساء الفرادى وكذلك التوجه الجنسى والوضع العائلى ونوع الزواج من حيث كونه زواج المثليين أو المثليات أو زواج ذوى الميول الغيرية وأيضا وضع الزوج بمفرده أو الزوجة بمفردها. كل هذه عوامل تؤثر في تربية الأبناء ولكن معظم المعلومات المتوافرة تعجز عن التمييز بين الأب وبين ما يقدمه من ماديات وكذلك تعجز عن التمييز بين وجود الأب أو ووجود الوالد الثانى أيا كان جنس هذا الوالد.

طبقا لدراسات مقارنة موثوق بها يذهب مورفى براونMurphy Brown إلى أننا نستطيع القول بأن الأمهات العازبات يملن إلى المشاركة الأكثر مع أطفالهن, إنهن يضعن القواعد ويتواصلن معهم بشكل أفضل يتيح مزيدا من القرب من الأطفال وهذا لا يتم توافره مع الآباء العزاب الذين يجدون صعوبة في متابعة الأطفال وصداقاتهم وتطور أدائهم الدراسى. يؤدى أطفال الأمهات العازبات بشكل أفضل في الاختبارات القياسية ويحصلون على أعلى الدرجات. في الغالب يكون المراهقون من أبناء الأمهات العازبات أقل عرضة للانخراط في سلوكيات جانحة تستدعى العقاب بالمقارنة بهؤلاء من أبناء الآباء العزاب.

يدعى بيبلارز وستاسى أن الأهم حقا هو الكيفية التى يكون عليها الوالدان وليس نوع جنسهما ويذكران أن التحدى الأساسى لهذه الفكرة حول الأب الحقيقىThe Essential Father قد يكون هو الأمهات المثليات ويزعمان أن هؤلاء الأمهات يقضين وقتا مع أطفالهن أكثر من الآباء و إنهن قادرات على احتواء النزاعات بين الأطفال وأن الوضع أقل توترا مقارنة مع الأزواج مختلفى الجنس والمشاركة في تربية الأطفال تتم بانسجام وارتياح أكبر. يلمس أطفالهن تواجدهن ويعتمدون عليهن بشكل أكثر مما يتاح للأطفال من الأزواج مختلفى الجنس, وأطفال المثليات يناقشون المزيد من القضايا العاطفية مع « والدتيهم « وتكون مشاكلهم السلوكية أقل ويظهرون اهتماما أكثر بالدراسة ويبذلون المزيد من الجهد في المدرسة.

طبقا لادعاءات ستاسى وبيبلارز «يبدو أنه عندما تقوم اثنتان من النساء باختيار بعضهما البعض لتكونا والدتين فإنهما تقدمان جرعة مضاعفة من الطرق الأنثوية في ممارسة الوالدية» ويستنتجان طبقا لهذا الزعم « أنه يمكن الافتراض العلمى بأنه في المتوسط تكون امرأتان والدتين أفضل من امرأة ورجل أو على الأقل أفضل من امرأة ورجل بالتقسيم التقليدى للأدوار في الاسرة».

آه.. يبدو أن هناك نقد لاذع, فالجميع من أصحاب الاتجاه المعاكس يزمجرون. إن معظم ذوى الميول الجنسية الغيرية يحبون التقسيم التقليدى للأدوار. إن المتمسكات بحالة الوالدين مختلفى الجنس يقدمن عرضا مغريا للرجال» أيها الآباء إن كل ما تريدونه هو الشجار والصخب في البيوت, بينما سنظل نحن الأمهات حارسات لهذه البيوت وسوف نقوم بالباقى , وقد نعطى لكم بعض التعليمات التفصيلية التى نتوقع مبدئيا فشلكم في الالتزام بها» حتى النساء اللائى ينشدن المزيد من مشاركة أزواجهن في تربية الأطفال لا يردن أن يتخلين عن دورهن التقليدى ما سبق هو ما ذكرته ستيفانى كونتزStephanie Coomtz مديرة الأبحاث في مجلس العائلات المعاصرةCouncil on Contemporary Families .

فضلا عن تفضيلنا الواقعى لهذه الأدوار فإننا ما زلنا نعيش في ظل ثقافة لديها فكرة متأصلة عن ماهية دور الأب تلك الفكرة التى تقف خلفها الكثير من الأيادى المتشبثة بها رجالا ونساء وأطفالا.

الخبر السيئ للأب هو أنه على الرغم من هذا التصور العام إلا أنه بالفعل وبكل الموضوعية فإن دوره لم يعد حيويا. أما الخبر السار فهو أننا بالفعل قد تعودنا على تواجده. ■

رحيل مفكر شائك

عبدالله إبراهيم

■■ تلقيت نبأ وفاة الصديق المفكر محمد أركون بذهول وعجب، فلطالما عهدته حيويا فى حركته وأفكاره حتى اللحظات الأخيرة التى جمعتنا فى باريس أو الدوحة، وكنت أتابع مقالاته الفكرية العميقة إلى وقت قريب جدا من غيابه، ولعلها الرغبة القديمة الكامنة فى أعماقى قارئا له أن أبادر إلى دعوته إلى الدوحة أكثر من مرة، وقدمته فيها لجمهور مترقب لأفكاره النقدية الخلافية حول الظاهرة الإسلامية التى أمضى كثيرا من عمره فى تقليب صفحاتها محللا وناقدا. ومع أن لأركون شخصيته المهيبة، وأفكاره الصارمة، لكنه مرح وأليف وحيوى فى جلساته الخاصة، وإن نسيت، فلن أنسى دعوته لى للعشاء فى منزله فى باريس مع أدونيس حيث أمضينا شطرا طويلا من الليل فى حديث فكرى عميق حول رهانات الظاهرة الإسلامية المعاصرة. ثم سهراتنا المشتركة الطويلة فى مجالس نخبة من رجال قطر، كان من نتيجتها أن جرى الاهتمام به بما يستحق، وقد استقبل، وكرم، بوصفه مفكرا نقديا رائدا.

على أن الصلة الشخصية التى جمعتنا خلال السنوات الأخيرة لم تبعد عنى أبدا القيمة الفكرية التى صاغها لنفسه طوال أكثر من نصف قرن، وقد كتب عنها الكثير، وسيكتب عنها أكثر فى المستقبل، إنما عززتها بعد كل لقاء أو إثر قراءة كل كتاب جديد له، فقد أحدث أركون تغييرا حاسما فى موقف الفكر من الظاهرة الدينية التى كانت محورا ثابتا فى سجله الفكرى. وظل يقلّب وجوه الصلة بين الأديان السماوية الكبرى ومنها الإسلام للوصول إلى المشترك الأعلى فيها، وهو الديانة الإبراهيمية، فالمرجعية الإبراهيمية تمثل رأس المال الرمزى للعقائد السماوية، وهى اللحظة الكبرى التى انبثقت عنها التأملات الدينية اللاحقة. وفى كل هذا أراد أركون أن يزحزح سوء التفاهم بين الأديان، ويوقف التأثير السلبى للصور المتخاطئة التى تشكلها كل عقيدة عن غيرها، وهذه الخلفية صاغت مفهومه لحدود حرية التعبير، لكن أهميته الفكرية تكمن أيضا فى أمور أخرى كثيرة، منها أنه أبطل مفعول الاستشراق التقليدى فى دراسته للإسلام، واقترح منهج (الاسلاميات التطبيقية) وأجهز على الفكر المدرسى الضيق، وأفاد من منهج الأفكار الحديث إذ حلل الظاهرة الدينية عبر مستويات كثيرة، ونقد التعصب، والانغلاق، وفكك الجمود العقائدى، وأطلق مفاهيم مهمة مثل (اللامفكر فيه) و(المسكوت عنه) وبحثهما بالتفصيل فى الفكر الإسلامى. وبالإجمال فأركون من أبرز المستفيدين من كشوفات اللسانيات، وعلم الاجتماع فى مجال الدراسات الثقافية، ولعله أول من قدم نقدا للتفكير الخرافى المعارض للمعرفة، وبدد هيمنة الأسطورة فى العقل العربيالإسلامى، وقد دفع ثمنا كبيرا جراء سوء الفهم الذى تعرضت له أفكاره لأنه حفر فى المنطقة المجهولة، وذهب إلى الأصول.

وما يلفت الاهتمام فى التجربة الفكرية لأركون تأكيده أن الحداثة تجربة غربية ظهرت فى سياق الثقافة الغربية فى العصر الحديث، ومع أنه قدم نقدا جذريا لهذه الحداثة التى لم تنجز كثيرا من وعودها، فإنه دعا بقوة للإفادة منها، وبخاصة فى الطريقة التى مارس فيها العقل نقده للظواهر الاجتماعية والدينية. وربما يكون هذا الموقف النقدى هو الذى قاده إلى دراسة التجربة الثقافية الإسلامية حيث وقع صراع بين اللاهوتى والعقلى، وهو صراع استغرق قرونا من السجال والجدل، وقد انتصر للعقلانية، وربطها بالفكر الإنسانى الذى بلغ أعلى ذرى تجلياته فى القرن الرابع الهجرى.

من المعلوم أن أركون فرّق الظاهرة القرآنية والظاهرة الإسلامية، فالظاهرة الأولى هى القرآن والحاشية النبوية عليه، أما الثانية فهى التراث السجالى من تفاسير وشروح ولاهوت ومذاهب، وهو موروث ضخم جدا تراكم حول الكلام الإلهى المقدس، وإذا كنا فى عصرنا ملزمين بالظاهرة القرآنية، أى آخذين بالقرآن والحديث الصحيح، فقد أصبحنا، فيما انتهى أركون إليه، أقل حاجة للالتزام الكامل بالظاهرة الثانية، أى بالشروح القديمة التى أنتجتها العصور الماضية، وخلفها رجال مضوا، وآن الأوان لتجديد تصورنا للإسلام بالإفادة من علوم ومناهج عصرنا. وقد شكلت هذه الفكرة ركيزة مفهومه للعلمانية، فالعلمانية لا تهدف إلى تهديد الدين، واستبعاده، ومحوه، إنما، على العكس من ذلك، تسعى للحفاظ عليه كقوة روحية عليا وسامية موجهة للأخلاق العامة، وفى هذا بدد الغيوم الداكنة التى أحاطت بالعلمانية فى ثقافتنا الحديثة.

وقد أفضى تبحّر أركون الواسع فى الثقافة العربية الإسلامية إلى تركيز الاهتمام على العروبة الثقافية وليس العروبة العرقية، فاللغة العربية طوال قرون وقرون كانت وسيلة التعبير الأساسية للأفكار والعلوم، فقد كان يفكر بها ويكتب عدد كبير من الأقوام غير العربية، ولهذا تركت بصمات لا تمحى فى سائر ثقافات البحر المتوسط وفى أسيا وإفريقيا، فهى الغطاء الثقافى لكثير من الشعوب والأقوام، والهوية الدالة عليها. وفى كلمته الوافية التى ألقاها إثر نيله جائزة ابن رشد للفكر الحر عام ٢٠٠٣ قدم أركون مجملا لأفكاره، فقد رسم الإطار العام لها، وذكر معظم محطات حياته الفكرية، ثم توقف على ظاهرة العنف التى تعد أبرز ملامح زمننا، فقال: كأن العنف ظاهرة طارئة علينا، كأنها لم توجد فى جميع المجتمعات منذ بدء الخليقة، فالعنفُ بعدٌ مكوّن للحياة البشرية، بعدٌ عريقٌ بيولوجياً فى جسدنا، ونظامنا العصبى، وهو المغذّى الفكرى لأبنائنا الصغار فى المدارس، فلا يمكنهم الرد على معلمهم، وليس بمقدورهم التصريح أنه يعلمهم الجهل، والمعلّم مافتئ يقمع التلميذ،ويعلمه الجهل. ولا سبيل إلا أن نربى الأجيال الطالعة على تعرف علمى على ظاهرة العنف، فالعنف أصبح قيمةً سياسيةً لا مهرب منها. فالثورات التى عرفناها إثر الحرب العالمية الثانية فى سائر أنحاء العالم، بما فيها الثورات والحروب التحريرية قامت كلها على مفهوم العنف، وعلى هذا أصبح العنف يُنتج الأبطال، ويخلق الزعماء الذين يتولون قيادة الشعوب. والمجتمعات تعرف أن هذا العنف يتغير من كونه قيمة سياسية يفرضها التاريخ إلى قيمة أخلاقية، وإلى قيمة وطنية يأخذ بها الجميع، وتحتفل بها الشعوب. ■

الفكر الاسلامى: نقد واجتهاد

محمد اركون
دار الساقى ـ ٢٠٠٩
٣٤٠ صفحة

«مساهمة تجديد من محمد أركون فى مجال الفكر العربى والإسلامى، ركيزتها الفحص والنقد وسبر أغوار الحدث فى مساره التاريخى وعلى ضوء معطيات معاصرة.
تزداد أهميّة المحاولة حين يُنظر إليها من منظور ما نشهده الآن، حيث الاهتزاز والاضطراب والتساؤل.
الكتاب يضع المرويات فى مواجهة الصيغ النظرية للفكر الحديث هادفًا من ذلك إلى إنشاء رؤية نقدية فى ميادين العلوم الإنسانية، بما يتجاوز التفاسير المتداولة.
فالمطلوب، فى عرف الباحث، إعادة تحديد المفهوم الغربى ذاته بصفته فضاء تاريخيًا وثقافيًا. وإعادة التحديد تتعدّى المثال الإسلامى لكنّها، فى رأيه، تتمّ بفضل هذا المثال».

■

من منهاتن إلى بغداد: ما وراء الخير والشر

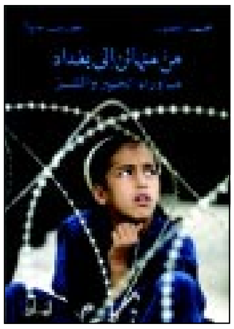

محمد اركون ـ جوزيف مايلا
دار الساقى ـ ٢٠٠٨
٢٨٠ صفحة

هذا الكتاب هو حوار بين مختصّين فى شؤون العالمين العربى والإسلامى، هما محمد أركون وجوزيف مايلا. ويرمى إلى تبيان معانى اعتداءات ١١ أيلول/سبتمبر، التى أيقظت الفوارق والاختلافات الكثيرة التى تباعد بين «الشرق» و«الغرب»، وأعادت إلى الأذهان سلسلة من التساؤلات التى لا تنتهى حول مستقبل الإسلام.
ويستعرض هذا الحوار. النقاش، مواجهة الدين مع الحداثة، والمسائل الجيو. سياسية التى تثيرها سياسة الولايات المتّحدة فى أفغانستان والعراق، ويحاول أن يحدّد وظيفة السياسة الأوروبية المطلوبة فى غمار هذه الأحداث.
ويسعى المفكّران إلى فهم أبعاد تحوّل الفكر الإسلامى عن مساره، ويسألان إن تمّ تجنيد الحركات الإسلامية وتوظيفها بقصد هذا التحوّل. ويدعوان إلى إعادة اكتشاف تاريخ الإسلام، وقراءته بلغة جديدة لا تغفل كمّ الأحداث الهائل الذى عصف بالعالم الإسلامى، وتسعى إلى انخراط الإسلام فى مسار التاريخ العالمى.

■

العرب والسياسة: اين الخلل؟

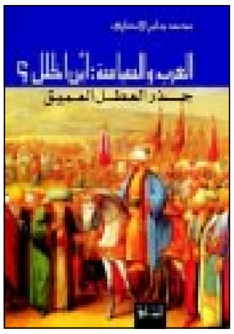

محمد اركون ومحمد جابر الانصارى
دار الساقى ـ ٢٠٠٠
صفحة ٢٣٩

على الرغم من التألق الروحى والعقلى للحضارة العربية الإسلامية فإن تاريخها السياسى يمثل أضعف عناصرها إطلاقًا.
فهى ظلت تعانى «فقر دم» سياسيًا فى التطبيق والنظم، منذ التأزّم المبكر للخلافة الراشدة إلى الإجهاض السياسى لمشروعات «النهوض» العربى فى عصرنا.
لقد ظلت «المثاليات» المؤدلجة تبشر المؤمنين بغد أفضل، غير أن الواقع المقيم بقى بأقوى نقض لها. كما لم يحدث ربما فى تاريخ أية أمة أخرى. ما عمق حالة الفصام بين اليوتوبيا والواقع المعيش للأمة.
وكلما اتسع الانفصام بين خدر الوعى وبؤس الواقع أمعنت اليوتوبيات فى ادعاء المثالية المستحيلة دون أن يمتدّ جسر للعبور بين الوعد والإنجاز، وبين النظرية والواقع.
وإلى يومنا تبدو الأمة العربية، بكل طاقاتها الهائلة، جسمًا عملاقًا برأس سياسى فى منتهى الصغر.
إنها ظاهرة التقزم السياسى المزمن لجسم عملاق؛ ولا بد من الاعتراف بأن الحالة بدأت قبل ظهور «الامبريالية» و«الصهيونية» بقرون، ولم تقتصر على أنظمة بعينها.
ولكى يستعيد العرب «قدرهم السياسي» بيدهم لا بد من «اختراق معرفي» لهذا الحاجز السياسى، وذلك ما يهدف إليه هذا الكتاب عبر معالجاته.

■

أين هو الفكر الإسلامى المعاصر؟

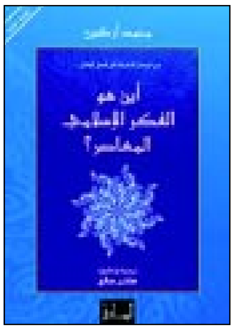

محمد اركون
دار الساقى ـ ٢٠٠٦ ـ ١٩٨ صفحة

يحاول محمد أركون، هنا، أن يثير من خلال العنوان ذكرى الغزالى وابن رشد. وهو يفعل ذلك عن قصد لكى يبيّن حجم الفارق بين جدية المناظرات الفكرية التى حصلت أثناء الفترة الكلاسيكية المبدعة من تاريخ العرب والإسلام، وبين الوضع المؤسف الذى تردّى إليه الفكر الإسلامى المعاصر. لكن أركون لا يثير ذكرى هذين المفكرين لكى يتوقف عندهما أو لكى يتبنى مواقفهما الفكرية ويطبقها على العصر الراهن: فهذا مستحيل. ذلك أن مناهجهما وأدواتهما المعرفية ورؤيتاهما أصبحت تنتمى إلى عصر آخر والفضاء العقلى القروسطى، لكن روحهما الفكرية القلقة والجادة فى البحث عن الحقيقة تبقى ملهمة لنا.
وهكذا يقدم لنا أركون مثالاً واضحا وعمليا على كيفية الاتصال بالماضى والانقطاع عنه فى الوقت ذاته. وهو فى هذا الكتاب يستخدم المنهجية التاريخية. الأنثربولوجية قبل أن يسمح لنفسه باستخلاص نتائج عامة أو حكم فلسفية. إنه يستخدم المنهجية المقارنة والمحسوسة التى ترفض أن تسجن الإسلام فى خصوصية ثبوتية وجوهرية تكاد تكون عنصرية، كما ترفض الرؤية «الأسطورية» أو الأيديولوجية التى يعيشها التقليديون عن الإسلام والتى تكاد تزيل عنه كل صبغة تاريخية.

■

الفكر الاصولى واستحالة التأصيل: نحو تاريخ آخر للفكر الاسلامى

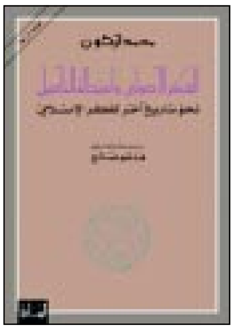

محمد اركون
دار الساقى ـ ٢٠٠٧ ـ ٣٥٢ صفحة

يطرح هذا الكتاب قضية تأصيل أنواع الخطابات والأحكام.
ويركّز على النقد المعرفى العميق لمفهوم التأصيل ذاته، كما مارسه العقل الدينى، وكما حلّله العقل الحديث فى آن.
ويعتبر أن ما كان يصلح للعصور الإسلامية الأولى لم يعد يصلح للعصور الحديثة، وما يُدعى حاليًا بالحركات الأصولية ليس فى الواقع تأصيليًا. فهذه الأخيرة اكتفت بالنضال السياسى أو الحركى دون أيّة إعادة نظر أو تأويل أو تجديد فى ذلك الفكر.
يتابع أركون فى هذا الكتاب عمله على قضايا التاريخ الإسلامى متسلّحًا بما توصلّت إليه فلسفة العلوم الحديثة. ويرى أن العمل على تأصيل الأصول بشكل مطلق يبقى مستحيلاً فى زمن لا يكفّ عن التغيّر والتغيير.

■

الاسلام، أوروبا، الغرب: رهانات المعنى وارادات الهيمنة

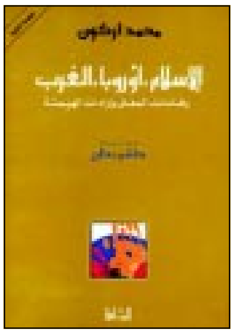

محمد اركون
دار الساقى ـ ٢٠٠١ ـ ٢٥٩ صفحة

هذا الكتاب عبارة عن حوار بين الإسلام والغرب من خلال رمز بارز للفكر التنويرى فى الفكر الإسلامى المعاصر (محمد أركون)، ورمز الحزب الليبرالى الهولندى (بولكستاين). إنه مقارعة حامية بين المواقع الفكرية للتراث الإسلامى، وبين أكثر القيم الغربية حداثة ورسوخًا: كالعلمنة، والحرية، والديموقراطية، والتعددية الدينية والسياسية، والعقل النقدى، وحقوق الإنسان، إلخ... ولا ريب فى أن هذا الحوار سوف يشغلنا طيلة العقود المقبلة، وربما تحوّل عن طابعه السياسى والعسكرى إلى طابع فكرى وسجالى. ذلك أننا نعيش الآن منعطفًا تاريخيًا حاسمًا قد يفتح صفحة جديدة فى علاقتنا مع الغرب عمومًا ومع أوروبا خصوصًا.
إن الأسئلة الأساسية التى يطرحها هذا الكتاب هى من نوع: هل يمكن إدخال العلمنة إلى ساحة الإسلام من خلال التفاعل الداخلى والصريح مع التجربة الثقافية والتاريخية للدين الإسلامي؟ بمعنى آخر: هل يمكن أسلمة العلمنة أو علمنة الإسلام؟ كيف يمكن أن نقيم المصالحة بين القيم الروحية والثقافية العالية للدين الإسلامى، وبين قيم الحداثة العالمية؟ وما هو هذا الإسلام الليبرالى الذى يتحدث عنه محمد أركون؟ وهل صحيح أن الإسلام ضد العلمنة جذريًا كما يتوهّم الغربيون والمسلمون التقليديون فى آن معًا؟

■

إصـــــــــــدارات جـــــــــــديـــدة

«تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.»

ســـاعات

المؤلف: جمال الغيطانى
القاهرة: دار الشروق ٢٠١٠, ١٨٨ صفحة

فى عام تسعة وستين من القرن الماضى، صدرت المجموعة الأولى لجمال الغيطانى «أوراق شاب عاش منذ ألف عام». لم تكن ميلاداً لكاتب كبير، مجدد، تمكّن من تحقيق خصوصيته فى فن القص منذ سن مبكرة، إنما كانت فتحاً جديداً لاتجاه جديد، ورؤية مغايرة للتعامل مع الموروث الأدبى. منذ ذلك الحين لم يكف الغيطانى عن التجريب، خلال رحلته الإبداعية التى تتجاوز نصف القرن الآن تطورت القصة القصيرة عنده، واتخذت آفاقاً عديدة. فى إبداعه ارتبط الخاص بالعام، ولاحت القضايا الكبرى التى تشغله مثل الحرية، العدالة، إدانة القهر، مع طرح الأسئلة الكبرى بين الثنايا. فى مجموعته «ساعات» التى كتب نصوصها خلال السنوات العشر الأخيرة، تبدو خلاصة التجربة والرؤية النافذة إلى جوهر الوجود، والوجود الإنسانى، وأشواق الروح. وحيرة الإنسان تجاه الزمان، حيث ترى البصيرة عمق الرؤى فى العادى المألوف. خاصة الزمن وما ينتج عنه الذى حيّر الغيطانى طوال رحلته الإبداعية وما زال.

■

ذاكرة الورق
ستون عامًا من تاريخ العراق الحديث فى يوميات

محمود خالص
وليد محمودخالص
المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ ٢٠١٠
١٧٠٠ صفحة

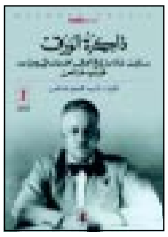

ذاكرة الورق ستون عامًا من تاريخ العراق الحديث فى يوميات محمود خالص «ويقول د. هذا الكتاب يوميات رجل أمضى فى القضاء العراقى قرابة أربعين سنة، متنقلاً بين مراتبه المختلفة، ومتجولاً فى مدن العراق من جنوبه إلى شماله، وهو، وإن كان منبعه شخصيًا، إلا أنه يفسح مجالاً رحبًا للنوازل الجسام، والتفاصيل الدقيقة التى مرت بالعراق والوطن العربى والعالم، تلك النوازل التى بدلت أنظمة وغيرت وجوها، كما قدمت التفاصيل لوحات من الحياة القضائية والاجتماعية والثقافية، التى كانت تلون المجتمع العراقى على مدى سنوات متعاقبة، فهو، بهذه الصورة التى هو عليها، سجل حافل بالأحداث والشخصيات والصور من منظور شخصى، لعل الإنصاف فيه هو أبهى آياته».

■

الخروج من ليوا يليه فى ديار الشحوح

أمجد ناصر
المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ ٢٠١٠
٢٩٨ صفحة

«ليس هدف هذه الرحلة أبعد من تقليب صور العادى فى نظر المقيمين فى المكان، فلن أكتشف أرضًا لم تطأها قدم من قبل، ولن أقطع البلاد طولاً وعرضاً على ظهر ناقة كما فعل رحالة أجانب فى فترة التحول من بيت سعف النخيل إلى بيت الباطون والحجر، ومن الجمل إلى سيارة الدفع الرباعى، ومن القلة فى كل شىء إلى وفرة حولت المكان معرضًا مفتوحاً لكل ما ينتج فى العالم.

لا، ليس هذا مقصد هذه الرحلة، أولاً: لأن المكان الظبيانى (والخليجى عموما)، الذى وصفه أولئك الرحالة الأجانب، لم يعد كما كان عليه، وثانيًا : لأن الفتنة بالصحراء والبداوة، عند بعض هؤلاء الرحالة، كانت ضربًا من «التطهر» من «أدران» الحضارة والمدينة، أو درسا أنثروبولوجيًا استشراقيًا، بينما البداوة، فى نظرى، مرحلة من مراحل التطور الاجتماعى والاقتصادى للمكان سواء أحببنا هذا التطور أم كرهناه.

هذا ما يقوله الشاعر والكاتب الأردنى أمجد ناصر فى كتابه هذا، حيث يأخذك بقلم شاعرى متمكن وعين يقظة فى رحلة فى الماضى (أبو ظبى) وحاضرها، وفى رؤوس الجبال مازجًا بين التاريخ والحاضر، المكان الأول والمدنية الحديثة، الاجتماعى والحس الشعرى بخلجات الرمل والأعشاب...

«الخروج من ليوا يليه فى ديار الشحوح» هو الكتاب الحائز على جائزة ابن بطوطة للأدب الجغرافى التى يمنحها الشاعر محمد السويدى لأفضل كتاب فى أدب الرحلة المعاصرة.

■

أسئلة الثقافة العربية وحرية التعبير

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بالتعاون مع مؤسسة عبد الحميد شومان
٢٠١٠ ـ ٣٢٤ صفحة

يضم هذا الكتاب عشرين ورقة تراوحت بين البحوث العلمية والنصوص المنسجمة التى أعدت لتكون محاضرات. لكنها جميعها تجسد رؤى كتابها لقضايا راهنة ملحة فى الثقافة العربية والحرية والابداع واللغة والنقد، وتقدم محاولات بينة للإجابة عن أسئلة مهمة فى هذا الاطار. ومن الجدير بالذكر أن هذه الاوراق رتبت ترتيبًا زمنيًا فى الأغلب الأعم، فهى تبدأ بآخر ورقة القيت فى المنتدى تليها التى سبقتها، وهكذا..

غير أن خيطًا ناظمًا واحدًا يجمعها، هو الثقافة العربية فى عصرنا هذا وما يتصل بها من أسئلة الحرية والابداع والعولمة والحوار ودور المثقف والتعليم والتربية ومواجهة التحديات والتغيير والخصوصية الإسلامية والتعايش والصراع والصدام والترجمة والشعبوية والنخبوية واللغة والأدب والنقد. ويمكن القول إن قسمًا من هذه الاوراق اعتمدت على تقرير التنمية البشرية (٢٠٠٢/ ٢٠٠٥).

شارك فى هذا الكتاب كل من: صلاح فضل، انطون سيف، حسين جمعة، عزمى طه، حسين المحادين، إبراهيم أبو هشهش، خالد الجبر، جابر عصفور، سالم سارى، على أومليل، فيصل دراج، خيرى الذهبى، سليمان عبد المنعم، خليل الشيخ، طلال عتريسى، ناصر الدين الأسد، فهمى هويدى، فاروق شوشة، فهمية شرف الدين، عبدالقادر الرباعى ومراجعة وتقديم خالد الجبر.

■

العرب بين الليبرالية والأصولية الدينية

شاكر النابلسى
المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت وعمان ـ ٢٠١٠
١٧٦ صفحة

(العرب بين الليبرالية والأصولية الدينية) هو الجزء الأول من ثلاثية (الليبرالية السعودية بين الوهم والحقيقة).. وسيصدر الجزءان الآخران تباعًا. ويحتوى هذا الكتاب على ثلاثة أبواب: الأول، بعنوان(فى الليبرالية والأصولية) ويتحدث عن مفهوم الليبرالية للأصولية، والعرب بين الليبرالية والأصولية الدينية، والحداثة بين الليبرالية والأصولية، والليبرالية والفكر النقدى، والليبرالية كمنهاج للحسم. وواجب الانتقال من ليبراليات الخاصة إلى الليبراليات الشعبية. والتعريف بوظيفة المثقف الليبرالى. وأن لا ليبرالية دون سلطان. ويتساءل: هل سيكون القرن ٢١ عصر الليبرالية؟ ويتحدث عن أثر الليبرالية عند أم كلثوم وطه حسين. أما الباب الثانى (فى العلمانية والدين والدولة والعلم) فيتساءل: هل العلمانية أداة لهدم الإسلام؟ ويقول أن فصل الدين عن الدولة.. هراء تردده البغاوات! ويتحدث عن دور السياسة فى خصومة العلم والدين. أما الباب الثالث (الليبرالية والأصولية فى مرآة الآخرين) فيخصصه النابلسى للآخرين من معارضين ومناصرين لإبداء وجهات نظرهم المختلفة فى الليبرالية، وذلك من أجل إغناء البحث، وتطبيق مقولة الليبرالية عن ضرورة الرأى والرأى الآخر.

ويقول النابلسى إن الليبرالية العربية تتقدم، رغم كل المصاعب. وهو ما يُعبِّر عنه فى مقدمة كتابه بقوله:

«إن لم يكن هناك من دليل ملموس على تقدم الليبراليين فى العالم العربى خلال الفترة السابقة، واكتسابهم لمزيد من المواقع والمنابر والأصوات، ودحضهم لفلول الأصوليين الإرهابيين فى كل مكان من الشرق الأوسط، غير ما يتعرّض له الليبراليون هذه الأيام، من هجوم إعلامى كاسح من قبل الجماعات الأصولية الإرهابية، ومن قبل الإعلام الأصولى الإرهابى الذى يروج لهذا الخطاب.

إصــــــــــدارات جــــــــــديــدة

وقد أهدى النابلسى كتابه إلى المفكر التنويرى الليبرالى السعودى إبراهيم البليهى.

■

اغتصاب وطن

المؤلف: فاروق جويدة
القاهرة: دار الشروق ٢٠١٠، ٢٢٨ صفحة

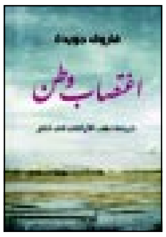

فى السنوات الأخيرة حدثت جريمة كبرى فى مصر بسبب التوزيع العشوائى للأراضى.. لقد تم توزيع ملايين الأفدنة على مجموعة من الأشخاص دون سند قانونى أو دستورى أو إنسانى.. ووجدنا الأراضى المصرية تسقط فريسة عمليات تخصيص غريبة كان من أخطر نتائجها ضياع ثروة مصر من الأراضى؛ وقد تناولت هذه القضية من جوانب كثيرة، ورصدت كل ما أحاط بها من القرارات والأخطاء والتجاوزات، وفى هذا «الكتاب الوثيقة» جمعت معظم ما كتبت حول استيلاء مجموعة من البشر على مساحات هائلة من الأراضى دون وجه حق..

إن اختلال منظومة العدالة الاجتماعية فى مصر كان نتيجة هذه الجريمة البشعة التى ارتكبها عدد من المسئولين ورجال الأعمال فى حق أجيالنا القادمة، ومثل هذه الجرائم لا تسقط بالتقادم، ولعل هذا الكتاب وما فيه من حقائق يكون وثيقة تاريخية كاملة الإدانة لمرحلة اختلت فيها منظومة العدالة وجعلت مجموعة من الأشخاص ينهبون ثروة شعب.. مثل هذه الجرائم لا تموت لأن الحساب قادم.

■

ألم يبق منهم أحد

مى مظفر
المؤسسة العربية للدراسات والنشر
الطبعة الأولى ـ ٢٠١٠
١٣٦ صفحة

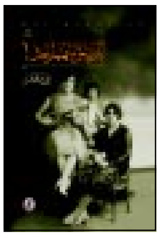

الكاتبة مى مظفر هى شاعرة وكاتبة عراقية مقيمة فى عمان!.

من أجواء هذه المجموعة القصصية: بغداد نائية جداً.. قريبة جداً. تكاد اليوم تتوارى وتصبح مجرد وهم. عشق سرى يضىء نوره الأعماق. أناسها رحلوا , أو هاجروا وتشتتوا تاركين أصداءهم تتردد خافتة بين حين وآخر. تخلوا مكرهين عن دورهم ونهرهم وأنماط حياتهم ليتحولوا فى أصقاع الأرض الى نبات بلاجذور. من جمرة هذا العشق ولدت قصص هذا الكتاب. إنها حكايات بغدادية كمنت طويلاً داخل ذاكرة مهملة. أناسها لم يصنعوا التاريخ الكبير , مع أنهم جوهر هذا التاريخ وأول ضحايا أحداثه الجسام. على قاماتهم ارتكزت المدينة ونهضت , وبغيابهم انحدرت وذوت كأنها ما كانت ولم تكن. ولكن , ألم يبق منهم أحد؟

■

الجريمة، الفن، وقاموس بغداد

على بدر
المؤسسة العربية للدراسات والنشر
٢٠١٠ ـ ٤٠٠ صفحة

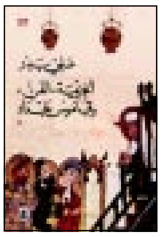

يصف الروائى العراقى على بدر المقيم الآن فى بروكسل اجواء روايته الجديدة بالقول:

بعد وصول الرسالة الثالثة والخمسين من رسائل أخوان الصفا على ظهر السفينة مراد مرسومة بريشة الرسام يحيى الواسطى، ينشب نزاع بين رؤساء الطائفة الخواجية وقضاة بغداد، وبعد وشاية تصل إلى القضاة، يحكم الوزير العباسى بالموت على رئيس الطائفة عماد الدين، وهو أحد أعضاء مثلث الحكمة الذى يتربع على رئاسة الطائفة مع الخواجة عباس والخواجة سنان، غير أن الخواجة عباس يتهم الخواجة سنان بهذه الوشاية فيرسل أحد أعضاء الطائفة من المشهورين بالولاء له وهو الخواجة نصر الدين لاغتيال الخواجة سنان، وفى طريقه إلى تنفيذ هذه الجريمة يستعيد الخواجة نصر الدين قصة الطائفة الخواجية وهى طائفة سرية نشأت فى السنوات الأخيرة من العصر العباسى، تؤمن بالفن والحكمة الأزلية وتستوحى أفكارها من السلسلة الذهبية للفيثاغوريين الإسلاميين مثل الفارابى وجابر بن حيان وثابت بن قرة، وتعتمد فى نظامها على قاموس بغداد وهو كتاب سرى موضوع فى صندوق من السفرجل المزخرف بالذهب والفضة، تعده هذه الطائفة أعظم تركة فى الحكمة والفن، لاحتوائه على أسرار بغداد وقصة بنائها. تستعيد هذه الرواية قصة المدارس والحركات السرية فى بغداد العباسية، مكتوبة بأسلوب يحاكى فن المنمنمات والزخرفة العربية الإسلامية.

■

البنكى مفككاً

رنده فاروق
قطاع الثقافة والتراث الوطنى فى مملكة البحرين
المؤسسة العربية للدراسات والنشر
الطبعة الأولى ـ ٢٠١٠ ـ ٤٢٤ صفحة

يضم الكتاب مقالات ودراسات مختارة للناقد البحرينى محمد أحمد البنكى .

يقول البنكى و إذا كان من غير الممكن لأى شعب من الشعوب أن يتوقف عن مناقشة تاريخه، فإن الظرف الحاضر الذى نعيشه يضع مسئولية كبرى على كل مقاربة لهذا التاريخ ترنو إلى جعل تدخلها تأويلاً منتجا وحوارا خصباً لالتماس العبرة والدرس. واستشراف الغد والمستقبل المتأمل العاقل يصغى لصوت الموضوعية ويلجم العواطف المتفلتة قدر المستطاع لأن تأويل التاريخ يحتمل النقد هنا أو هناك. والأشخاص الذين وجدوا على مسرح الأحداث بشر يخطئون ويصيبون. والأحداث والوقائع التاريخية حمالة أوجه وهى ما زالت - وستظل - بعيدة عن صدور الكلمة الأخيرة فيها ومن هنا نحتاج إلى الجرأة وسعة الصدر معاً من أجل الإقبال على التاريخ بأريحية مختلفة.

يقع الكتاب فى مجلد من القطع الكبير.

■

وحدها شجرة الرمان

تأليف : سنان أنطون
المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ ٢٠١٠ ـ ٢٨٠ صفحة

من اجواء الرواية نقرأ: «لا يكتفى الموت منى فى اليقظة، ويصر على أن يلاحقنى حتى فى منامى. ألا يكفى أننى أكد طوال النهار معتنياً بضيوفه الأبديين وبتحضيرهم للنوم فى أحضانه؟ هل يعاقبنى لأننى ظننت أننى كنت قادراً على الهرب من براثنه؟ لو كان أبى حياً لسخر منى ومن أفكارى وما كان سيسميه دلعاً لا يليق بالرجال. ألم يمض هو عقوداً طويلة فى مهنته يوماً بعد يوم دون أن يشتكى مرة من الموت؟ ولكن الموت فى تلك السنين كان مقلاً وخفراً بالمقارنة مع موت هذه الأيام الذى أدمن علينا حتى كأن هوساً قد أصابه. لكن قد يكون البشر - والرجال بالذات طبعاً - هم الذين أدمنوه حتى تسنى لهم أن ينادموه بلا رقيب ليل نهار! أكاد أسمع الموت يقول: أنا أنا , لم أتغير أبداً. لست إلا ساعى بريد. إذا كان الموت ساعى بريد فأنا واحد من الذين يتسلمون طوابع الموت ويجففها ويعطرها متمتماً بما لا يؤمن به تماماً ثم يلفها بعناية بالأبيض كى تصل بسلام إلى قارئها الأخير: القبر».

سنان أنطون: روائى وشاعر عراقى. ولد فى بغداد عام ١٩٦٧م. أصدر مجموعتين شعريتين ورواية «إعجام» ترجمت إلى الإنجليزية والألمانية والنرويجية والإيطالية والبرتغالية، وهذه روايته الثانية.

■

الخطاب الأشعرى

مساهمة فى دراسة العقل العربى الإسلامى
سعيد بن سعيد العلوى
منتدى المعارف ـ ٢٠١٠ ـ الطبعة الثانية
٣١١ صفحة

يسعى هذا الكتاب إلى الكشف عن الآليّات المعرفية التى تحكم الخطاب الأشعرى فى عصره الكلاسيكى، إذ أنه بالدرجة الأولى يساهم فى دراسة الثقافة العربية الإسلامية فى دائرة الفكر السنّى، فى العصر الوسيط الإسلامى وفى زمان مرجعى معلوم. كما يسعى إلى التعرف على التراث العربى الإسلامى.

إن هذا الكتاب، وبحكم المنهج الذى التزمه المؤلف فيه، لا يتوخّى التقويم وإصدار الأحكام ولا يسعى إلى المفاضلة بين رأى وآخر أو الانتصار لمذهب على آخر، وإنما يجتنب هذه الوجهة اجتناباً كليّاً عن طريق سلوك سبيل المواكبة بالرصد والتسجيل وتدوين ما يلزم من الملاحظات فى ذلك، بهدف عدم تجاوز هدف محدد ودقيق: وهو الوقوف، فى خطاب الأشاعرة، عند الثابت والقارّ، والوقوع على الكلّى والمشترك فى أقوالهم.

وحيث يبدو أن تعيين سبيل هذا المنهج يحتاج إلى مزيد بيان وخطته تستدعى مزيد توضيح، يبادر المؤلف فيشرح، بعض الشرح، ما يقصده فى هذا القول بمعانى: العصر الكلاسيكى، ومغزاه، والفكر السُّنّى، ثم الخطاب وكيف تحليله. فإذا حصلت هذه الغاية كان لموضوع الكتاب، وغائيته فى الوقت نفسه، أن يظهرا فى صورتهما الدقيقة.

■

إصـــــــــدارات جـــــــــديـــدة

كـــــــتــب فــرنـســـــيــة

Antoine et Isabelle

أنطوان وايزابيل

Vincent Borel Roman de:
Sabine.wespieser
2010

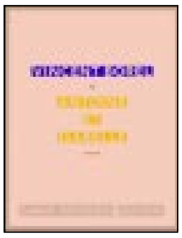

فى قراءتنا لهذه الرواية نشعر لأول وهلة ان كاتبها ينتمى لأربعينيات القرن الماضى ليس فقط لما تحمله من تجسيد حى لسنوات الحرب العالمية وما بعدها، ولكن أيضا لأن كاتبها فينسان بوريل الكاتب المعاصر الذى ولد عام ١٩٦٢ اختار لهذا النص شكلا كلاسيكيا حيث يتتابع الايقاع ببطء، والتتابع الزمنى التقليدى الواضح موجود على مدار فصول الرواية، بالاضافة الى وصف المشاهد بشكل تفصيلى مما يجعل تلك الرواية تنتمى شكلا الى حقبة أربعينيات القرن الماضى بكلاسيكيته الأدبية.

افتقد الأدب الفرنسى منذ أكثر من نصف قرن هذا النوع الأدبى.

لذلك كان اختيار الكاتب لرواية تحمل الشكل الفنى الكلاسيكى بآليات سرد ولغة معاصرين، اختيارا رائعا ولكن به الكثير من المخاطرة لصعوبة تلقى القارئ المعاصر له.

أهمية هذه الرواية الوثائقية تكمن فى اختلافها عن الطريقة التى يتناول بها الأدب القصصى الحديث مسألة الحرب بشكل عام.

حيث ان الروائيين الفرنسيين المعاصرين دائما ما يتناولون تلك المرحلة بالتلميح لها من خلال ذكريات الراوى، أو من ذكريات أحد الشخصيات ومن خلال تساؤلاتهم، مما يجعل الأحداث ذات طابع شخصى ونسبى ومما يضفى على النص فى بعض الأحيان طابع مجزأ وغير متماسك .

لكن فى هذا العمل وبرغم استحضار الكاتب مسار عائلتين من تلك الحقبة إلا أن موضوعه الأساسى هو الحرب ومنطقها، واعتمد بشكل أساسى على الحكى الموضوعى بلا أى علامة استفهام ودون أى تساؤل عن أسباب الحرب وكأنه مؤرخ أو راصد لتلك الفترة.

فلقد أصر الكاتب على مدار الرواية على إدخال الأحداث اليومية للشخصيات فى نسيج تلك الحقبة ليحافظ على تماسك النص وليحاول تقديم رؤية واضحة ومتجانسة عن القرن الماضى مما يعتبر طموحا نادرا فى الروايات الفرنسية المعاصرة.

لتجسيد هذا العصر اختار الكاتب أن يروى مصير عائلتين وجدتا بالفعل فى تلك الحقبة احداهن أسبانية لجأت الى فرنسا بعد هزيمة ١٩٣٦، وهى عائلة انطوان وايزابيل اللذان ظلا يكافحان ضد النازية حتى اعتقال انطوان فى أحد معسكرات النازى بالنمسا.

أما العائلة الأخرى وهى احدى العائلات الفرنسية المدانة بدعمها لهتلر أثناء الحرب بتوفيرها الموارد والغاز له فى معسكرات الإعتقال.

ومن خلال خيوط شديدة الدقة تتشابك أقدار الشخصيات المتباعدة بشكل كبير.

■

La guerre des cancers
Un lycee au Coeur de la Resistance

حرب المشاغبين
مدرسة فى قلب المقاومة

Bertrand matot
Preface de Patrick Modiano
Perrin
2010

فى أثناء الحرب العالمية وبعدها،كانت مدرسة ليسيه رولين نموذجا مصغرا لفرنسا ساهمت بطلابها فى الكثير من الحركات الفرنسية السياسية والثقافية والفنية على سبيل المثال فى مرحلة ما بعد الحرب تأسست حركة أدبية جديدة من خريجيها وطلابها تحت اسم «مجموعة شارع سان بنوا» وفى السينما نشأت منها حركة الموجة الجديدة ولكن مايركز عليه الكاتب برتراند ماتو هو مدى مشاركة طلاب وخريجى المدرسة فى المقاومة الفرنسية فى الحرب الأخيرة من خلال شهادات استثنائية وأرشيف موثق.

فإذا أردنا أن نطلق على هذا الكتاب عنوانا آخر فمن الممكن أن يكون «مائة وجه للمقاومة».

يستعرض الكاتب من خلال مجموعة كبيرة من البورتريهات كم الرجال والنساء الذين قاوموا ضد ألمانيا الهتلرية وايطاليا الموسولينية.

كما يلقى الضوء على خلفيات كل منهم ومرجعياتهم المختلفة تماما .

يتضمن الكتاب مائة سيرة شديدة الحيوية وشديدة التشويق،تتناول ليس فقط دوافعهم الحقيقية للمشاركة فى المقاومة أو شكل النموذج والمثال الذى تركوه ولكن أيضا تفاصيل معاركهم الجريئة فى المدن وفى صفوف فرنسا الحرة وفى جيش أفريقيا .

وجوه عديدة من المقاومة خصوصا الطلابية على سبيل المثال مارك بلوك، بيير بروسولت،جيرمان تيللون، وبالطبع من بينهم أشهر وجوه المقاومة الفرنسية شارل ديجول.

هذا الكتاب يعتبر ألبوم لحيوات يفتقدها الفرنسيون حيث انها شكلت التاريخ الفرنسى وهو لكل من يريد فهم تلك الصفحات البطولية من تاريخ فرنسا

■

insomnie des etoiles L

أرق النجوم

Marc Dugain
Gallimard
2010

«خريف ١٩٤٥، سيحتل الحلفاء برلين وباقى ألمانيا وحملة من الجنود الفرنسيين متوجهة إلى جنوب البلاد وبالقرب من المدينة التى يجب أن يحتلوا أحياءها، فتاة مراهقة تجذب انتباههم فماريا ذات الخمسة عشر عاما تعيش وحيدة فى مزرعة تبدو منفية عن باقى المدينة ليس لها رفيق سوى الخيول، ولكن قائد الحملة العسكرية يكتشف وجود جسد محروق لرجل لم يعد يستطيع تبرير أسباب جثته هنا، فيأمر بالقبض على الفتاة لانه استشعر أن هناك سرا أكبر وأكثر أهمية من كون هذا الرجل أصابته حادثة أو انه مجرد كارثة يومية من كوارث الحرب»

تحكى رواية أرق النجوم عن مدى فظاعة الحروب وما بها من جرائم ليست فقط قاسية ولكنها تمت بمنتهى البرود كمايصف الكاتب فى روايته فترة الحرب انها أفظع كابوس عاشته الأرض.

■

Purge

التطهـــــير

Sofi oksanen
Sebastien cagnoli
La cosmopolite
Stock
2010

رواية التطهير للكاتبة الفنلندية الإستونية صوفى أوكسانن هى الرواية الحاصلة على جائزة فناك للرواية عام ٢٠١٠

فى عام ١٩٩٢ انهار الاتحاد السوفيتى، واحتفل الشعب الاستونى برحيل الروس.

ولكن السيدة العجوز أليد لم تكن تعبأ إلا بخوفها من حالة الفوضى ومخاطر السلب والنهب وقررت الرجوع إلى بيتها الذى يقع فى الأرياف النائية.

عادت حيث وجدت امرأة شابة غريبة لم تشاهدها فى الجوار من قبل تبدو المرأة فى ضيق شديد وكما لو كانت فارة أو تم طردها من مكان ما .

تتردد أليد فى البداية فى أن تفتح لزارا بابها ثم تأخذ السيدتان فى التعارف على بعضهما البعض وسر ثقيل عند كل منهما سينكشف.

استخدمت صوفى أوكسانن التاريخ لتبنى تراجيديا عائلية ساحرة مفزعة فى بعض الأحيان كأفلام هيتشكوك.

تطرح الرواية تساؤلات عديدة عن الحياة تحت الاحتلال وثقل الاكراه والقيود،وعن أحكامنا على الخيانة أو بمعنى آخر التعاون مع المحتل.

كما تعرض الرواية لاستونيا من ١٩٣٩ الى عام ١٩٩٢ بشكل تاريخى وسياسى وجغرافى أيضا حيث إن استونيا تقع ما بين ألمانيا وروسيا .

■

Mourir de dire la honte

الموت بوحا بالعار

Boris Cyrulnik
Odile Jacob
2010

يحلل هذا الكتاب مفهوم شعورنا بالخجل أو العار فى بعض الأحيان حيث يفسر الكاتب إن الاحساس بالعار دائما ما يحدث بسب تصرف غير مقبول اجتماعيا أو غير لائق فى نظر المحيطين وفى نظر أنفسنا.

ويضيف أن هذا الاحساس يولد من المعانى والدلالات الموجودة فى سياقنا الثقافى وتاريخنا الشخصى فهو ليس شعورا نقيا وفطريا كالغضب والمتعة، انه احساس مركب ومختلط يسحقنا لانه يصورنا أمام أنفسنا كدودة حقيرة.

رغم ذلك فى الوقت ذاته يجعلنا هذا الشعور بالانسحاق نرى أنفسنا فى مرتبة أخلاقية أعلى لاننا لم نسحق أحدا ولكننا ضحية وفى أغلب الأحيان كوننا ضحية يجعلنا بشكل خفى نشعر بالتطهر.

يقول الكاتب : أعرف بعض المواد الكيمائية التى تجعلنا نشعر بالغضب دون أى سبب حقيقى وبعض المشروبات الكحولية التى تشعرنا بالسعادة والنشـــوة أيضـــا دون أى ســـبب حقيقى.

ولكن لم أرى أبدا أى شىء ينتج الشعور بالخجل أو العار لانه دائما ما يولد فى تقديم صورة عن أنفسنا.

يظهر أيضا فى «مسرحنا الشخصى» حيث نضع فى المشهد ما لا نستطيع قوله على الملأ.

هذا المسرح الشخصى للخجل هو موضوع كتاب بوريس كيريلنيك.

الخجل من كونك سعيدا من الحياة أو احساسك بالعار من كونك فقيرا للغاية خجلنا مما فعلناه أو مما لم نجرؤ على فعله.

عارا دائما ما يخبأ سرا ما.

كيف اذا يتحول مصيرنا من «مصير مسيطر علينا، إلى مصير خاضع لنا» كما يقول مالروا.

هذا ما يشرحه الكاتب من خلال بيولوجية العار مرورا بسيكولوجيته عند البدائيين الأوائل من الطفولة المبكرة إلى المراهقة فى الجوانب الجنسية والعائلية.

ثم ينتقل إلى شرح سيكولوجية الخجل والاحساس بالعار عند الناجين من المذابح والجرائم الجماعية.

يصاحبه دائما هذا التساؤل : كيف لا نسجن فى ردود أفعالنا العاطفية المتعددة التى تولد عند كل منا.

وكيف نجد الحرية والفخر بالذات مرة أخرى دون الوقوع فى «فخ غياب الخجل» الذى يعنى عدم اهتمامنا برأى الأخرين تماما لان غالبا هذا المفهوم يؤدى الى الأسوأ.

بوريس يعمل دكتور أمراض نفسية وعصبية ومدير التعليم فى جامعة «طولون وهو مؤلف للعديد من الأعمال التى حازت إعجابا واسعا.

■

economie ordinaire entre L songe et mensonges

الاقتصاد التقليدى بين الطموح والكذب

Gilbert rist
sciences po
Presses
2010

لماذا نخضع لحتميات الاقتصاد؟

هل الرؤية العالمية التى تطرح علينا هذا النظام واقعية بالفعل ؟

هل نستطيع أن نرى و ندرس ظاهرة الانتاج، والاستهلاك والتبادل بشكل مغاير؟

من منطلق تاريخى وانثربولوجى يتساءل هذا العمل عن مدى صحة فرضيات الاقتصاد التقليدى.

فيفترض الكاتب إن علم الاقتصاد الذى انتشر وبدأ تحديدا فى القرن التاسع عشر و الذى كان متوافقا مع تغيرات العلم والصناعة أنذاك نستطيع اعتباره اليوم انه عفى عليه الزمن.

كما يتساءل :

هل المكافحة ضد الندرة وسيطرة السوق وهاجس التضخم يؤدى فى الواقع الى الوفرة والرخاء أم الى التدهور العام؟

هذا الكتاب يطرح طريقة أخرى فى التعامل مع المجتمع ومشاكله وفى مواجهة مشاكلنا البيئية.

يلقى نظرة مختلفة على الأزمة الاقتصادية والمالية وأزمات الطاقة وكوارث نقص الغذاء التى تهدد العالم كما ينادى الكاتب ببناء نموذج اقتصادى مغاير.

■

Chine ou japon quel leader pour l'Asie

الصين واليابان و زعامة آسيا

Claude meyer
Sciences po
les presses
2010

عجلت الأزمة الاقتصادية الأخيرة بانتقال مركز الاقتصاد العالمى الى قارة أسيا، حيث اننا نستطيع فى عام ٢٠٣٠ أن نعتبر الصين واليابان والهند من الأربع دول الكبرى الأولى فى العالم.

يتنافس كل من بكين وطوكيو على الزعامة الاقتصادية فى منافسة غير متكافئة تماما.

حيث الصعود الذى لا يقاوم للصين الديناميكية، الغازية على حد تعبير الكاتب.

فى مقابل ذلك الانخفاض الحتمى لنجم اليابان التى بدأت تشيخ اقتصاديا مقارنة بالصين.

فى ضوء تلك الرؤية المستقبلية للاقتصاد العالمى، يحلل الكاتب بدقة شديدة شرعية حصول الصين واليابان علـى الســيادة الاقـتـصـاديـة والاستراتيجية فى آسيا، ثم يطرح سيناريو الزعامة الاقتصادية الذى يراه متوقع الحدوث فى خلال العشرين عام القادمة

يرى الكاتب ان تلك الدراسة هدفها الأساسى أن يحفز الأوروبيين غير المبالين على فتح مناقشة حول مستقبلهم الاقتصادى، أى حول مصير أوروبا وصناعاتها وحول دور جامعتها أيضا بطوكيو وبكين فى دراسة المستقبل الاقتصادى للمجتمع الأسيوى.

كلود ماير أستاذ اقتصاد دولى فى جامعة sciences po وفى خارج فرنسا باحث فى العلوم الاقتصادية عمل ببنوك يابانية وله عدة مقالات ودراسات عن الاقتصاد الأسيوى.

■

Les politique de la diversite Experiences anglaise et americaine

سياسات التعدد

تجارب إنجليزية وأمريكية

Emmanuelle le Texier ¨Olivier esteves ¨denis lacorne
Science po
les presses
2010

مهندس رأفت النشار

كيف يندمج المهاجرون الجدد فى المدن والأحياء سواء فى الولايات المتحدة الأمريكية أو المملكة المتحدة؟ أى إستقبال سيلاقونه من المواطنين الأصليين؟ ما هى التغييرات الملحوظة على المستوى المدنى والعرقى فى البلدين؟

انطلاقا من بعض الأفكار النقدية التى تخص البناء الاجتماعى للهويات العرقية والثقافية والدينية المختلفة يحاول هذا العمل الكشف عن أزمة تعدد ثقافات تظهر بشكل جلى فى الضغوط والاحتقانات اليومية بين الأغلبية والأقلية وأحيانا تظهر بشكل أعنف بين الأقليات المختلفة. أحيانا تكون مصحوبة بأعمال عنف مما يهدد الترابط الاجتماعى.

رغم ذلك، يرى البعض ان المثلين المحليين فى الأراضى الأمريكية والانجليزية قادران بشكل كبير على تخطى هذا الانقسام باتخاذ القرارات التى تدعم الصالح العام وبإيجاد طرق جديدة للخروج من الأزمة.

ترجع أهمية هذا الدراسة لانها تحمل بعض الحلول التى اتبعتها انجلترا وأمريكا لحل بعض الأزمات المشابهة لأزمات المجتمع الفرنسى الآن.

■

ليســــــت يهـــــــودية أو ألمانيـــــة

حجـــــاج أبوجـــبر

■■ ربما يكون أستاذنا عبد الوهاب المسيرى هو أول من فطن إلى أهمية كتاب الحداثة والهولوكوست لمؤلفه زيجمونت باومان. وتظهر أهمية باومان فى أنه مفكر يهودى أدرك أن إسرائيل تستغل الهولوكوست لإضفاء الشرعية على وجودها وجرائمها وأن الهولوكوست ليست مشكلة يهودية أو ألمانية، وأن الصهيونية وليدة الحداثة الغربية، وعندما طرد باومان من وطنه وجرد من جنسيته البولندية أثناء حملة شرسة ضد الشيوعيين والجماعات اليهودية، اضطر إلى السفر إلى إسرائيل، لكنه لم يستطع أن يمكث هناك أكثر من ثلاث سنوات لأنه اكتشف، كما تروى زوجته جانينا باومان، أن إسرائيل دولة قومية عنصرية. وظل يؤكد باومان فى حواراته النقدية أن خلفيته اليهودية تحددها بشكل كبير الفظائع التى ترتكبها إسرائيل، وهى جرائم وحشية تؤلمه ألمًا يفوق كل ألم تتسبب فيه فظائع الدول الأخرى. وعندما أراد المسيرى أن يطور نموذجه التفسيرى للحداثة الغربية من خلال الخطاب النقدى السوسيولوجى المعاصر، أفاد من أعمال باومان أيما إفادة، وأشار إليه فى أعماله، وامتدحه فى ثنايا سيرته الفكرية وفى ثنايا مجلدين عن«العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة". ناهيك عن الإشادة به فى مقدمة كتابه الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ، وكذلك إشارته فى قائمة مراجع هذا الكتاب إلى أهمية أعماله عن الحداثة فى تشكيل النماذج التفسيرية التى قدمها للقارئ العربى.

ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب عام ١٩٨٩، وصدرت منه حتى الآن إحدى عشرة طبعة. يقع كتاب الحداثة والهولوكوست لمؤلفه زيجمونت باومان فى سبعة فصول، إضافة إلى تمهيد وخاتمة. يخصص باومان التمهيد للتنديد بالاستغلال الإسرائيلى للهولوكوست لإحراز مكاسب سياسية، ويشير إلى انقسام المؤرخين الذين كتبوا عن الهولوكوست إلى معسكرين: معسكر المدرسة القصدية ومعسكر المدرسة الوظيفية. يصر أنصار المعسكر الأول على أن قتل اليهود من البداية كان قرار هتلر فى المقام الأول، ذلك القرار الذى لم يظهر للعيان إلا عندما سنحت الفرصة. أما أنصار المعسكر الثانى فيعتقدون بأن هتلر كان لديه فكرة عامة لإيجاد حل للمسألة اليهودية، لكنها كانت تتسم بالغموض والتخبط من حيث الخطوات العملية للتنفيذ. ومهما تكن النتيجة النهائية لذلك الجدل، فليس هناك مجال للشك فى أن الفجوة التى تفصل بين الفكرة وتنفيذها قد قامت البيروقراطية الحديثة بسدها. فمهما بلغ خيال هتلر من الحيوية، لم يكن لينجز إلا قليلا لولا أن تولى الجهاز البيروقراطى الضخم هذا الخيال وترجمته إلى عملية علمية عقلانية.

وفى كل فصل يستخدم باومان المنهج التفكيكى النقدى ويخرج على القوالب السائدة فى فهم الحداثة وعلاقتها بالهولوكوست. ويمثل الكتاب صدمة حقيقية للقارئ الغربى، وأيضا لدعاة التنوير فى العالم العربى، فهو يكشف الوجه الآخر للحداثة، ولاسيما وجهها القبيح الذى لازمها منذ نشأتها. بل إنه يوقظ المتشدقين بأفكار التنوير والعقلانية من سباتهم ويواجههم بحقيقة الهولوكوست، فهى ليست مجرد انجراف عن الصراط المستقيم الذى سارت عليه الحداثة، وإنما هى إمكانية كامنة ظهرت فى مجتمع الحداثة العقلانى التنويرى الذى يتسلح بالعلم والتكنولوجيا.

ولد باومان فى بولندا عام ١٩٢٥ لأسرة يهودية فقيرة اضطرت إلى الرحيل إلى روسيا عندما اجتاحت القوات الألمانية بولندا إبان الحرب العالمية الثانية، وبذلك نجا باومان وأسرته من معسكرات الاعتقال والإبادة النازية. وقد تشكل الوعى السياسى والفكرى لباومان فى فترة ما بعد الحرب عندما كان مدلول الشيوعية يشير إلى محاولة إعادة بناء ما دمرته الحرب والى مد يد العون لمن بطشت بهم الآلة العسكرية فى وارسو وغيرها من المدن. بيد أن باومان لم يستمر فى إنجاز هذا المشروع الإنسانى وبناء الدولة البولندية على الطريقة السوفيتية الشيوعية بعد تعرضه هو وبعض زملائه لضغوط سياسية وعنصرية أدت إلى حرمانهم من جنسيتهم البولندية وحرمانهم من حقهم فى التدريس بجامعة وارسو، وانتهت هذه الضغوط بطردهم من بولندا ورحيلهم أو ترحيلهم إلى إسرائيل. وهناك استقر باومان مع زوجته وابنته الكبرى التى كانت تحيا حياة مستقرة مع زوجها باسرائيل وتعمل أستاذة جامعية بإحدى جامعاتها. وخلال إقامته فى إسرائيل قام باومان بالتدريس بعدة جامعات فى حيفا وتل أبيب، لكنه قرر هو وزوجته الرحيل بعد ثلاث سنوات فقط، وقبل عرضا للتدريس بجامعة ليدز فى بريطانيا لأنه أيقن أنه ضحية دولة قومية عضوية عنصرية، ولم يرد أن يقترف الجرم ذاته فى دولة قومية عضوية عنصرية أخرى. وهذا ما أفصحت عنه زوجته جانينا باومان عندما قالت: «لقد كانت اسرائيل دولة تحكمها العصبية القومية، وها نحن قد فررنا توا من القومية، ولذا لم نرض أن نتحول من ضحايا دولة قومية إلى من يقترف الجرم ذاته فى دولة قومية أخرى».

وقد نال باومان عن كتاب الحداثة والهولوكوست جائزة أمالفى الأوروبية فى علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية، وكان لهذه الجائزة صدى واسع لأنها لفتت الأنظار إلى أعماله، وربما كانت سببا أيضا فى فوزه بجائزة تيودور أدورنو عام١٩٩٨ . ويرجع الفضل إلى جانينا باومان فى ظهور هذا الكتاب إلى الوجود لأنها كتبت مذكراتها فى مجلدين، وأصدرت المجلد الأول عام ١٩٨٥ بعنوان الشتاء فى الصباح: حياة فتاة فى جيتو وارسو و ما بعده،١٩٣٩ـ ١٩٤٥ ، وفى هذا المجلد عرضت جانينا الأعمال الوحشية التى تعرضت لها أسرتها والجماعات اليهودية فى جيتو وارسو، مؤكدة أن افتقار السياسة للبعد الاخلاقى يغرق الحضارة الانسانية فى مستنقع البراجماتية النفعية، ولاسيما إذا لم يعد يؤمن الانسان بمرجعية دينية متجاوزة أو الأسس الأخلاقية للعمل السياسى. هذا ما دفع باومان إلى دراسة الهولوكوست حتى توصل إلى حقيقة ظل العالم الغربى يتجاهلها، حيث رفض التعامل مع الهولوكوست على أنها مسألة يهودية أو خطيئة ألمانية.

يعد الفصل الأول مقدمة لأطروحة المؤلف، وهو يقع تحت عنوان «مقدمة: علم الاجتماع بعد الهولوكوست»، وفيه يكشف المؤلف عن أوجه القصور التى تعترى الدراسات السوسيولوجية التى تعالج الهولوكوست، ويقرر أن يتناول الهولوكوست بوصفها اختبارا نادرا، وأيضا هاما وموثوقا به، للإمكانات الخفية للمجتمع الحديث.

ويذهب باومان إلى أن الهولوكوست لم تتعارض فى أى مرحلة من مراحل تنفيذها مع مبادئ العقلانية والحداثة. فالثقافة البيروقراطية الحديثة هى التى تدفعنا إلى أن نرى المجتمع بوصفه مجالا للإرادة، ومجموعة من المشكلات المتعددة التى لابد من إيجاد حلول لها، أو بوصفه طبيعة جامدة لابد من السيطرة عليها والتحكم فيها وتطويرها أو إعادة تشكيلها، وبشكل عام بوصفه بستانا لابد من تصميمه والحفاظ على جماله وانسجامه ولو بالقوة والعنف. ولا يتردد باومان فى مخاطبة القارئ الغربى ومواجهته بما لا يرضى من القول عن الحداثة والتنوير ، يقول باومان فى الفصل الأول من هذا الكتاب:

«إن الروع الكامن فى ضميرنا والمتغلغل فى ذاكرتنا الجمعية بشأن الهولوكوست ..هو الظن المؤنب بأن الهولوكوست يمكن أن تكون أكبر من مجرد شذوذ، أكبر من مجرد انحراف عن الطريق المستقيم للتقدم، أكبر من مجرد ورم سرطانى فى الجسم السليم للمجتمع المتحضر، أى أن نقول، وباختصار، أن الهولوكوست ليست نقيضا للحضارة الحديثة وكل شىء يرمز اليها (أو نعتقد نحن أنه يرمز إليها). إننا نخشى (حتى ولو رفضنا الاعتراف بذلك) أن تكون الهولوكوست قد استطاعت أن تكشف وجها آخر لنفس المجتمع الحديث الذى يروقنا وجهه المألوف. ونخشى أن يكون الوجهان ملتصقين على أكمل وجه بنفس الجسم. ولعل أشد ما نخشاه هو أن أحد الوجهين لا يستطيع أن يوجد دون الآخر تماما مثل وجهى العملة».

يقع الفصل الثانى تحت عنوان «الحداثة والعنصرية والإبادة(١)، وفيه

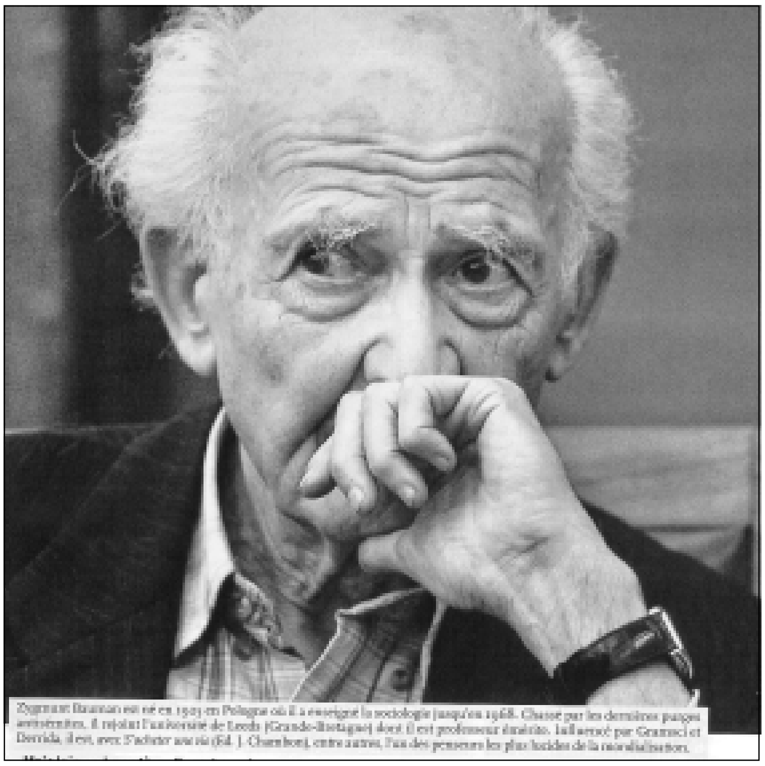

زيجمــونت باومــان

Modernity and the Holocaust
Zygmunt Bauman
Cornell University Press,2001

الصهيـــــونيـة والحــــــــداثة

يكشف المؤلف عن الخلل الذى يعترى الدراسات التى تتناول الهولوكوست بوصفها ذروة معاداة السامية، أو بأنها مشكلة ألمانية وحسب، أو بوصفها جريمة اقترفها الألمان بحق الجماعات اليهودية وحدها، أو بأنها جريمة اقترفها مجموعة من المجانين والمعتوهين. وتكمن أهمية هذا الفصل فى تفكيك مصطلح «معاداة السامية» وإعادة تركيبه، بحيث تنحصر دلالته فى «معاداة اليهود» منذ ظهور المسيحية وحتى عصر الحداثة الغربية. وفى الفصل الثالث، الذى يحمل أيضا عنوان الفصل الثانى، يحاول الكاتب إبراز العلاقة بين المعاداة الإقصائية لليهود من جهة والتحولات الثقافية والسياسية والاجتماعية من جهة أخرى. وهنا يشير المؤلف إلى أن العنصرية ترتبط بشكل حتمى باستراتيجية الإقصاء. فإذا ما كانت الظروف مواتية، فإن العنصرية تستوجب التخلص من الجماعة الضارة خارج نطاق الأرض التى تقطنها الجماعة التى تواجه الضرر. وإذا لم تسمح الظروف، فإن العنصرية تستوجب التصفية الجسدية للجماعة الضارة. فالطرد والتدمير عبارة عن طريقين تبادليين للإقصاء. ويرى الكاتب أنه من الصعب، وربما من المستحيل، أن يصل أحد إلى فكرة إبادة شعب بأكمله دون وجود صور إدراكية عرقية، أى دون رؤية للمرض المميت والمزمن، الذى يستعصى على العلاج. إنه أيضا من الصعب، وربما أيضا من المستحيل، أن يصل أحد إلى مثل هذه الفكرة دون الممارسة الدقيقة للطب (الطب بمعناه الحرفى، والذى يهتم بجسد الأفراد من الجنس البشرى، وكذلك الإيحاءات المجازية الهائلة لهذا المفهوم)، وكذلك نماذجه للسلامة البدنية والصحة العقلية، وكذلك استراتيجيته فى الفصل والإقصاء وتقنياته فى العمليات الجراحية. إنه من الصعب، أن يتصور أحد هذه الفكرة بمعزل عن النزعة الهندسية نحو المجتمع. لكل ما سبق، ينظر المؤلف إلى النزعة الإبادية لمعاداة اليهود بوصفها ظاهرة حديثة تماما. فالعنصرية وحدها، حتى وإن ساندها التوجه التكنولوجى للعقل الحديث، يصعب أن تصنع ما صنعته الهولوكوست. فإذا ما أرادت العنصرية تحقيق ذلك، لابد لها أن تمتلك القدرة على تأمين العبور من النظرية إلى التطبيق، وذلك ربما يعنى تعبئة عمالة بشرية كافية، من خلال القوة التعبوية للأفكار، للتعامل مع حجم المهمة ودعم تفانيهم للوظيفة طوال الفترة التى تتطلبها المهمة. فمن خلال التدريب الأيديولوجى، تقوم العنصرية بتعبئة الجماهير من غير اليهود بمشاعر الكراهية والاشمئزاز من اليهود بصورة قوية لإثارة أفعال عدوانية ضد اليهود أينما كانوا.

يقع الفصل الرابع تحت عنوان «الهولوكوست بين الأيقنة والأنسنة»، وفيه

عبدالوهاب المسيرى

يحدد المؤلف السمات التى تميز الهولوكوست عن كافة الجرائم التاريخية الأخرى. فقد وقعت الهولوكوست فى وقت اعتقدنا أننا تصالحنا مع الحضارة الغربية، وفى وقت أدركنا بواطن بواعثها وآفاق مستقبلها! وهنا يسوق المؤلف أنماط العمل البيروقراطى التكنولوجى ذى الصبغة الحداثية، وكذلك العقلية التى تؤسسها وتولدها وتعززها وتعيد إنتاجها. فقد قللت الهولوكوست من حجم كل صور الشر الأخرى فى الذاكرة والتاريخ، حيث اتضح فجأة أن أبشع صور الشر فى تاريخ الإنسان لم ينشأ من كسر النظام، بل من اتباع النظام بشدة وبلا أخطاء، ولم يكن عملاً من قِبل مجموعة من الغوغاء بل مجموعة محترمة ومنظمة ترتدى زيًا رسميًا وتتبع القانون والتعليمات. كما يتناول هذا الفصل دور العلماء فى ارتكاب الهولوكوست بطريقة مباشرة أيضاً. فالعلم الحديث عبارة عن مؤسسات عملاقة ومعقدة، والأبحاث تحتاج إلى تكاليف باهظة لأنها تتطلب مبانى ضخمة ومعدات باهظة الثمن وعددا كبيرا من الخبراء الذين يتقاضون مبالغ طائلة. العلماء يقودهم الفضول ويثيرهم المجهول. أما عن الأسباب التى جعلت العقلانية الأداتية والشبكات الإنسانية التى سخرت لخدمتها ماتزال تفقد بصيرتها الأخلاقية حتى هذه اللحظة تماما مثلما حدث فى الماضى، فإنها لم تتغير. ففى عام ١٩٦١، أى بعد ما يزيد على عشرين عاما على فضح جرائم النازية، صمم مجموعة من العلماء البارزين مثالاً علمياً بارزاً ومشروعا من نتاج العقلانية، وهو مشروع ساحة الحرب الالكترونية كى يستخدمه القادة العسكريون فى حرب فيتنام.

يقع الفصل الخامس تحت عنوان «استجداء تعاون الضحايا»، وفيه يكشف المؤلف عن التعاون بين النازيين والمجالس اليهودية. لقد استخدمت المجالس اليهودية قوة لا حدود لها، وبالتالى قد لعب الصفوة من اليهود دورًا وسيطًا ذا أهمية بالغة فى السيطرة على الجماعات اليهودية، وهو أمر غير مألوف ومفارقة عجيبة. فالشعب المُستضعف هنا أُقحم فى العملية بأسرها، بل وشارك فيها وأُسندت إليه المهام والأدوار، وكانت أمامه ظاهريًا اختيارات متعددة يختار من بينها. كانت اللعبة التى أقحم النازيون اليهود فيها هى لعبة الموت والبقاء. ومن ثم كانت تصرفاتهم العقلانية تهدف إلى زيادة فرص الهروب من الدمار أو تقليل نسبة الدمار. وأُختزِل عالم القيم إلى قيمة واحدة، ألا وهى البقاء على قيد الحياة.

أما الفصل السادس «مبادئ الطاعة: قراءة فى ميلجرام»، فيركز على نتائج أبحاث ميلجرام عن العنف. ووفقا لهذه النتائج، من الصعب أن نؤذى شخصًا نلمسه، وإلى حد ما، من الأسهل أن نوقع الضرر بشخص نراه عن بعد، ومن الأسهل من هذا وذاك شخص نسمعه فقط، ومن السهل للغاية أن نتصرف بعنف مع شخص لا نراه ولا نسمعه. يمكن تفسير سبب أن البعد عن الضحية يسهل ارتكاب العنف بسهولة من الناحية النفسية: حيث يُجنب الجانى عذاب مشاهدة نتيجة أفعاله. وربما حتى يقوم بخداع نفسه ويتصور أنه لم يحدث أى شىء مدمر وهكذا يقلل من تأنيب الضمير. لكن هذا ليس التفسير الوحيد. فالأسباب ليست نفسية فقط. بل مثلها مثل كل العوامل الأخرى التى تفسر السلوك البشرى فهى أسباب اجتماعية أيضًا. تتطلب لغة الأخلاق مفردات جديدة داخل نظام السلطة الإدارى. فهى مليئة بمبادئ مثل الولاء والواجب والانضباط. كلها تشير للرؤساء على أنهم الجهة العظمى المسئولة عن الأخلاق وهم فى ذات الوقت السلطة الأخلاقية العليا.

يناقش الفصل الأخير، «نحو نظرية اجتماعية للأخلاق»، المشكلة التى نشأت فى نهاية الفصل السابق، ألا وهى إنتاج المجتمع للسلوك غير الأخلاقى، فلا يكتمل أى تحليل للهولوكوست دون تقديم دراسة شاملة للعلاقة بين المجتمع والسلوك الأخلاقى. وزادت الحاجة لدراسة مثل هذه عندما أثبتت كل النظريات المتاحة فى علم الاجتماع عن الظواهر الأخلاقية عدم قدرتها على تقديم تفسير شامل للهولوكوست. والغرض من هذا الفصل هو توضيح بعض الدروس الهامة والاستنتاجات من هذه التجربة التى يجب أن يُصاغ لها نظرية مناسبة عن الأخلاق وخالية من النقص الموجود فى النظريات المتاحة.

أما الخاتمة التى تقع تحت عنوان «إعادة النظر: العقلانية والخزى»، فهى عبارة عن محاضرة بعنوان «استغلال المجتمع للأخلاق»، والتى ألقاها المؤلف بمناسبة فوزه بجائزة أمالفى الأوروبية عن كتابه الحداثة والهولوكوست. وفيها يؤكد على أن الحكم النازى قد انتهى منذ زمن بعيد، لكن ميراثه السام لم يمت بعد. ذلك لأننا حولنا الأخلاقيات إلى شىء بلا معنى ولا فائدة، وقبلنا السلطة التى تعمل بحساب التكاليف والفعالية ضد القيم الأخلاقية..

وقد كان لهذا الكتاب أثر كبير على معالجة أستاذنا الراحل عبد الوهاب المسيرى للحداثة وأبعادها المعرفية عندما اتجه إلى نفس الرأى وأكد أن الإبادة النازية هى إحدى أبرز العواقب التى أفرزتها الحداثة الغربية، وأنها ليست مسألة يهودية أو مشكلة ألمانية؛ لأن الحضارة التى رسخت مبادئ العقلانية والحداثة هى التى خرج من رحمها «الإمبريالية والشمولية والمنفعة المادية والداروينية، وفلاسفة العرقية الحديثة، وهى الحضارة التى أفرزت رؤية إبادية وصلت إلى قمتها فى اللحظة النازية. ومن ثم، فإن الإبادة النازية تعبر عن شىء حقيقى أصيل لا فى التشكيل الحضارى الألمانى وحده وإنما فى الحضارة الغربية، وليست مجرد انحراف عن تاريخ ألمانيا أو تاريخ الغرب الحديث». ■

عناصر الفكر الصهيونى اليمينى

قضايا اسرائيلية
العدد ٧٣-٨٣
المركز الفلسطينى للدراسات الإسرائيلية «مدار» ـ رام الله

يضم العدد المزدوج من المجلة الفصلية «قضايا إسرائيلية» محوراً خاصًا حول «عناصر الفكر الصهيونى اليمينى».

يبدأ المحور بدراسة للباحث الفلسطينى محمد أبو سمرة حول «زئيف جابوتنسكى والقضية الفلسطينية»، يسعى فيها إلى قراءة محاولات جابوتنسكى والحركة التصحيحية والصهيونية عامة الرامية إلى التأسيس الفكرى والسياسى والأخلاقى لنهج تحقيق المطالب القومية اليهودية فى فلسطين، وفى الوقت ذاته إلى سلب ذات الحقوق القومية من الفلسطينيين، أصحاب الحق الطبيعى فى وطنهم. كما يحاول الوقوف على موقف جابوتنسكى من المسألة الفلسطينية وذلك من خلال رصد وتحليل كتاباته السياسية والأدبية والتركيز على المفاهيم والمنطلقات السياسية والفكرية التى أثرت على صوغ وبلورة مواقفه تجاه القضية الفلسطينية والصراع على فلسطين. ومن المعروف أن منظمات عسكرية مثل «الإيتسل» و«الليحى» وحركات سياسية وحزبية مثل «حيروت» و«الليكود» حملت أفكاره السياسية وعملت على تحقيقها، كما أن شخصيات سياسية وثقافية إسرائيلية مختلفة اعتبرت نفسها وريثة مخلصة لأفكاره الأيديولوجية ولتوجهاته السياسية. وتقدّم المجلة ترجمة خاصة لمقالة «عن الجدار الحديدى» لزئيف جابوتنسكى، والتى تشكل خلفية لأفكاره وتوجهاته، وقد أكد فيها أنه ليس ثمّة مجال للحديث، لا فى الحاضر ولا فى المستقبل المنظور، عن «تصالح بين عرب فلسطين وبيننا يتحقق عن طيب خاطر». وبناء على ذلك «يتعين على الاستيطان الصهيونى أن يتواصل ضد رغبة السكان الأصليين، وبمقدوره أن يتواصل ويتطور بحماية قوة مدافعة مستقلة عن السكان المحليين - جدار حديدى لن يكون بمقدور السكان المحليين اختراقه».

كما يشتمل المحور الخاص على المواد التالية:

مقابلة (أجراها بلال ضاهر) مع البروفسور غادى إلغازى، رئيس قسم التاريخ العام فى جامعة تل أبيب، يجيب فيها عن أسئلة تتعلق بالخريطة السياسية الحزبية الراهنة فى إسرائيل فى ظل هيمنة اليمين، ويسلط الضوء على أجندة هذا اليمين فى الحلبات المدنية والسياسية والعسكرية، ويؤكد من جملة أمور أخرى أن لا أحد يمكن أن يقنعه أن باراك أكثر يسارية من ليفنى أو نتنياهو، كما يؤكد أن «اليسار الصهيونى» يفتقر إلى إستراتيجى سياسية لمقاومة اليمين، وأن أحد الأمور المستجدة فى إسرائيل خلال الأعوام الأخيرة يتمثل فى المزج بين مشاريع أيديولوجية يمينية وبين مبالغ مالية خارجية كبيرة.

دراسة حول «إسرائيل وتهديد الإرهاب النووى» أعدها د. تشاك فرايليخ، الذى كان يشغل منصب نائب رئيس مجلس الأمن القومى فى إسرائيل، تسلّط الضوء على ما يسمى «تهديد الإرهاب النووى» الذى تواجهه إسرائيل، وتستعرض السيناريوهات المحدّدة التى قد يتحول فيها التهديد إلى حقيقة واقعة. وتستعرض الدراسة بعد ذلك الخيارات السياساتية المتاحة أمام إسرائيل للتعامل مع هذا التهديد، سواء كان ذلك بمفردها أو بالتعاون مع الولايات المتحدة الأميركية.

المقاطع الرئيسة من دراسة أعدها «مركز الفكر الصهيونى، اليهودى، الليبرالى والإنسانى - متسيلاه»، وصدرت باللغة العبرية فى كتيب خاص تحت عنوان «ورقة موقف: اتجاهات ديمغرافية فى إسرائيل»، وتبحث فى الاتجاهات الديمغرافية السائدة فى إسرائيل ولا سيما الاتجاهات الجديدة التى ظهرت فى السنوات الأخيرة، متفحصة أسبابها وانعكاساتها المحتملة على مستقبل إسرائيل والأغلبية اليهودية فيها، وعلى بقائها كـ «دولة يهودية متطورة ومزدهرة»!

وفى زاوية «متابعات» كتب مهند مصطفى عن «المؤسسة الأكاديمية الإسرائيلية بين صراعها الداخلى والصراع مع وزارة المالية»؛ وكتب أنطوان شلحت «فصول فى دليل الاستملاك الصهيونى للقدس وفلسطين»؛ وقدم برهوم جرايسى قراءة فى تقرير جديد صدر مؤخرًا عن «معهد تخطيط سياسة الشعب اليهودى» التابع للوكالة اليهودية، ويتضمن تصورات خبراء عملوا ضمن المعهد فيما يتعلق بأوضاع اليهود فى العالم حتى العام ٢٠٣٠.

كما نشرت المجلة فصلاً من تقرير صدر مؤخرا عن «مركز طاوب لدراسة السياسة الاجتماعية فى إسرائيل» بعنوان «تقرير حالة الدولة، المجتمع، الاقتصاد والسياسة ٢٠٠٩». وهو بقلم رئيس المركز وأستاذ الاقتصاد فى جامعة تل أبيب، البروفسور دان بن دافيد. ويتناول أساسًا العلاقة بين التعليم وبين الوضع الاقتصادى والاجتماعى لإسرائيل، وفقًا لوجهة نظر تؤكد أن أحد العوامل الرئيسة المسببة للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية السائدة فى إسرائيل يتمثل فى جهاز التعليم.

أمّا فى زاوية «قراءات» فقدمت سلافة حجاوى قراءة فى كتاب «المفاهيم الصهيونية للعودة: أساطير وسياسات ودراسات إسرائيلية» لغابرييل بيتربيرغ، والذى قامت الكاتبة بترجمته إلى اللغة العربية وصدر عن مركز مدار. وقدّم بلال ضاهر عرضًا لكتاب «أسطورة نيوبى - الأخلاق والعنف فى الأساطير المعاصرة»، الذى يتناول أيديولوجيات العنف على أنواعها، ويستعرض عنف الدولة والعنف فى الفكر الفلسفى الأوروبى القديم والحديث والمعاصر. وقدّم تحسين يقين قراءة فى كتابين جديدين صدرا مؤخرا عن المركز الفلسطينى للدراسات الإسرائيلية- مدار: الأول- «الفلسطينيون فى إسرائيل- سياسات الأقلية الأصلية فى الدولة الإثنية»، من تأليف د. أسعد غانم ومهند مصطفى؛ الثانى- «المؤسسة العسكرية فى إسرائيل (تاريخ، واقع، إستراتيجيات وتحولات)»، من تأليف د. جونى منصور وفادى نحاس. ■

الكتب وجهات نظر
إلى المحرر

ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء. مثلها مثل المقالات ذاتها. لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

الياء والألف المقصورة ومجلدات «وجهات نظر»

أكتب إليكم اليوم لأعبر عن شكري لجهودكم (...)، وأود أن أضع بين أيديكم بضع ملاحظات، وأولها متعلقة بالتصحيح الطباعي للحروف فقد اعتادت «وجهات نظر» على تجاهل حرف الياء (ي) في نهاية الكلمات، والتي ينبغي أن تكون منقوطة لتمييزها عن الألف المقصورة وهو ما يقلب المعنى رأساً على عقب، وهذا الأمر يضيق منه صدري فأرجو أن يتم الانتباه له، ومن الأمثلة على ذلك: من صفحة رقم ١٦ في العدد ١٣٠ الصادر في نوفمبر ٢٠٠٩ ما يأتي:

«ساركوزى» وصحتها «ساركوزي»

«وفى» وصحتها = «وفي»

«يعنى» وصحتها «يعني»

«بأيدى» وصحتها «بأيدي»

أما الملاحظة الثانية فهى عبارة عن استفسار حول عدم نشر عروض الكتب الصادرة فى المغرب العربي والاكتفاء بمطبوعات دور النشر المشارقية المعروفة لدى القارئ.

ولي سؤال أخير؛ لماذا لا يتم تضمين العدد الأخير من كل عام كشافا متكاملا للمجلة؟ وإن تعذر فلماذا لا تتوفر نسخة إلكترونية على الإنترنت من الكشاف الكامل؟ وهل بالإمكان إصدار الأعداد كاملة فى مجلد؟

فكري الرعدي

باحث جامعي وكاتب صحفي

محافظة إب . اليمن

«فى مسألة اللوبى العرب واليهود فى أمريكا» تصويبات ضرورية

تقديرا منا على مانعرفه من حرص «وجهات نظر» على الدقة والمصداقية، نود أن نلفت نظر قرائها الى عدد من الأرقام والتعبيرات غير الدقيقة التى وردت فى مقال «العرب واليهود فى أمريكا» والمنشور فى عدد ٩٣١ (أغسطس ٢٠٠١)

١. ذكر الكاتب أن عدد المسلمين فى الولايات المتحدة يصل الى ٥٠ أو ٦٠مليونا، فى تذهب كل التقديرات المعروفة الى أن العدد لا يتجاوز بحال الـ ٧ ملايين (تقدير مجلس العلاقت الاسلامية الأمريكية CAIR) بينماتقدرهم المصادر غير الاسلامية بـ ٢ مليون فقط.

٢ ـ لم تكن الثورة الأمريكية فى «منتصف القرن الخامس عشر» كما ذكر الكاتب. فأمريكا لم تكتشف، على يد كريستوفر كولمبوس، إلا فى نهاية القرن الخامس عشر و بالتحديد فى عام ١٤٩٢.

اما الثورة الأمريكية على الإمبراطورية البريطانية و التى انتهت بالاستقلال وإعلان الولايات المتحدة فكانت فى القرن الثامن عشر من ١٧٧٥ وحتى ١٧٨٣.

٣ ـ يقول الكاتب «...بل إن الملوك المسيحيين فى العصور الصليبية وما قبلها قاموا بمذابح جماعية ضد اليهود خاصة فى أسبانيا و إيطاليا (محاكم التفتيش)». والحقيقة أن التعبير المستخدم، وهو «العصور الصليبية» تعبير غير دقيق. و كان من الممكن أن نقول «فترة الحروب الصليبية» أو «عصر الحروب الصليبية» (مثلاً)، أو إذا كان المقصود تحديد عصر تاريخى فيكون الاصح أن نقول «العصور الوسطى»، و ليس «العصور الصليبية». عند استخدام هذه التعبيرات فلابد من مراعاة ما اصطلح عليه المؤرخون، وليس من المعقول أن نبتكر تعبيرات جديدة لوصف العصور التاريخية.

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن فترة الحروب الصليبية، والتى شهدت مذابح لليهود، امتدت منذ سنة ١٠٩٦ وحتى سنة ١٢٩١، بينما محاكم التفتيش الأسبانية الشهيرة، وما صاحبها من اضطهاد للمسلمين واليهود، فهى فترة مختلفة بدأت فى القرن الخامس عشر(١٤٧٨).

في مسألة اللوبي

العرب واليهود فى أمريكا؟

(بالرغم من وجود جذور تاريخية قديمة لـ Inquisition ، إلا أنه يبدو من السياق أن تلك الجذور لم تكن هى التى يقصدها الكاتب).

٤ ـ يشار عادة لمبنى الكونجرس الأمريكى بإسم «Capitol Hill» و ليس «Capital Hall» كما جاء فى المقال. ولعلها خطأ مطبعى.

مهندس أشرف سعيد عاشور

كندا

«أفول العصر الأمريكى» أكتوبر ٢٠٠٩

.... قد يكون مفيدا أن أبدأ بتقديم نفسى كقارئ لـ «الكتب وجهات نظر» منذ صدور أول عدد (......) ولقد هممت أكثر من مرة أن أكتب لكم معبرا عن تقديرى لهذه النافذة الواعية على آخر منتجات الفكر الإنسانى من كتب ومقالات.كنت أتمنى أن تكون أول رسائلى لكم من باب الشكر والمديح اللذين تستحقونهما بكل جدارة، ولكن يبدو أن دافع القدح دائما أقوى من حافز المدح، (.....) حيث اطلعت على مقال كنتم قد نشرتموه تحت عنوان «أفول العصر الأمريكى» استثارنى فيه أمر إلى حد الحرج الذى لا أستطيع بعده السكوت. (...) والمقال ترجمة لمقال كان قد نشره إمانويل ولارشتين على موقع Agency Global بعنوان «العاصفة النارية القادمة The Firestorm Ahead»، ولما كنت قد قرأت هذا المقال من قبل، بل وكتبت عنه ملخصا فى إحدى الجرائد الالكترونية، فقد وجدت أن هناك تغييبا واضحا لأهم نقطة فى المقال الأصلى تكاد تكون نقطته المركزية!، النقطة المركزية هى تأكيد ولارشتين بنص مقاله: « ما لا تدركه الحكومة الإسرائيلية هو أن لا حماس ولا حزب الله يحتاجان لإسرائيل. إن إسرائيل هى التى تحتاج إليهما، وتحتاجهما بشدة. إذا لم ترد إسرائيل أن تصبح ولاية صليبية ينتهى أمرها بالزوال، فإن فقط حماس وحزب الله هما القادران على ضمان بقاء إسرائيل. فقط عندما تصبح إسرائيل قادرة على الاتفاق معهما، باعتبارهما المتحدثين الرسميين الأكثر تجذرا عن الفلسطينيين والقومية العربية، تصبح إسرائيل قادرة على البقاء فى سلام». والنقطة المركزية هنا تشتمل على نقطتين فرعيتين، الأولى والأهم هى تنبؤ ولارشتين بزوال دولة إسرائيل فى حال عدم تفهمها لمحركات التاريخ بالمنطقة، والثانية هى اقتناع ولارشتين بأهمية دور كل من حماس وحزب الله فى معادلة القوى فى المنطقة. وقد فوجئت بغياب تام لتلك الفقرة وعدم الإشارة حتى إلى أى من محتوياتها فى ترجمة الأستاذ مازن النجار لمقال ولارشتين!، هذا مع العلم أن تلك الفقرة كانت هى الجزء المقتطع فى أعلى المقال باعتباره جوهر فكرته!! ولما كان تقديرى للمترجم يمنعنى من الاعتقاد بأن الأمر لايعدو كونه سهوا أو خطأ غير مقصود، فلايبقى أمامى، احتراما لعقلى، إلا استنتاج أن الحذف المتعمد فى أقصى تقدير، أو «الانتقاء المخل» فى أقل تقدير، هو أمر مقصود لذاته، ولكن الذى لم أستطع أن أستنتجه هو السبب المباشر لهذا «الانتقاء المخل»، هل هو موقف مبدئى أو توجه أيديولوجى ضد ما تمثله حماس وحزب الله؟ أم هو قسوة ووضوح ولارشتين فى التنبؤ لإسرائيل بأنها ستكون « آخر ولاية صليبية» (...)؟!؟ أظن أنه يحق لى بعد ثقة دامت أكثر من عشر سنوات فى مجلتنا « الكتب وجهات نظر»، أن أتساءل عن، ولا أقول أشكك فى مدى أمانة النقل والترجمة لما أقراه بثقة مطلقة على صفحات مجلتنا..

عميد مهندس متقاعد
مسعد غنيم

مدير تحرير الجريدة الالكترونية «مصرنا»

من مقاتلى أكتوبر «الذى كان»!

رأى

المسيحيون العرب

كمال الصليبى

■■ يعزّ علىّ كثيراً، كونى عربياً أنتسب إلى المسيحية، (...) أن أكون الشخص الذى اختير ليطرح موضوعاً درجت تسميته بتراجع الدور المسيحى فى لبنان، أو فى المشرق العربى، أو فى عالم العرب عموماً، أو مهما يكن الأمر. وكأن المسيحيين فى ديارنا ليسوا سوى بقية باقية من شعب منقرض: بقية تنتظر دورها لتنزلق فى متاهات الزوال. إن مجرد طرح هذا الموضوع من قبل العرب المسيحيين هو فى رأيى افتراض فى غير محله لأنه يتجاهل حقائق تاريخية وحضارية ووجودية ولأنه يعنى، ضمناً، أن العربى المسيحى لا يعتبر نفسه عربيا بكامل معنى الكلمة لمجرد وجوده حيث هو، مهما كان موقف العربى الآخر منه.

الموضوع الذى يجب أن يُطرح ليس هذا، بل موضوع آخر أكثر منه خطورة. وهو سؤال يلزم طرحه ليس فقط فى البلاد العربية حيث للعرب المسيحيين وجود، بل أيضاً فى تلك البلاد التى ليس لهم فيها وجود أو حضور دائم، سواء فى مشارق بلادنا أو فى مغاربها. هذا السؤال البالغ الأهمية يمكن إيجازه كالآتى: ما هو مصير العرب كشعب تاريخى فى حال زوال النصارى من بينهم، مع الأخذ بالاعتبار أن مثل هذا الزوال للنصارى العرب، فى صورة أو أخرى، أمر يمكن تخيلُه؟ الذى سيحدث هو أن العرب لن يبقوا عرباً، فى حال زوال النصارى مما يُطلق عليه حتى الآن اسم العالم العربى. لن يبقى العرب عرباً على أرضهم التاريخية. بل ان الأمر يتخطى ذلك بكثير ويتجاوزه. مع مثل هذا الزوال المفترض للنصرانية العربية، لن يكون هناك شىء فى العالم اسمه عرب بالمعنى الكيانى التاريخى الوجودى المطلق ودون تحفظ. وبعبارة أخرى، لن يبقى هناك فى أى مكان من العالم كينونة عربية قائمة بذاتها لا تتصف إلا بعروبتها.

كمال الصليبى هو أستاذ جامعى ومؤرخ تاريخى لبنانى. قام بأبحاث تاريخية أثارت كثيرا من الجدل حول تاريخ وجغرافيات التوراة. كان رئيسا لدائرة التاريخ وعلم الآثار فى الجامعة الأميركية فى بيروت. وفى عام ١٩٩٤ وبطلب من الأمير حسن بن طلال أسس المعهد الملكى للدراسات الدينية فى عمان.

النصرانية فى ديار العرب جاءت سابقة للإسلام بحوالى ستة قرون، مما يجعل منها أصلاً وليس فرعاً للكينونة العربية التاريخية، على عكس الرأى السائد بين العامة من النصارى والمسلمين والقائل بأن العروبة مرتبطة أصلا بالإسلام. والواقع أن للمسيحية فى تاريخ العرب على مر العصور دوراً واضحاً وجلياً. قرون من الحروب بين المسلمين والروم، ثم بين المسلمين والفرنجة وإلى ما ذلك، لم تؤثر فى هذا الدور ولا هى تمكنت من إلغائه أو تحجيمه.

من نصارى ما قبل الإسلام من كان على رأس شعراء الجاهلية الذين هذّبوا الهجات لغة الأعراب وصقلوها فى ما نظموا من روائع الشعر، فخلقوا بذلك اللغة العربية الفصحى، واضعين الأسس الأولى لتراثها المستمر الذى يبقى حتى هذا اليوم المفخرة التى يجتمع حولها مجمل العرب.

جميع ممالك العرب وإماراتهم، فى زمن ما قبل الإسلام، كان نصرانياً، إن لم يكن يهودياً. ثم جاء الإسلام فحلّ مكان النصرانية باستئثاره بالطليعة العربية ومُثلها من مروءة وفروسية وشهامة، فكلل بذلك نجاحه التاريخى الباهر.

هذا النجاح كان ظاهرة تاريخية ما زال العرب المسيحيون وغيرهم فى حيرة من أمرها حتى يومنا هذا. الإسلام، تاريخياً، استأثر بالعروبة وتملكها، وهو ما زال حتى اليوم مرتبطا ارتباطاً وثيقاً ومتبادلاً مع هذا الإرث الأصيل. أما آن الأوان لنا، نحن العرب النصارى الذين ما زلنا نعتز بعروبتنا، أن نقول، بكل صدق مع أنفسنا: مضى ما مضى؟ أمِنَ الضرورى أن نجعل من الأمور التاريخية التى وصفها أحد رواد العالم الحديث جورج فورد بكونها Bunk، أى هراء، ما يعكر صفو عيشنا الجميل مع رهطنا أو ربعنا العربى على تنوعه، وما أحلاه؟

هذا أمر يبقى لكل واحد من نصارى العرب أن يقرره لنفسه ويدخله فى قناعاته ويقينه: هل يريد أن يبقى فى دياره التاريخية، مقيماً مع رهطه من العرب حيث كانوا بتوافق وتآلف أخويين، أم أنه يفضل الهجرة إلى الخارج ليعيش مع ربع أقرب إليه مسلكاً وروحية، كما يتصور؟ إذا قرر الهجرة فهذا شأنه وما لنا إلا أن ندعو له بالتوفيق. لكن إذا هو قرر أن يجعل من وجوده مشكلة لنفسه ولمجتمعه تتحدى الحل، فهذه مسألة أخرى لا بد أن يحاسب عليها أمام التاريخ. وبالنهاية لن يصيب العرب المسيحيين حيث وجدوا فى بلاد المشرق إلا ما يشاءونه أو يصنعونه هم لأنفسهم.

سوف أطلق هنا العنان لخيالى فأقول: لبنان، بالنسبة الى العرب، هو آخر معاقل النصرانية فى ديارهم. ومنذ عشرين سنة تقريباً، عندما بدا للعرب من أقصى مشارقهم الى أقصى مغاربهم، ان النصرانية فى لبنان توشك على الانهيار، تملكهم الخوف وهبوا جميعا لوضع حد لهذا الانهيار، لا بل لمنعه من الحصول. فكانت وثيقة الطائف: هذه الوثيقة التى يتصدى لها من نصارى لبنان فريق ويرى فيها مسّاً بالمصالح المسيحية ونيلاً من حقوق يعتبرونها خاصة بالمسيحيين. وكان على رأس المتحمسين لمنع انهيار المكانة الخاصة بالمسيحيين فى لبنان من كان على خصومة معهم من مسلمى البلاد منذ تأسيس الدولة اللبنانية عام ١٩٢٠ وحتى أواخر الحرب الأهلية.

(...)

لو لم يكن المسؤولون العرب فى ذلك الوقت، مدركين كامل الإدراك، فى سريرتهم ان لم يكن جهراً، أهمية النصارى العرب، ونصارى لبنان تحديداً، للكينونة العربية التاريخية برمتها، هل كان من حدث مثل مؤتمر الطائف يعقد أصلا، بل يستمر منعقداً حتى الوصول الى نتيجة تبقى النصارى فى البلاد على رأس الهرم، وان بصلاحيات لا تستفز غيرهم من اللبنانيين كما كان الواقع فى السابق؟ هل هذا الحدث التاريخى الفريد من نوعه. الذى هو انعقاد مؤتمر الطائف للبت العربى فى أمر لبنان. يعنى أن نصارى لبنان بقية من شعب منقرض غير مرغوب فى استمرار وجوده وفعاليته فى العالم العربى؟ هل يعى نصارى لبنان الى الحد الكافى ان عالمهم العربى الذى تهب عليه الرياح من كل صوب، لم يتحرك جدياً حتى الآن إلا لنصرة لبنان والوضع الخاص للنصرانية فيه. وهل من أهمية للبنان إلا كونه. فى نهاية المطاف. وبسبب التركيبة الديموغرافية الخاصة به. محجة لا محجة بعدها للعالم العربى؟

نعود الى الموضوع الذى طلب منى معالجته: تراجع الدور المسيحى فى لبنان وبلاد المشرق والعالم العربى. وأنا أرد على هذا الافتراض بطرح سؤال آخر: ما هو هذا الدور المسيحى الذى تتحدث عنه؟ هل لدى العرب المسيحيين فى الوقت الحاضر ميزات عقلية أو تقنية أو غير ذلك تجعل منهم عنصراً لا يستغنى عنه فى ديار العرب؟ ربما كان ذلك صحيحاً فى الماضى فى بعض الفترات وعلى بعض الصعد. لكننا نتحدث عن اليوم أى، أولاً، بعد زوال الحدود فى انتقال المعلومات بين الشرق والغرب فى العالم عن طريق وسائل الاتصال الالكترونية، وثانياً، بعد انحسار الفارق فى التقدم الحضارى بين المسيحيين وغير المسيحيين فى العالم العربى، وانفتاح العرب عموماً على طروحات ومتطلبات العالم الحديث والعلاقات الدولية الحديثة.

اليوم، وبعد كل هذه التغيرات التى جاء بها العالم المعاصر، يبقى لنصارى لبنان وبلاد المشرق العربى خصوصية تتمثل أكثر ما يكون فى كينونتهم واستمرار وجودهم على أرضهم التاريخية إن هم شاءوا ذلك فعلياً. و«الحجر على أرضه قنطار»، كما يقال. أما إذا نقلنا هذا الحجر الى الخارج، فعند ذلك يصح فينا قول زهير بن أبى سلمى، من شعراء الجاهلية (وثمة من يعتقد انه كان من نصارى ذلك العصر):

ومن يكُ ذا فضل ويبخل بفضله
على قومه يستغن عنه ويذمم

اعتداد العرب المسيحيين بالمهاجرين والمغتربين منهم هو فى نظرى ظاهرة مساوئها أكثر من محاسنها، إن لم يكن لشىء فلأنه يشجع نصارى بلادنا ضمناً، وغيرهم، على الهجرة. والهجرة هى من أهم أسباب تناقص أعداد النصارى فى بلادنا نسبياً ومطلقاً، إن لم يكن أهمها. هذا التناقص فى الأعداد هو السبب الأساسى للتخوف العام (وليس المسيحى فقط) من تراجع الدور المسيحى فى جميع بلاد المشرق العربى، والأصداء السلبية المنتظرة لمثل هذا التراجع.

المسيحيون الباقون حتى اليوم فى ديارهم العربية، والى جانب رهطهم، هم وحدهم من حماة هذه الديار، ان هم أرادوا ذلك فعلياً. المطلوب منهم هو. فقط. استمرار وجودهم حيث هم، حتى تستمر الظاهرة التاريخية التى اسمها العرب النصارى، التى بدونها لن يكون هناك شىء اسمه عرب. فهل ندرك عمق المسؤولية التاريخية والحضارية المنوطة بنا وخطورتها؟

إذا شئنا نحن المسيحيين البقاء على مستوى هذا الاستحقاق التاريخى الذى من خلاله يتقرر حضورنا ومصيرنا، فواجب علينا تجاه أنفسنا بادئ ذى بدء فهم أوضاعنا على حقيقتها على اننا جزء من كل، والكف عن العيش فى الأوهام، واعادة الثقة الى أنفسنا، بهويتنا العربية التى نستمد منها كل ما نتميّز به. ■